المحاسن والأضداد

للجاحظ

حققه وقدم له

المحامي

فوزي عطوي

مقدّمة

وهذا سفر آخر من الاسفار القيّمة التي صنّفها ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ورجّع فيها أصداء الثقافة المحيطة الشاملة التي يتمتع بها ، فجمع الى محاسن الامور مساوئها ، وقرن أمثالها بأضدادها ، ولم يترك قولاً مأثوراً ، او طرفة بارعة ، او رواية شيّقة إلا أوردها في الباب المخصّص لها ، في كثير من البراعة والتوفيق . حتى لتقرأ كتابه هذا من غلافه الى غلافه ، فلا ينتابك ملل ، ولا تصيبك سآمة .

على أنك لن تعثر في هذا الكتاب على البحث المتعمق ، والفكرة المجددة ، والمنطق الساحر ، أسوة بما ضمّنه الجاحظ كتبه الباقية التي سبق لنا تحقيق اربعة منها هي « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « رسالة التربيع والتدوير » ؛ ذلك ان أبا عثمان يسرد ما استوعبته ذاكرته من أقاصيص وأقوال ، مضفياً على السرد براعةً في الكتابة لا تُدانى ، في شيء من التنسيق والتنظيم . وليس من الصعب في شيء تبيّنُ مواطن تأثر الجاحظ بعبد الله بن المقفع ، في سرد بعض الحكايات والامثال ، غير ان ذلك التأثر لا يجرّد أسلوب الجاحظ من الأصالة والطابع الشخصي في آن واحد .

ولك أن تأخذ ، كما آخذ على أبي عثمان ، حشو كتابه هذا ، بالألفاظ النابية التي يمجّها الذوق الأدبي السليم ؛ ولكن متى ذكرت ان أدب الجاحظ هو أدب الواقع ، بمحاسنه وأضداده ، بألفاظه الأنيقة الميساء ، وعباراته المبتذلة الخرقاء ، وجدت للكاتب في نفسك عذراً ، وان كان العذر ، في هذا المقام ، أقبح من الذنب

وبعد ، فان كل محاولة للتعريف بكتاب « المحاسن والاضداد » ، هي في رأينا من نوافل القول ، ففي العنوان ما يشفّ عن المحتوى ، وفي السطور ما يغني عن البيان . وحسبنا ان نزفّه إليك جليساً بلا مؤونة ، على أنه « الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يقليك ، والرفيق الذي لا يملّك ، والمستمع الذي لا يستزيدك ، والجار الذي لا يستبطئك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق » ، على حدّ تعبير صاحب الكتاب .

وعسى أن تُلقى هذه المحاولة من القارىء الكريم بقبول حسن ؛ والله ولي النجاح والتوفيق .

بيروت ، في ٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩

فوزي خليل عطوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله ، سيدنا محمد ، وآله أجمعين .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رحمه الله : « إني ربما ألّفت الكتاب المحكم المتقن في الدين ، والفقه ، والرسائل ، والسيرة ، والخطب ، والخراج ، والاحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه الى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته ؛ وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم ، والتأخير ، والحط ، والرفع ، والترهيب ، والترغيب ، فانهم يهتاجون عند ذلك ، اهتياج الإبل المغتلمة . فان أمكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألّف له ، فهو الذي قصدوه وأرادوه ، وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقّاباً ، ونقريساً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة ، سرقوا معاني ذلك الكتاب ، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه الى ملك آخر ، ومتّوا إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إليّ ، وموسوماً بي .

وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على مَن تقدّمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ، ويحيي بن خالد ، والعتابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة يأتمُّ بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمي ، ولم يُنسب الى تأليفي .

وهذا كتاب وسمته (بالمحاسن والأضداد) لم أسبق الى نحلته ، ولم يسألني أحد صنعه ؛ ابتدأته بذكر محاسن الكتابة ، والكتب ، وختمته في ذكر شيء من محاسن الموت ، والله يكلؤه من حاسد اذا حسد .

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون ، مثل بناء ازدشير وبناء اصطخر ، وبناء المدائن والسدير ، والمدن والحصون . ثم ان العرب شاركت العجم في البنيان ، وتفردت بالكتب والاخبار ، والشعر والآثار ؛ فلها من البنيان غمدان ، وكعبة نجران ، وقصر مأرب ، وقصر مارد ، وقصر شعوب ، والابلق الفرد وغير ذلك من البنيان ، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان ، لان البناء لا محالة يدرس ، وتعفى رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ، ومن امة الى امة ، فهو ابداً جديد ، والناظر فيه مستفيد ، وهو ابلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير . وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخلقة مركبة في البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتيء ، وربما كان هو المحفور ، اذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم ، او عهداً لأمر عظيم ، او موعظة يرتجى نفعها ، او احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المقشعر ، وعلى الابلق الفرد ، وعلى باب الرهـــا ؛ يعمدون الى المواضع المشهورة والاماكن المذكورة ، فيضعون الخط في ابعد المواضع من الدثور ، وامنعها من الدروس . واجدر ان يراه من مرّ به ، ولا ينسى على وجه الدهور .

ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة ، لبطل اكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ، ولو لم يتم ذلك لحرمنا اكثر النفع ، ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، فتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لقد بخس حظنا منه ، واهل العلم والنظر واصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج المـــلل وارباب النحل ، وورثة الانبياء واعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب الملاهي ، وكتب اعوان الصلحاء وكتب اصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ، ومنهم من يفرط في العلم ايام خموله وترك ذكره وحداثة سنه ، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونازعت الى حب الكتب ، والفت من حال الجهل وان يكونوا في غمار الوحش ، ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى ان يكون لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير .

وسمعت محمد بن الجهم يقول : « اذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي للفوائد الاريحية التي تعتريني من سرور الاستنباه وعز التبيّن ، اشد ايقاظاً من نهيق

الحمار ، وهدة الهدم ، فاني اذا استحسنت كتاباً واستجدته ورجوت فائدته ، لم أوثر عليه عوضاً ، ولم ابغ به بدلاً ، فلا ازال انظر فيه ساعة بعد ساعة ، كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قبله » .

وقال ابن داحة : « كان عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك فقال : « لم أرَ اوعظ من قبر ولا آنس من كتاب ، ولا اسلم من الوحدة » .

واهدى بعض الكتاب الى صديق له دفتراً وكتب معه : « هديتي هذه ، اعزك الله ، تزكو على الانفاق ، وتربو على الكد ، لا تفسدها العواري ، ولا تخلقها كثرة التقليب ، وهي إنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلوة وتمنع من الوحدة ، مسامر مساعد ، ومحدث مطواع ، ونديم صدق .

وقال بعض الحكماء: «الكتب بساتين العلماء» وقال آخر: «ذهبت المكارم الا من الكتب».

قال الجاحظ : وانا احفظ واقول : « الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشرة ونعم النزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الانيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشي ظرفاً ، وإناء شحن مزاحاً ، ان شئت كان أعيا من باقل ، وان شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرّتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ، وبناسك فاتك ، وناطق اخرس ؛ ومن لك بطبيب اعرابي ، وورومي هندي ، وفارسي يوناني ، ونديم مولد ، ونجيب ممتع ؛ ومن لك بشيء يجمع الاول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه، والجنس وضده ؛ وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن ، وروضة تنقل في حجر ، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الأرض واكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من ارباب الوديعة ؛ ولا اعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً انصف ، ولا رفيقاً اطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية وعناية ، ولا اقل املالاً ولا ابراماً ، ولا ابعد من مراء ، ولا اترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا اكف في قتال من كتاب ، ولا أعمّ بياناً ، ولا احسن مؤاتاةً ، ولا اعجل مكافأةً ، ولا شجرة اطول عمراً ، ولا أطيب ثمراً ، ولا اقرب مجتنى ، ولا اسرع ادراكاً ، ولا اوجد في كل إبان من كتاب . ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه وإمكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ، ومن

الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والامثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارته غباً وورده خمساً ، وان شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يقليك ، والرفيق الذي لا يملّك ، والمستمع الذي لا يستزيدك ، والجار الذي لا يستبطئك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق .

والكتاب هو الذي ان نظرت فيه اطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخم الفاظك ، ويحّج نفسك ، وعمر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفي السفر طاعته في الحضر ، وهو المعلم ان افتقرت اليه لا يحقرك ، وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وان عزلت لم يدع طاعتك ، وان هبت ريح اعدائك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء ، وان أمثل ما يقطع به الفرّاغ نهارهم واصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة ، وعقل ومروءة وصون عرض واصلاح دين ، وتثمير مال ، ورب صنيعة ، وابتداء انعام . ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه اليك ، الا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر الى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ، ومن حضور الفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، واخلاقهم الردية ، وجهالتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة والغنيمة ، واحراز الاصل مع استفادة الفرع ؛ ولو لم يكن في ذلك الا انه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما تشتهيه ، لقد كان له في ذلك على صاحبه اسبغ النعم ، واعظم المنة .

وجملة الكتاب وان كثر ورقه ، فليس مما يمل لانه وان كان كتاباً واحداً ، فانــه كتب كثيرة في خطابه ، والعلم بالشريعة والاحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير ، وقال مصعب بن الزبير : ان الناس يتحدثون باحسن ما يحفظون ، ويحفظون احسن ما يكتبون ، ويكتبون احسن ما يسمعون ، فاذا اخذت الادب فخذه من افواه الرجال ، فانك لا ترى ولا تسمع الا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً » .

وقال لقمان لابنه : « يا بني نافس في طلب العلم ، فانه ميراث غير مسلوب ، وقرين غير مرغوب ، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب » . وقال الزهري : « الادب ذكر لا يحبه الا الذكور من الرجال ولا يبغضه الا مؤنثهم » وقال : « اذا سمعت ادبـــاً فاكتبه ولو في

حائط»، وقال منصور بن المهدي للمأمون : «ايحسن بنا طلب العلم والادب» ؟ قال : « والله لأن اموت طالباً للأدب خير لي ان اعيش قانعاً بالجهل » . قال : «فالى متى يحسن بي ذلك» ؟ قال : « ما حسنت الحياة بك » .

مساويء اللحن في اللغة

وضده الحديث المرفوع : « رحم الله عبداً اصلح من لسانه » . وكان الوليد بن عبد الملك لحنة فدخل عليه اعرابي يوماً فقال : « انصفني من ختني يا امير المؤمنين » ، فقال : « ومن ختنك » ؟ قال : « رجل من الحي لا اعرف اسمه » ، فقال عمر بن عبد العزيز :

« ان امير المؤمنين يقول لك من ختنك ؟ فقال : « هو ذا بالباب » . فقال الوليد لعمر : « ما هذا » ؟ قال : « النحو الذي كنت اخبرتك عنه » ، قال : « لا جرم فاني لا اصلي بالناس حتى اتعلمه » .

قال : وسمع اعرابي مؤذناً يقول : « اشهد ان محمداً رسولَ الله » فقال : « يفعل ماذا » ؟

قال: وقال رجل لزياد: «ايها الامير؟ ان ابينا ملك، وان اخينا غصبنا على ميراثنا من اباناn» فقال زياد : « ما ضيعت من نفسك اكثر مما ضاع من ميراث ابيك ، فلا رحم الله اباك حيث ترك ابناً مثلك » .

وقال مولى لزياد : أيها الأمير احذوا لنا همـــار وهش ، فقال : « ما تقول » ؟ فقال : « احذوا لنا إيْراً » ، فقال زياد : « الاول خير من الثاني » . قال واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان : فقال الحاجب : « قمنا فقـــد أوذيتما امير المؤمنين » ، فقال عمر للحاجب : « انت والله اشد إذاء منهما » ، قال : وقال بشر المريسي ، وكان كثير اللحن : « قضى لكم الامير على احسن الوجوه واهنؤها » ، فقال القاسم التمار : هذا على قوله :

إن سُليمى والله يكلؤها ضنّت بشيء ما كان يرزؤها

مكان احتجاج القاسم اطيب من لحن بشر .

قال: وكان زياد النبطي شديد اللكنة ، وكان نحوياً ، فدعا غلامه ثلاثاً ، فلما اجابه قال : « من لدن دأوتك الى ان ديتني ما كنت تصنَناً » ، يريد (دعوتك وجئتني وتصنـع) ، ومر ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن مسلم فقال : يا ماسرجويه : « اني لاجد في حلقي بححاً . قال : هو

من عمل بلغم » . فلما جاوزه قال : تراني لا احسن ان اقول بلغم ولكنه قال بالعربية ، فأجبته بضدها .

محاسن المخاطبات

حكوا عن ابن القرية ، انه دخل على عبد الملك بن مروان ، فبينا هو عنده اذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال : « من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « ولد أمير المؤمنين » ، قال : « بارك الله لك فيهم كما بارك لأبيك فيك ، وبارك لهم فيك كما بارك لك في أبيك » ، قال : فشحن فاه دراً .

قال : وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس ، وقد أمر له بجوهر نفيس : « وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرّك ، فوالله لئن أردنا شكرك على انعامك ليقصرن شكرنا على نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك » . قيل ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلي على الرشيد فقال : مالك ؟ قال :

سوامي سوام المكثرين تجملاً ... ومالي كما قد تعلمين قليلُ
وآمرةٍ بالبخل قلت لها أقصري ... فذلك شيء ما إليه سبيلُ
وكيف أخاف الفقر أو أحرمُ الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميلُ
أرى الناس خُلّان الجواد، ولا أرى ... بخيلاً له في العالمين خليلُ

فقال الرشيد : « هذا والله الشعر الذي صحت معانيه ، وقويت أركانه ومبانيه ، ولذّ على أفواه القائلين واسماع السامعين . يا غلام احمل اليه خمسين ألف درهم » ، قال اسحاق : « يا أمير المؤمنين كيف اقبل صلتك ، وقد مدحت شعري بأكثر مما مدحتك به ؟ »، قال الاصمعي : « فعلمت انه أصيد للدراهم مني » .

قال : ودخل المأمون ، ذات يوم الديوان ، فنظر الى غلام جميل ، على أذنه قلم ، فقال : « مَن أنت ؟ » قال : « انا الناشيء في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، الحسن ابن رجاء » ، فقال المأمون : « بالاحسان في البديهة تتفاضل العقول ، يرفع عن مرتبة الديوان الى مراتب الخاصة ، ويعطى مائة ألف درهم تقوية له » .

قال : ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل ، وهو غلام على المجوسية للرشيد، وذكر أدبه، وحسن معرفته ، فعمل على ضمه الى المأمون ، فقال ليحيى يوماً : « ادخل الى هذا الغلام

المجوسي ، حتى انظر اليه فأوصله » فلما مثل بين يديه ووقف ، تحير ، فأراد الكلام فارتج عليه ، فأدركته كبوة ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكرة لما كان تقدم من تقريظه إياه ، فانبعث الفضل بن سهل فقال : يا امير المؤمنين ان من أبين الدلائل على فراهة المملوك شدة افراط هيبته لسيده » ، فقال له الرشيد : « أحسنت والله لئن كان سكوتك لتقول هذا انه لحسن ، ولئن كان شيئاً ادركك عند انقطاعك ، انه لأحسن وأحسن » ثم جعل لا يسأله عن شيء الا رآه فيه مقدماً ، فضمه الى المأمون .

قال : وقال الفضل بن سهل للمأمون ، وقد سأله حاجة لبعض اهل بيوتات دهاقين سمرقند كان وعده تعجيل انفاذها فتأخر ذلك : « هب لوعدك مذكراً من نفسك وهنيء سائلك حلاوة نعمتك ، واجعل ميلك الى ذلك في الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين ، تشهد لك القلوب بحقائق الكرم، والألسن بنهاية الجود»، فقال: «قد جعلت اليك اجابة سؤالي عني بما ترى فيهم ، وآخذك في التقصير فيما يلزم لهم من غير استئمار او معاودة في اخراج الصكاك من احضر الاموال متناولاً » ، قال : « اذن ، لا تجدي معرفتي بما يجب لأمير المؤمنين الهناء به بمـــا يديم له منهم حسن الثناء ، ويستمد بدعائهم طول البقاء » . وقال الفضل بن سهل للمأمون : « يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لوجوه خدمك عن اراقة مائها في غضاضة السؤال » ، فقال : « والله لا كان ذلك الا كذلك » .

قال ودخل العتابي على المأمون . فقال : « خُبّرت بوفاتك فغمّتني ، ثم جاءتني وفادتك فسرّتني » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! كيف أمدحك ، أم بماذا أصفك ، ولا دينَ إلا بك ، ولا دنيا إلا معك ؟ » ، قال : « سَلْني ما بدا لك ؟ » قال : « يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة » .

قال : وقدِم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة ، فقال : « أصلح الله الامير . إني قد قطعت اليك الدهناء ، وضربتُ اليك آباط الإبل من يثرب » . قال : « فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة ؟ » ، قال : « لا . ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً ، فان قمت بها ، فأهـــل ذلك ، وان يحُل دونها حائل ، لم أذمم يومك ، ولم أيأس من غدك » . فقال المهلب : « يُعطى ما في بيت المال » . فوجد مائة ألف درهم ، فدُفعت إليه ، فأخذها وقال :

« يا مَن على الجود صاغَ اللهُ راحتَهُ ... فليس يُحسِنُ غـــير البذلِ والجودِ

عمّت عطاياكَ مَن بالشّرقِ قاطبـــةً ... فأنتَ والجود منحوتانِ من عودِ

وقد يجب على العاقل الراغب في الادب ان يحفظ هذه المخاطبات ، ويدمن قراءتها ، وقد قال الاصمعي :

أَمَا لو أعي كلَّ ما أسمعُ وأحفَظُ منْ ذاكَ ما أجمَعُ
ولم استفِدْ غير ما قد جمعتُ لَقيل : أنا العالِمُ المُقنِعُ
ولكنَّ نفسي الى كل شيء من العلم تسمعُه ، تنزِعُ ،
فلا أنا أحفظُ ما قد جمعتُ ولا أنا من جمعهِ أشبَعُ
وأَقعدُ للجهل في مجلسٍ وعلميَ في الكُتبِ مستودَعُ
ومَن يكُ في علمهِ هكذا يكُنْ دهرُه القهقرى يرجعُ
يضيعُ من المالِ ما قد جمعتُ وعلمُك في الكتُبِ مستودَعُ
إذا لم تكُنْ حافظاً واعياً فَجمْعُكَ للكُتبِ ما ينفَعُ

وقال بعضهم : « الحفظ مع الإقلال أمكن ، وهو مع الاكثار أبعد . وتغيير الطبائع زمن رطوبة الغصن أقبل » . وفيها قال الشاعر :

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

وقيل : « العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، والعلم في الكبر كالعلامة على المدر .. » فسمع ذلك ، الأحنفُ ، فقال : « الكبيرُ أكثرُ عقلاً ولكنه أكثرُ شغلاً » ، كما قال :

وإنَّ مَن أدَّبتَهُ في الصِّبا كالعودِ يُسقى الماءَ في غرْسِهِ
حتى تراهُ مورقاً ناضراً بعد الذي أبصَرْتَ من يُبْسهِ

والصبيُّ عن الصبيّ أفهم ، وهو له آلف ، واليه أنزع ؛ وكذلك العالِمُ عن العالم ، والجاهل عن الجاهل . وقال الله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا » ، لأن الانسان عن الانسان أفهم ، وطباعه بطباعه آنس .

وضده ، قال : دخل ابو علقمة النحوي على أعين الطبيب ، فقال : « إني أكلتُ من لحوم الجوازيء ، وطسئتُ طسأة ، فأصابني وجعٌ بين الوابلة الى دأية العنق ؛ فلم يزل يربو وينمو

حتى خالط الشراسيف ؛ فهل عندك دواء ؟ » قال : « نعم . خذ خوفقاً وسربقاً ورقرقاً ، فاغسله واشربه بماء » . فقال : « لا أدري ما تقول » ، قال : « ولا أنا دريتُ ما قلتُ » .

قال : وقال يوماً آخر : « إني أجد ممعمة في قلبي ، وقرقرة في صدري » ، فقال له : « أما الممعمة فلا أعرفُها ، وأما القرقرة فهي ضراط غير نضيج » .

قال : وأتى رجل الهيثم بن العريان ، بغريم له قد مطله حقه ، فقال : « أصلح الله الأمير ! إنّ لي على هذا حقاً قد غلبني عليه » . فقال له الآخر : « أصلحك الله . إن هذا باعني عنجداً ، واستنسأته حولاً ، وشرطت عليه ان اعطيه مياومة ؛ فهو لا يلقاني في لقم إلا اقتضاني ذهباً » . فقال له الهيثم : « أمن بني أمية أنت » ؟ قال : لا . قال : « أفمن بني هاشم أنت » ؟ قال : لا . قال : « أفمن اكفائهم من العرب » ؟ قال : لا . قال : « ويلي عليك ! انزعوا ثيابه » . فلما أرادوا ان ينزعوا ثيابه قال : « أصلحك الله ، إن إزاري مرعبل » . قال : « دعوه ، فلو ترك الغريب في موضع لتركه في هذا الموضع » .

قال : ومرّ ابو علقمة ببعض الطرق ، فهاجت به مرّة ، فوثب عليه قوم ، فجعلوا يعصرون ابهامه ، ثم يؤذنون في أذنه . فأفلت من أيديهم ، فقال : « ما بالكم تتكأكأون عليّ تكأكؤكم على ذي جنة ؟ افرنقعوا عني » . فقال رجل منهم : « دعوه ، فإنّ شيطانه يتكلم بالهندية » .

قال : وقال لحجّام يحجمه : « اشدد قصب الملازم ، وأرهف ظبّة المشارط ، وخفّف الوضع ، وعجّل النزع ، وليكن شرطك وخزاً ، ومصُّك نهزاً ، ولا تكرهنّ أبياً ، ولا تردن أتياً » . فوضع الحجّام محاجمه في جونته ، وانصرف .

محاسن المكاتبات

قال كعب العبسي لعروة بن الزبير : قد أذنبت ذنباً الى الوليد بن عبد الملك ، وليس يزيل غضبه شيء ، فاكتب لي اليه ، فكتب اليه : « لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته ، لوجب ان لا تحرمه التفيّؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب ، ولا تعلق به الذنوب . وقد استشفعَ بي اليك ، فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط . فحقّقْ أمله ، وصدق ثقتي بك ، تجد الشكر وافياً بالنعمة » .

فكتب اليه الوليد : « قد شكرت رغبته اليك ، وعفوتُ عنه لمعوّله عليك ، وله عندي ما يحب ، فلا تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك » .

وكتب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر الى بعض اخوانه : « أما بعد ، فقد عاعقني

الشك عن عزيمة الرأي ، ابتدأتني بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتني جفاءً من غير ذنب . فأطمعني أولك في إحسانك ، وأيأسني آخرك من وفائك . فلا أنا في غير الرجاء مُجمعٌ لك اطراحاً ، ولا في غد انتظره منك على ثقة . فسبحان مَن لو شاء كشف إيضاح الرأي فيك ، فأقمنا على ائتلاف او افترقنا على اختلاف » .

قال : وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم ، فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز ، فكتب اليه : « إنّ من حفظ انعم الله ، رعاية ذوي الاحسان ؛ ومن إظهار شكر الموهوب ، صفح القادر عن الذنب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع ، واستتام الصنائع . وقد كنتُ أودعت العريان نعمةً من انعمك ، فسلبتها عجلة سخطك ، وأنصفته غضبته ، على أن ولّيته ثم عزلته وخلّيته ، وأنا شفيعه ؛ فأحبُّ أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى [1] ما أفسدته » . فعفا عنه ، وردّه الى عمله .

قال : وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه ، فشكا الى سعيد بن المسيب ذلك ، فكتب اليه : « أما بعد ، فإن أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته ، وفي عفو أمير المؤمنين سعةٌ للمسيئين » ، فرضي عنه .

قال : وطلب العتابي من رجل حاجة ، فقضى له بعضها ، ومطله ببعض . فكتب اليه : « أما بعد ، فقد تركتني منتظراً لوعدك ، منتجزاً لرفدك . وصاحب الحاجة محتاج الى نعم هنيئة ، أو لا ، مريحة ؛ والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل . وقد قلت بيتي شعر :

بسطتَ لساني ثم أوثقت نصفَهُ ... فنصفُ لساني بامتداحِكَ مُطلَقُ
فإن أنتَ لم تُنجِزْ عِداتي تركتني ... وباقي لسانِ الشُّكرِ بالناسِ موثَقُ »

قال : وكتب عمرو بن مسعدة الى المأمون في رجُل من بني ضبّة ، يستشفع له بالزيادة في منزلته ، وجعل كتابه تعريضاً : « اما بعد ، فقد استشفع بي فلان ، يا أمير المؤمنين ، لتطولك عليّ ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ؛ واعلمته ان أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدّي طاعته . والسلام » . فكتب اليه المأمون : « قد عرفنا تصريحك له ، وتعريضك لنفسك ، واجبناك اليهما ، ووقفناك عليهما » .

---

١ – تتوى : تهلك .

قال : وكتب عمرو بن مسعدة الى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند : « كتابي الى أمير المؤمنين ، ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، واختلّت احوالهم » فقال المأمون : والله لأقضيَنّ حق هذا الكلام » ، وأمر باعطائهم لثمانية أشهر .

قال : وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لعدةٍ سلفت منه ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : « توسّل[1] في رقعة مني الى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها ، تكن[2] لك عليّ نعمتان » . فكتب : « إن رأى أمير المؤمنين ان يفك أسْرَ عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ، ويأذن له في الانصراف الى بلده ، فعل ان شاء الله » . فلما قرأ المأمون الرقعة ، دعا عمراً ، فجعل يعجبه من حسن لفظها ، وايجاز المراد ، فقال عمرو : « فما نتيجتها يا أمير المؤمنين » ؟ قال : « الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة الف درهم ، صلة عن دناءة المطل وسماجة الاغفال » ، ففعل ذلك له .

وحدثنا اسماعيل بن أبي شاكر ، قال : لما أصاب أهل مكة السيل الذي شارف الحجر ، ومات تحته خلق كثير ، كتب عبيد الله بن الحسن العلوي ، وهو والي الحرمين الى المأمون : « ان أهـــل حرم الله ، وجيران بيته ، وآلاف مسجده وعمرة بلاده ، قد استجاروا بعزّ معروفك من سيل تراكمت أخرياته في هدم البنيان ، وقتل الرجال والنسوان ، واجتياح الاصول ، وجرف الابقال ، حتى ما ترك طارفاً ولا تالداً للراجع اليها في مطعم ، ولا ملبس . فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة الى البكاء على الامهات والاولاد والآباء والاجداد ، فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم ، واحسانك اليهم تجد الله مكافئك عنهم ، ومثيبك عز الشكر منهم » .

قال : فوجه اليهم المأمون بالاموال الكثيرة ، وكتب الى عبيد الله : أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله أمير المؤمنين، فبكاهم بقلب رحمته ، وانجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً ، ان أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته ؛ قال : فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الاموال التي أنفذها اليهم .

---

١ — وفي نسخة « توصّل » .
٢ — وفي نسخة « تكون » .

قال : وكتب جعفر بن محمد بن الاشعث الى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل : « شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه » ، قال وكتب علي بن هشام الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي : « ما أدري كيف أصنع ؟ أغيب فأشتاق ، وألتقي ولا اشتفي ، ثم يحدث لي اللقاء الذي طلبت منه الشفاء ، نوعاً من الحرقة للوعة الفرقة » . قال : وكتب معقل الى ابي دلف : « فلان جميل الحال عند الكرام ، فان أنت لم ترتبطه بفضلك عليه ، فعل غيرك » . وكتب أبو هاشم الحربي الى بعض الامراء : « غرضي من الامير معوز ، والصبر على الحرمان معجز » . وكتب آخر الى صديق له : « أما بعد فقد اصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه ، مع كثرة ما نعصيه ، وما ندري ما نشكر : أجميل ما نشر ، أم كثير ما ستر ، أم عظيم ما أبلى ، أم كثير ما عفا ؟ غير انه يلزمنا في كل الامور شكره ، ويجب علينا حمده فاستزد الله في حسن بلائه ، كشكرك على حسن آلائه » .

وضدّه ، قال الجاحظ : كتب ابن المراكبي الى بعض ملوك بغداد : « جُعلت فداك ، برحمته » . قال : وقرأت على عنوان كتاب لأبي الحسن الشمري : « للموت لنا قبلة » ، وقرأت أيضاً على عنوان كتاب : « الى الذي كتب إليّ » .

محاسن الجواب

قال : دخل رجل على كسرى أبرويز ، فشكا اليه عاملاً غصبه على ضيعة له ، فقال له كسرى : « منذ كم هي في يدك ؟ » قال : « منذ اربعين سنة » ، قال : « فأنت تأكلها اربعين سنة ما عليك ان يأكل عاملي منها سنة واحدة ؟ » فقال : « وما كان على الملك ان يأكل بهرام جور الملك سنة واحدة ؟ » فقال : « ادفعوا في قفاه فأخرجوه » ، فلما خرج أمكنته التفاتة ، فقال : « دخلت بظلمة وخرجت بثنتين » . فقال كسرى : « ردوه » ، وأمر برد ضيعته ، وصيره في خاصته .

ويقال : ان سعيد بن مرة الكندي ، حين اتى معاوية قال له : « انت سعيد » ، قال : « امير المؤمنين سعيد ، وانا ابن مرة » .

قال : ودخل السيد بن أنس الازدي على المأمون ، فقال : « انت السيد » ؟ فقال : « انت السيد يا امير المؤمنين ، وانا ابن أنس » . قال : وقيل للعباس بن عبد المطلب : « انت اكبر أم رسول الله ﷺ » ؟ قال : «هو عليه الصلاة والسلام اكبر مني ، وانا ولدت قبله » . قال : وقال الحجاج للمهلب : « انا اطول ام انت » ؟ قال : « الامير اطول وانا ابسط قامة منه » . قيل :

ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها : « ممن العجوز » ؟ قالت : « من طيء » ؟ قال : « ما منع طيئاً ان يكون فيها آخر مثل حاتم » . قالت : « الذي منع العرب ان يكون فيها آخر مثلك » ، وأعجب بقولها ووصلها .

قيل : ولما استوثق امر العراق لعبدالله بن الزبير ، وجه مصعب اليه وفداً، فلما قدموا عليه، قال لهم : « وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلاً من اهل الشام » ، فقال رجل من أهل العراق : « يا أمير المؤمنين علقناك ، وعلقت بأهل الشام ، وعلق أهل الشام بآل مروان ، فما أعرف لنا مثلاً الا قول الأعشى :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيْرِي وعُلِّقَ أُخرَى غيْرَها الرَّجُلُ

فما وجدنا جواباً أحسن من هذا . قال : وقال مسلمة بن عبد الملك : « ما شيء يؤتى العبد بعد الايمان بالله تعالى ، أحبّ إليّ من جواب حاضر ، فانّ الجواب اذا انعقب لم يكن شيئاً » .

وضده ، قال : اجتمع عند رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم ، فذكر عمرو الزبرقان قال : « بأبي انت وأمي يا رسول الله ، انه اطعام جواد الكف ، مطاع في أدانيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله انه ليعرف مني اكثر من هذا ، ولكنه يحسدني » . فقال عمرو : « والله يا نبي الله ، ان هذا لزمر المروءة ، ضيق العطن ، لئيم العم ، أحمق الخال » ، فرأى الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله ، فقال : « يا رسول الله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكنني رضيت فقلت احسن ما علمت ، وسخطت فقلت اسوأ ما اعلم » . فقال رسول الله ﷺ : (إن من البيان لسحرا ، وان من الشعر لحكما) .

وذكروا ان الوليد بن عقبة قال لعقيل بن ابي طالب : « غلبك على الثروة والعدد » . قال : « وسبقني وإياك الى الجنة » . قال الوليد : « أما والله ان شدقيك لتضمخان من دم عثمان » . قال عقيل : « ما لك ولقريش ؟ وانما انت فيهم كمنيح الميسر » . فقال الوليد : « والله اني لأرى لو ان اهل الارض اشتركوا في قتله لوردوا صعوداً » ، فقال له عقيل : « كلا ، أما ترغب عن صحبة ابيك » ؟

قال : وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان : « ما اسمك » ؟ قال : « خالد بن صفوان ابن الاهتم » ، قال : « ان اسمك لكذب ما انت بخالد ، وان اباك لصفوان وهو حجر ، وان جدك لأهتم والصحيح خير من الأهتم » ، قال له خالد : « من أي قريش انت » ؟ قال : « من

عبد الدار بن قصي بن كلاب » ، قال : « لقد هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وجمحت بك جمح ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصيّ ، فجعلتك عبد دارها ، تفتح اذا دخـــلوا ، وتغلق اذا خرجوا » .

قيل : ومر الفرزدق فرأى خليفة الشاعر فقال له : يا أبا فراس من القائل :

هُوَ القيْنُ وابْنُ الْقيْنِ لا قَيْنَ مِثْلُهُ   لِفطْحِ المَساحِي ، أوْ لِجَدْلِ الأداهِمِ

قال الفرزدق : الذي يقول :

هوَ اللّص وابْنُ الّلصّ لاَ لِصَّ مِثْلُهْ   لِنقْبِ جِدار أوْ لِطَرّ الدّراهمِ

محاسن حفظ اللسان

قال أكثم بن صيفي : « مقتل الرجل بين فكيه – يعني لسانه – » وقال : « رب قول أشد من صول » ، وقال : « لكل ساقطة لاقطة » . وقال المهلب لبنيه : « اتقوا زلة اللسان فاني وجدت الرجل تعثّر قدمه فيقوم من عثرته ، ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه » . قال يونس بن عبيد : « ليست خلة من خلال الخير تكون في الرجل هي احرى ان تكون جامعة لانواع الخير كلها من حفظ اللسان » . وقال قسامة بن زهير : « يا معشر الناس ، ان كلامكم أكثر من صمتكم ، فاستعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الصواب بالفكر » . وكان يقال : « ينبغي للعاقل ان يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه ، ومن لم يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه » . وقال الشاعر :

عَلَيْكَ حِفْظَ اللّسانِ مُجْتَهِداً   فإنّ جُلّ الْهَلاكِ في زَلَلِهِ

وقال غيره :

وجُرْحُ السّيْفِ تأسوهُ فَيَبْرَا   وجُرْحُ الدّهْر ما جَرَحَ اللّسانُ
جِراحاتُ الطّعانِ لَهَا الْتِئامُ   ولاَ يَلْتَامُ ما جَرَحَ اللّسانُ

وقال غيره :

احْفَظْ لِسانَكَ لاَ تَقولُ فتبتَلي   إنّ الْبَلاءَ مُوَكّلٌ بالمَنْطِقِ

وقال غيره :

لَعَمْرُكَ ما شَيْءٌ عَلِمتُ مَكانَهُ أَحقُّ بِسِجْنٍ مِنْ لِسانٍ مُذَلَّلِ
عَلى فيكَ مِمّا لَيسَ يَعنيكَ قَوْلُهُ بقُفْلٍ شَديدٍ حَيثُ ما كُنْتَ فاَقْفِلِ

قيل : تكلم اربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحد : قال كسرى : « انا على رد ما لم أقل اقدر مني على رد ما قلت » ، وقال ملك الهند : « اذا تكلمت بكلمة ملكتني ، وان كنت أملكها » ، وقال قيصر : « لا اندم على ما لم اقل ، وقد ندمت على ما قلت » ، وقال ملك الصين : « عاقبة ما قد جرى به القول اشد من الندم على ترك القول » .

وقال بعضهم : « من حصافة الانسان ان يكون الاستماع أحب اليه من النطق ، اذا وجد من يكفيه ، فانه لن يعدم الصمت . والاستماع سلامة ، وزيادة في العلم » ، وقال بعض الحكماء : « من قدر على ان يقول فيحسن ، فانه قادر على ان يصمت فيحسن » . وقال بعضهم : كان ابن عبيدة الريحاني المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول : « الصمت أمان من تحريف اللفظ ، وعصمة من زيغ المنطق ، وسلامة من فضول القول » . وقال ابو عبيد الله كاتب المهدي : « كن على التماس الحظ بالسكوت احرص منك على التماسه بالكلام » . وكان يقال : « من سكت فسلم كان كمن قال فغنم » . وقال رسول الله ﷺ : « ان الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام . يرحم الله امرأ اوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته » . قيل : وكلم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله ، فقال : « انساني اول كلامك طول عهده ، وفارق آخره فهمي لتفاوته » . ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال لها : « ما يبكيك » ؟ قالت : « تقتل ظلماً » قال : « وكنت تحبين ان اقتل حقاً او اقتل ظلماً » . وشتم رجل المهلب ، فلم يجبه ، فقيل له : « حلمت عنه » ، فقال : « ما اعرف مساويه ، وكرهت ان أبهته بما ليس فيه » . وقال سلمة بن القاسم عن الزبير قال : حملت الى المتوكل وأدخلت عليه فقال : « يا أبا عبدالله الزم أبا عبدالله – يعني المعتز – حتى تعلمه من فقه المدنيين » ، فأدخلت حجرة ، فاذا انا بالمعتز قد أتى ، في رجله نعل من ذهب ، وقد عثر به ، فسال دمه ، فجعل يغسل الدم ، ويقول :

يُصابُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسانِهِ وَلَيْسَ يُصابُ المرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجلِ
فَعثْرَتُهُ مِنْ فيهِ تَرْمِي بِرأْسِهِ وعَثْرَتُهُ بالرِّجلِ تَبْرا عَلى مَهْلِ

فقلت في نفسي : « ضممت الى من اريد ان اتعلم منه » .

وضده ، سئل بعض الحكماء عن المنطق فقال : « انك تمدح الصمت بالمنطق ولا تمدح المنطق

بالصمت ، وما عبر به عن شيء فهو افضل منه» . وسئل آخر عنها فقال : «اخزى الله المساكتة ما افسدها للسان ، وأجلبها للعي ، ووالله للمماراةُ في استخراج حق اهدم للعي من النار في يابس العرفج » . فقيل له : « قد عرفت ما في المماراة من الذم » . فقال : « ما فيها اقل ضرراً من السكتة التي تورث عللاً ، وتولد داء أيسره العي » . وقال بعض الحكماء : « اللسان عضو فان مرنته مرن ، وان تركته حرن ، وممن افرط في قوله فاستقيل بالحلم ، ما حكي عن شهرام المروزي ، فانه جرى بينه وبين ابي مسلم صاحب الدولة كلام ، فما زال ابو مسلم يحاوره الى ان قال له شهرام : « يا لقطة » . فصمت ابو مسلم ، وندم شهرام على ما سبق به لسانه ، وأقبل معتذراً خاضعاً ومتنصلاً ؛ فلما رأى ذلك ابو مسلم ، قال : « لسان سبق ، ووهم أخطأ ، وانما الغضب شيطان ، والذنب لي ، لأني جرأتك على نفسي بطول احتمالي منك ، فان كنت معتمداً للذنب فقد شركتك فيه ، وان كنت مغلوباً فالعذر يسعك ، وقد غفرنا لك على كل حال » . قال شهرام : « ايها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً » قال : « أجل » ، قال : « وان عظم ذنبي لن يدع قلبي يسكن » ، ولج في الاعتذار ، فقال ابو مسلم : « يا عجباً كنت تسيء وانا احسن ، فاذا احسنت اسأت » .

محاسن كتمان السر

قال : كان المنصور يقول : « الملك يحتمل كل شيء من اصحابه الا ثلاثاً : إفشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح في الملك » . وكان يقول : « سرك من دمك فانظر من تملكه » . وكان يقول : « سرك لا تطلع عليه غيرك ، وان من انفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم» . وقيل لأبي مسلم : « بأي شيء ادركت هذا الامر » ؟ قال : « ارتديت بالكتمان ، واتزرت بالحزم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت طلبتي ، وحزت بغيتي؛ وانشد في ذلك :

أدرَكْتُ بالحَزْمِ والكِتْمانِ ما عجزَتْ ... عَنْهُ مُلوكُ بني مَروانَ إذْ حَشَدوا

ما زِلْتُ أسْعَى عَلَيْهِمْ في دِيارِهِمْ ... والقَوْمُ في مُلْكِهِمْ بالشّامِ قَدْ رَقَدُوا

حتّى ضَرَبْتُهُمْ بالسَّيْفِ فانْتَبَهوا ... مِنْ نَوْمَةٍ لَمْ يَنَمْها قَبلَهُمْ أحَدُ

وَمَنْ رَعَى غَنَماً في أرْضِ مَسْبَعَةٍ ... ونامَ عَنْها تَوَلَّى رَعْيَهـــا الأسَدُ

قال : وقال عبد الملك بن مروان للشعبي ، لما دخل عليه : « جنبني خصالاً اربعاً : لا تطريني في وجهي ، ولا تجرّبن عليّ كذبة ، ولا تغتابنّ عندي احداً ، ولا تفشينّ لي سراً » ،

وقال النبي ﷺ : (استعينوا على إنجاح حوائجكم بكتمان السر فان كل ذي نعمة محسود) .
وانشد اليزيدى في ذلك :

النَّجْمُ أقْرَبُ مِنْ سِرٍّ إذا ٱشْتَمَلَتْ ... مِني عَلى السِّرِّ أضْلاعُ وأحْشاءُ

وقال غيره :

ونَفْسَكَ فاحْفظْها ولَا تُفْشِ لِلْعِدَى ... مِنَ السِّرِّ ما يَطْوِي عَلَيْهِ ضَميرُها
فَما يَحفَظُ المَكْتومُ مِنْ سِرٍّ أهْلِهِ ... إذا عُقَدُ الأسْرارِ ضاع كَثيرُها
مِنَ ٱلْقَوْمِ إلَّا ذو عَفافٍ يُعِينُهُ ... عَلى ذاكَ مِنْهُ صِدْقُ نَفْسٍ وخيرُها

قال معاوية بن ابي سفيان : « أُعِنتُ على علي بن ابي طالب بأربع خصال : كان رجلا ظهرة علنة لا يكتم سراً ، وكنت كتوماً لسري ، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة ، وكنت أبادر الى ذلك ، وكان في أخبث جند واشدهم خلافاً ، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافاً ، وكنت أحب الى قريش منه ، فنلت ما شئت فلله من جامع إليّ ، ومفرق عنه » .
وكان يقال : « لكاتم سره من كتمانه احدى فضيلتين : الظفر بحاجته والسلامة من شره ، فمن احسن فليحمد الله وله المنة عليه ، ومن اساء فليستغفر الله » . وقال بعضهم : « كتمانك سرك يعقبك السلامة ، وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة ، والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على افشائه » . وقال بعضهم : « ما أقبح بالانسان ان يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه ، ويمكن عدوه من نفسه باظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه ؛ ومن عجز عن تقويم امره فلا يلومَنّ الا نفسه ان لم يستقم له » .

وقال معاوية : « ما أفشيت سري الى احد الا أعقبني طول الندم ، وشدة الاسف ، ولا أودعته جوانح صدري فحكمته بين اضلاعي ، الا اكسبني مجداً وذكراً ، وسناء ورفعة » . فقيل : « ولا ابن العاص » . قال : « ولا ابن العاص » . وكان يقول : « ما كنت كاتمه من عدوك فلا تظهر عليه صديقك » .

وقال رسول الله ﷺ : « من كتم سره كانت الخيرة في يده ، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومَنّ من أساء به الظن ؛ وضع امر اخيك على أحسنه ، ولا تظنّ بكلمة خرجت منه سواء ما كنت واجداً لها في الخير مذهباً ، وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من ان تطيع الله جل اسمه فيه ، وعليك باخوان الصدق فانهم زينة عند الرخاء ، وعصمة عند البلاء » .

وحدث ابراهيم بن عيسى قال : ذاكرت المنصور ، ذات يوم ، في ابي مسلم ، وصونه السر وكتمه حتى فعل ما فعل ، فأنشد :

تقسَّمَني أمرانِ لَمْ أفْتَتِحْهُما ... بحَزمٍ ولَمْ تعرُكْهُما لي ٱلكَراكرُ
وما ساوَرَ الأحشاءَ مِثْلُ دَفينهِ ... مِنَ الهمِّ رَدَّتْها إليك المَعاذِرُ
وقَدْ عَلِمَتْ أفناءُ عَدْنانَ أنَّني ... عَلى مِثْلِها مِقدامَــةٌ مُتَجاسِرُ

وقال آخر :

صُنِ السِّرَّ بالكِتْمانِ يُرْضِكَ غِبُّهُ ... فقَدْ يظْهَرُ السِّرُّ المُضيعُ فَيَنْدَمُ
ولَا تُفْشِيَنْ سِرّاً الى غيْرِ أهْلِهِ ... فيَظْهرُ خرقُ ٱلشَّرِّ من حَيْثُ يُكتَمُ
وما زِلْتُ في ٱلكِتْمانِ حَتَّى كأنَّني ... برَجْعِ جَوابِ السَّائِلي عَنْهُ أعْجَمُ
لِنَسْلَمَ مِنْ قَوْلِ ٱلوُشاةِ وتَسْلَمِي ... سَلِمْتِ وهَلْ حَيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يَسْلَمُ

وقال آخر :

أمِنِّيٌ تخافُ ٱنْتِشارَ الحديث ... وحَظِّيَ في سَترِهِ أوْفَرُ
ولَوْ لَمْ أصُنْهُ لِبُقْيا عَلَيكَ ... نَظَرْتُ لِنَفْسي كَما تَنْظُرُ

وقال أبو نواس :

لَا تُفْشِ أسْرارَكَ لِلنَّاسِ ... وداوِ أحزانَــكَ بالكاسِ
فإنَّ إبْليسَ عَلى مــا بِهِ ... أرْأفُ بالنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

وقال المبرد : أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسر ما روي لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لعَمْرُكَ إنَّ وُشاةَ الرِّجــال ... لا يترُكونَ أديماً صَحيحا
فلا تُبدِ سِرَّكَ إلَّا إليْكَ ... فإنَّ لِكُلِّ نَصيحٍ نَصيحا

وقال العتبي :

ولِي صاحبٌ سِرِّي المُكتَّمُ عِنْدَهُ ... مَحاريقُ نيرانٍ بلَيْــلٍ تُحَرَّقُ
غَدَوْتُ عَلى أسْرارِهِ فكَسَوْتُها ... ثِياباً مِنَ ٱلكِتْمانِ ما تَتَخَرَّقُ

فمَنْ كانَتِ الأسرارُ تَطفو بِصَدْرِهِ فأسرارُ صَدْرِي بالأحاديثِ تُغْرَقُ
فَلا تودِعَنَّ الدَّهرَ سِرَّكَ أحمَقاً فإنَّكَ إنْ أودَعْتَهُ مِنْهُ أحْمَقُ
وحَسْبُكَ في سَترِ الأحاديثِ واعِظاً مِنَ ٱلقَولِ ما قالَ الأديبُ المُوَفَّقُ
إذا ضاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ فَصَدْرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أضْيَقُ

وقال آخر :

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلّا كُلُّ ذي خَطَرٍ فالسِّرُّ عِنْدَ كِرامِ ٱلنّاسِ مَكتومُ
وَالسِّرُّ عِنْدِيَ في بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ قَدْ ضاعَ مِفْتاحُهُ والبابُ مَرْدومُ

قيل : دخل ابو العتاهية على المهدي ، وقد ذاع شعره في عتبة ، فقال : « ما أحسنت في حبك ، ولا اجملت في إذاعة سرك » ، فقال :

مَنْ كانَ يَزْعُمُ أنْ سَيَكْتُمُ حُبَّهُ أوْ يَستطيعُ السِّتْرَ فَهوَ كَذوبُ
أَلْحُبُّ أغْلَبُ لِلرِّجالِ بقَهرِهِ مِنْ أنْ يُرَى لِلسِّرِّ فيهِ نَصيبُ
وإذا بَدا سِرُّ اللَّبيبِ فإنَّهُ لَمْ يَبدُ إلّا والفَتَى مَغلوبُ
إنّي لأحْسُدُ ذا هَوىً مُسْتَحْفِظاً لَمْ تَتَّهِمْهُ أعيُنٌ وقُلوبُ

فاستحسن المهدي شعره وقال : « قد عذرناك على إذاعة سرك ، ووصلناك على حسن عذرك ، ان كتمان السر احسن من اذاعته » . وقال زياد : « لكل مستشير ثقة ، وان الناس قد ابتدعت بهم خصلتان : اذاعة السر ، وترك النصيحة ، وليس للسر موضع إلا احد رجلين : إما أخروي يرجو ثواب الله ، او دنيوي له شرف في نفسه ، وعقل يصون به حسبه ، وهما معدومان في هذا الدهر » . وقال المهلب : « ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما تضيق عن السر » ، كما قال الشاعر :

ولَرُبَّما كَتَمَ الوَقورُ فَصرَّحَتْ حَرَكاتُهُ لِلنّاسِ عَنْ كِتْمانِهِ
ولَرُبَّما رُزِقَ الفَتَى بِسكوتِهِ ولَرُبَّما حُرِمَ الفَتَى بِبَيانِهِ

وقال آخر :

إذا أنتَ لَمْ تَحفَظْ لِنفسِكَ سِرَّها فَسِرُّكَ عِنْدَ النّاسِ أفْشَى وأضْيَعُ

وقال آخر :

لِساني كَتومٌ لِأَسرارِكُمْ ودَمْعي نَمومٌ لسرِّي مُذيعُ
فلولَا الدُّموعُ كَتَمْتُ الْهَوى ولولا الْهَوى لمْ تَكُنْ لي دُموعُ

محاسن المشورة

يقال : « اذا استخار الرجل ربه ، واستشار نصيحَهُ واجتهد ، فقد قضى ما عليه ، ويقضي الله في أمره ما يحبّ » . وقال آخر : « حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة » . وقيل : « اذا استشرت فانصح ، واذا قدرت فاصفح » . وقيل : « من وعظ أخاه سراً زانه ومن وعظه جهراً شانه » . وقال آخر : « الاعتصام بالمشورة نجاة » . وقال آخر : « نصف عقلك مع اخيك ، فاستشره » . وقال آخر : « اذا أراد الله لعبد هلاكاً اهلكه برأيه » . وقال آخر : « المشورة تقوم اعوجـــاج الرأي » . وقال : « إياك ومشورة النساء ، فان رأيهن الى أفَنْ ، وعزمهن الى وهن » .

وضده : قال بعض أهل العلم : « لو لم يكن في المشورة الا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك اليه ، لوجب اطراح ما تفيده المشورة ، والقاء ما يكسبه الامتنان ؛ وما استشرت احداً إلا كنت عند نفسي ضعيفاً ، وكان عندي قوياً ، وتصاغرت له ودخلته العزة ، فاياك والمشورة وان ضاقت بك المذاهب ، واختلفت عليك المسالك ، وأدّاك الاستبهام الى الخطأ الفادح ، فان صاحبها أبداً مستذل مستضعف ، وعليك بالاستبداد فان صاحبه ابداً جليل في العيون ، مهيب في الصدور ، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوي العقول ، فاذا افتقرت اليها حقرتك العيون ، ورجفت بك اركانك ، وتضعضع بنيانك ، وفسد تدبيرك ، واستحقرك الصغير ، واستخف بك الكبير ، وعرفت بالحاجة اليهم » .

وقيل : « نعم المستشار العلم ، ونعم الوزير العقل » . وممن اقتصر على رأيه دون المشورة ، الشعبي ، فانه خرج مع ابن الاشعث ، فقدم به على الحجاج ؛ فلقيه يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجاج ، فقال له : « أشر علي » فقال : « لا ادري بما أشير ، ولكن اعتذر بما قدرت عليه » . وأشار بذلك عليه كافة أصحابه ، قال الشعبي : فلما دخلت خالفت مشورتهم ، ورأيت والله غير الذي قالوا ، فسلمت عليه بالامرة ، ثم قلت : « أيد الله الأمير ، ان الناس قد أمروني ان اعتذر بغير ما يعلم الله انه الحق ، ولك الله ان لا أقول في مقامي هذا إلا الحق ، قـــد جهدنا وحرضنا ، فما كنا بالاقوياء الفجرة ، ولا الاتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا ، وأظفرك بنا

فان سطوت فبذنوبنا ، وان عفوت فبحلمك ، والحجة لك علينا » . فقال الحجاج : « انت والله أحب الينا قولاً ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول : والله ما فعلت ولا شهدت ، انت آمن يا شعبي » . فقلت : « ايها الأمير اكتحلت والله بعدك السهر ، واستجلست الخوف ، وقطعت صالح الاخوان ، ولم أجد من الامير خلفاً » . قال : « صدقت » ، وانصرفت .

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء : « صن شكرك عمن لا يستحقه ، واستر ماء وجهك بالقناعة » . وقال الفضل بن سهل : « من احب الازدياد من النعم فليشكر ، ومن أحب المنزلة فليكف ، ومن احب بقاء عزه فليسقط دالته ومكره » . ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف :

لَقَدْ ثَبَتَتْ في ٱلْقلبِ منْك مَودَةٌ كَما ثَبَتتْ في الرَّاحتَيْنِ الأصابِعُ

قال : واصطنع رجل رجلاً فسأله يوماً : « اتحبني يا فلان » قال : « نعم احبك حباً لو كان فوقك لأظلك ، او كان تحتك لأقلك » . وقال كسرى انو شروان : « المنعم افضل من الشاكر ، لانه جعل له السبيل الى الشكر » . واختصر حبيب ابن أوس هذا في مصراع واحد فقال :

« لهانَ عَلَيْنا أَنْ نَقولَ وتفعَلَا »

قال الباهلي عن أبي فروة : مكتوب في التوراة : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك فانه لا زوال للنعم اذا شكرت ، ولا اقامة لها اذا كفرت . والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير» . وقال رسول الله ﷺ : « خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : (البغي ، والغدر ، وعقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، ومعروف لا يشكر)» ، وأنشد الحطيئة عمر ، وكعب الاحبار عنده :

مَنْ يفْعَل الْخيْر لَا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ لا يذْهَبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والنَّاسِ

فقال كعب : « يا أمير المؤمنين من هذا الذي قال هذا ؟ هو مكتوب في التوراة » ؟ فقال عمر : « كيف ذلك » ؟ قال في التوراة مكتوب : « من يصنع الخير لا يضيع عندي لا يذهب العرف بيني وبين عبدي » .

وقيل لرسول الله ﷺ : « أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا الاجتهاد » ؟ فقال : « افلا اكون عبداً شكوراً » . وفي الحديث « ان رجلا قال في الصلاة خلف رسول الله ﷺ : « اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً » ، فلما انصرف ﷺ ، قال : « أيكم صاحب الكلمة » ؟ قال احدهم : « أنا يا رسول الله » . فقال : « لقد رأيت سبعة وثلاثين

ملكاً يبتدرون أيهم يكتبها اولاً ، وقيل : « نسيان النعمة اول درجات الكفر » . وقال امير المؤمنين علي رضي الله عنه : « المعروف يكفر من كفره لانه يشكرك عليه اشكر الشاكرين » ، وقد قيل في ذلك :

يدُ المعروفِ غُنْمٌ حيثُ كانَت ... تَحمَّلَها كَفُورٌ أمْ شكورُ
فعِنْدَ الشَّاكِرِينَ لَهَا جَزاءٌ ... وعِنْدَ اللهِ ما كَفَر الكَفورُ

وقال بعض الحكماء : « ما انعم الله على عبد نعمة فشكر عليها الا ترك حسابه عليها » . وقال بعض الحكماء : « عند التراخي عن شكر النعم تحل عظائم النقم » . وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لعائشة ما فعل بيتك فتنشده :

يَجْزيكَ أوْ يُثْني عَليْكَ وإنَّ مَنْ ... أثْنَى عَليْكَ بِما فَعلْتَ كَمَنْ جَزَى

فيقول ﷺ : « صدق القائل، يا عائشة ، ان الله اذا اجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره، فليس لله بشاكر » . وقيل لذي الرمة : « لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك » ؟ قال : « لأنه وطأ مضجعي ، وأكرم مجلسي ، واحسن صلتي ، فحق لكثير معروفه عندي ان يستولي على شكري » . ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه الى مكارم الاخلاق ، من ذلك ما قاله بزرجمهر : « من انتظر بمعروفه شكرك عاجل المكافأة » . وقال بعض الحكماء : « ان الكفر يقطع مادة الانعام ، فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الأجر » . وقال علي بن عبيدة : « من المكارم الظاهرة ، وسنن النفس الشريفة ، ترك طلب الشكر على الاحسان ، ورفع الهمة عن طلب المكافأة ، واستكثار القليل من الشكر ، واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه ... [1] وفصل من كتاب ولست أقابل اياديك ، ولا أستديم احسانك إلا بالشكر الذي جعله الله للنعم حارساً ، وللحق مؤدياً ، وللمزيد سبباً » .

وضده ، قال بعض الحكماء : « المعروف الى الكرام يعقب خيراً ، والى اللئام يعقب شراً ، ومثل ذلك مثل المطر ، يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤاً ، وتشرب منه الافاعي فيعقب سماً » . وقال سفيان : « وجدنا اصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام » . وقال : « أثار جماعة من الاعراب ضبعاً ، فدخلت خباء شيخ منهم ، فقالوا : « اخرجها » ، فقال : « ما كنت لأفعل ، وقد استجارت بي » فانصرفوا وقد كانت هزيلاً ، فأحضر لها لقاحاً ، وجعل يسقيها حتى عاشت ، فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته . فقال شاعرهم في ذلك :

---

١ — نعتقد ان ثمة نقصاً في النسخة التي اعتمدناها ، لعدم اتساق المعنى في هذه العبارة .

وَمَنْ يَصْنَعُ المَعروفَ في غيْرِ أهْلِهِ   يُلاقي الذي لاقى مُجيرُ أمِّ عامِرِ
أقامَ لَهَا لَمّا أناخَتْ بِبابِهِ   لِتَسْمَنَ ألبانَ اللِّقاحِ الدَّرائِرِ
فأَسْمَنَها حتّى إذا ما تَمَكَّنَتْ   فَرَتْهُ بِأَنْيابٍ لَهــا وأظافِرِ
فقُلْ لِذوي المَعْروفِ هذا جَزاءُ مَنْ   يَجودُ بِإحسانٍ إلى غيْرِ شاكِرِ

قيل : وأصاب اعرابي جرو ذئب فاحتمله الى خبائه وقرب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن وكبر ثم شد على الشاة فقتلها . فقال الاعرابي يذكر ذلك :

غَذَتْكَ شُوَيْهَتي ونَشأتَ عِنْدي   فَمَنْ أَدْراكَ أنْ أباكَ ذِيبُ
فجَعْتَ نُسَيَّةً وصِغارَ قَــومٍ   بِشاتِهِمُ وأنْتَ لَهــا رَبيبُ
إذَا كَانَ ٱلطِّباعُ طِبــاعَ سَوْءٍ   فَلَيْسَ بِنافِعٍ أدَبُ الأديبُ[1]

وفي المثل : سمن كلبك يأكلك . وأنشد :

هُمُ سَمَّنوا كَلْباً لِيأْكُلَ بَعْضَهُمْ   ولَوْ عَمِلوا بالحَزْمِ ما سَمَّنوا كَلْبَا

وقال آخر :

وإنِّي وقَيْساً كالمُسَمِّنِ كَلْبَــهُ   فَخَدَّشَهُ أنْيابُــهُ وأظافِرُهْ

ويضرب المثل بسنمار ، وكان بني للنعمان بن المنذر الخورنق فأعجبه وكره ان يبني لغيره مثله فرمى به من اعلاه فمات ، فقيل فيه :

جَزَيْنا بَني سَعْدٍ بِحُسْنِ بَلائِهِمْ   جَزاءَ سِنِمَّارٍ وما كَانَ ذَا ذَنْبِ

وقال بشار[2] :

أُثْنِي عَلَيْكَ ولي حالٌ تُكَذِّبُني   فِيما أقولُ فأَسْتَحْيي مِنَ ٱلناسِ
قَدْ قُلتُ إنَّ أبا حَفْصٍ لَأَكْرَمُ مَنْ   يَمْشي فَخاصَمَني في ذاكَ إفْلاسي
حَتَّى إذَا قيلَ ما أعْطاكَ مِنْ صَفَدٍ   طَأْطَأْتُ مِنْ سوءِ حالي عِنْدَها رَاسِي

١ – في البيت اقواء .
٢ – والمعروف ان هذه الابيات لابي العتاهية ، ومطلعها :
يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداس   إني أتيتك في صحبي وجُلاّسي

ولأبي الهول :

كأنّي إذْ مدَحتُكَ يا ابنَ مَعنٍ ... رَآني النّاسُ في رمضانَ أزني

فإن أكُ رُحتُ عنكَ بغيرِ شيءٍ ... فلا تفرحْ كذلكَ كانَ ظنّي

وقال آخر :

لحَى اللهُ قوماً أعجبتْهُمْ مدائحي ... فقالوا مَقالاً في مَلامٍ وفي عَتْبِ

أبا حازمٍ تمدَحْ . فقلْتُ مُعذّراً ... هَبوني امرأً جرَّبتُ سيفي على كلبِ

وقال آخر :

عُثمانُ يعلمُ أنَّ الحمْدَ ذو ثمنٍ ... لكِنَّهُ يشتهي حَمْـداً بمجَانِ

والنّاسُ أكْيَسُ مِنْ أنْ يَمْدَحوا رَجُلاً ... حتّى يَروْا عِنْدَهُ آثارَ إحْسانِ

وقال آخر :

يُحِبُّ المَديحَ أبو خـالِدٍ ... ويَغْضَبُ مِنْ صِلةِ المـادِحِ

كَبِكْرٍ تُحِبُّ لذيذَ النِّكاحِ ... وتَجزعُ منْ صَوْلةِ النّاكِحِ

وقال آخر :

ولو كانَ يَسْتَغْني عَنِ الشُّكْرِ سَيّدٌ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أوْ عُلُوِّ مَكانِ

لَما أمَرَ اللهُ العِبـادَ بشُكْرِهِ ... فقالَ اشْكُروني أيُّها الثّقَلانِ

محاسن الصدق

قال بعض الحكماء : « عليك بالصدق فما السيف القاطع في كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق ؛ والصدق عزّ وإن كان فيه ما تكره ، والكذب ذل وان كان فيه ما تحب ؛ ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق » . وقيل : « الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل ، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور » . وقال ابن السماك : « ما احسبني أوجر على ترك الكذب لاني اتركه أنفة » . وقال آخر : « لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكان بذلك حقيقاً ، فكيف وفيه المأثم والعار » ؟ وقال الشعبي : « عليك بالصدق حيث ترى انه يضرك فانه ينفعك ، واجتنب الكذب حيث ترى انه ينفعك فانه يضرك » . وقال بعضهم : « الصدق

عز والكذب خضوع ». ومُدِحَ قوم بالصدق، منهم ابو ذر رضي الله عنه، فان رسول الله ﷺ قال : « ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء ، ولا طلعت الشمس على ذي لهجة اصدق من ابي ذرّ » . ومنهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فانه روى انه اطلع على رسول الله ﷺ ، وعنده جبريل ، فقال له جبريل : « هذا عمك العباس » قال : « نعم » ، قال : « ان الله تعالى يأمرك ان تقرأ عليه السلام ، وتعلمه ان اسمه عند الله « الصادق » ، وان له شفاعة يوم القيامة » . فأخبره رسول الله ﷺ بذلك ، فتبسم فقال : « ان شئت اخبرتك مما به تبسمت ، وان شئت ان تقول فقل » ، فقال : « بل تعلمني يا رسول الله » ، فقال : « لانك لم تحلف يميناً في جاهلية ولا اسلام برة ولا فاجرة ، ولم تقل لسائل : لا » ، قال : « والذي بعثك بالحق نبياً، ما تبسمت إلا لذلك » .

ويروى ان رجلاً اتى رسول الله ﷺ فقال : « اني أستسر بخلال : الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأيهن أحببت تركته » . قال : « دع الكذب » ، فمضى الرجل فهمّ بالزنا ، فقال : « يسألني رسول الله ﷺ ، فإن جحدت ، نقضت ما جعلته له، وان أقررت حددت» ، فلم يزن . فهمّ بالسرقة وشرب الخمر ، ففكر في ذلك فرجع الى رسول الله ﷺ فقال له : « قد تركتهن اجمع » . فأما من رخّص له في الكذب ، فيروى عن رسول الله ﷺ انه قال : « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : كذب الرجل لاهله ليرضيها وكذب في اصلاح ما بين الناس وكذب في حرب » . وروي عن المغيرة بن ابراهيم انه قال : « لم يرخص لاحد في الكذب إلا للحجاج ابن علاط ، فانه لما فتحت خيبر قال: يا رسول الله : ان لي عند امرأة من قريش وديعة ، فأذن لي يا رسول الله ان اكذب عليك كذبة لعلي أستل وديعتي ، فرخص له في ذلك . فقدم مكة فأخبرهم انه ترك رسول الله ﷺ أسيراً في أيديهم يأتمرون فيه ، فقائل يقول : يقتل ، وقائل يقول : لا بل يبعث به الى قومه فتكون منة ، فجعل المشركون يتباشرون بذلك ويؤنسون العباس عم رسول الله ﷺ والعباس يريهم التجمل، وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال: « ويحك ما الذي اخبرت به » ؟ فأعلمه السبب ، ثم أخبره ان رسول الله ﷺ قد فتح خيبر ، ونكح صفية بنت حيي بن أخطب ، وقتل زوجها وأباها ، ثم قال : « اكتم علي اليوم وغداً حتى أمضي » ، ففعل ذلك ، فلما مضى يومان اخبرهم العباس بالذي اخبره ، فقالوا : « من اخبرك بهذا » ؟ قال : « من اخبركم بضده » .

وضده ، قيل : وجد في بعض كتب الهند : « ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا لملول وفاء ، ولا لبخيل صديق » . وقال قتيبة بن مسلم : « لا تطلبن الحوائج من كذوب ، فانه يقربها وان كانت بعيدة ، ويبعدها ان كانت قريبة ؛ ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة ،

فانه يقدم حاجته قبلها ، ويجعل حاجتك وقاية لها ؛ ولا الى أحمق فانه يريد نفعك فيضرك » .
وقيل : « أمران لا ينفكان من كذب : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار » . وقيل : « كفاك موبخاً على الكذب ، علمك بأنك كاذب » . وقال رجل لأبي حنيفة : « ما كذبت قط » ، قال: « اما هذه فواحدة » .

وفي المثل : « هو اكذب من اخيذ السند » ، وذلك انه يؤخذ الخسيس منهم ، فيزعم انه ابن الملك . وكذلك يقال: « اكذب من سياح خراسان »، لأنهم يجتازون في كل بلد، ويكذبون للسؤال والمسألة . ويقال : « هو اكذب من الشيخ الغريب » ، وذلك انه يتزوج في الغربة ، وهو ابن سبعين سنة ، فيزعم انه ابن اربعين . ويقال : « هو اكذب من مسيلمة » وبه يضرب المثل . ومما قيل في ذلك من الشعر :

حَسْبُ ٱلكَذوبِ مِنَ ٱلبَلِيَّةِ ... بَعْضُ ما يُحْكَى عَلَيْهِ
مـــا إنْ سَمِعْتُ بِكَذْبَةٍ ... مِنْ غـــيْرِهِ نُسِبَتْ إلَيْهِ

وقال آخر :

لَقدْ أخْلَفْتَني وحَلفْتَ حتّى ... إخالُكَ قَدْ كَذَبْت وإنْ صَدَقتا
ألَا لَا تَحْلِفَنَّ على كَلامٍ ... فأَكْذَبُ ما تكونُ إذا حَلَفْتا

وقال آخر :

قَدْ كُنْتُ أُنْجِزُ دَهْراً ما وَعَدْتُ الى ... أنْ أتْلَفَ ٱلوَعْدُ ما جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبِ
فإنْ أكُ صِرْتُ في وَعْدِي أخا كَذِبٍ ... فَنُصْرَةُ ٱلصِّدْقِ أفْضَتْ بِي إلى ٱلكَذِبِ

قال الاصمعي : قال الخليل بن سهل : « يا أبا سعيد أعلمت ان طول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت ، في غلظ الراقود » ، فقلت : « ههنا اعرابي له معرفة ، فاذهب بنا اليه فحدثه بهذا » . فذهبت به الى الاعرابي فحدثه ، فقال الاعرابي : « قـــد سمعت بذلك ، وبلغنا ان رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية، فوجداه نائماً ، ورأسه في حجر أمه ، فقالت لهما : ما شأنكما، فقالا : «بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه» فانتبه فزعاً من كلامهما، فنفخهما ، فألقاهما الى أصبهان ، فقبرهما اليوم بها ، فقال الخليل : قبحك الله ما اكذبك ! قال : «يابن اخي ما بيننا شيئاً إلا وهو دون الراقود » .

قيل : وقدم بعض العمال من عمل ، فدعا قوماً الى طعامه ، وجعل يحدثهم بالكذب ، فقال بعضهم : نحن كما قال عز وجل « سماعون للكذب أكالون للسحت » .

قيل : وكان رجال من أهل المدينة من بين فقيه وراوية وشاعر ، يأتون بغداد ، فيرجعون بحظوة وحال حسنة ؛ فاجتمع عدة منهم ، فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الادب : « لو أتيت العراق فلعلك ان تصيب شيئاً » . قال : « انتم اصحاب آداب تلتمسون بها » . فقالوا : « نحن نحتال لك » ، فاخرجوه ، فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلي بن يقطين ، وشكا اليه الحاجة ، فقال : « ما عندك من الادب » ؟ فقال : « ليس عندي من الادب شيء غير اني اكذب الكذبة وأخيل الى من يسمعها اني صادق » . وكان ظريفاً مليحاً ، فأعجب به ، وعرض عليه مالاً ، فأبى ان يقبله وقال : « ما أريد منك الا ان تسهل اذني ، وتدني مجلسي » . قال : « ذاك لك » . وكان من أقرب الناس اليه مجلساً حتى عرف بذلك . وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد ، واستصفى ماله ، وكان يختلف الى علي بن يقطين ، رجاء ان يكلم له المهدي ، وكان يرى قرب المديني ، ومكانه من علي ، فأتى المديني القائد عشياً فقال : « ما البشرى » ؟ قال : « لك البشرى وحكمك » ، قال : « ارسلني علي بن يقطين اليك وهو يقرئك السلام ويقول : قد كلمت امير المؤمنين في أمرك ، ورضي عنك ، وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدو اليه لتغدو معه الى أمير المؤمنين متشكراً » . فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملان ، وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً ، فقال له علي : « وما ذاك » ؟ قال : « اخبرني ابو فلان — وهو الى جنبه — كلامك امير المؤمنين في امري ورضاه عني » ، فالتفت الى المديني وقال : « ما هذا » ؟ فقال : « أصلحك الله ، هذا بعض ذلك المتاع نشرناه » ، فضحك علي وقال : « عليّ بدابتي » ، وركب الى المهدي ، وحدثه الحديث ، فضحك المهدي وقال : « إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله » ، وأجرى على المديني رزقاً واسعاً ، واستوصى به خيراً ، ثم وصله ، وكان يعرف « بكذاب أمير المؤمنين » .

محاسن العفو

قيل : أسر مصعب بن الزبير رجلا من اصحاب المختار ، فأمر بضرب عنقه فقال : « ايها الامير ! ما أقبح بك ان اقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك وأقول : «ربّ سل مصعباً فيم قتلني » ؟ فقال : «أطلقوه» ، فقال : « ايها الامير اجعل ما وهبت لي من عمري في خفض عيش » ، فقال : « اعطوه مائة ألف درهم » ، قال : « بأبي انت وأمي أشهدك ان لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً قال : « لِمَ » ؟ قال : لقوله فيك :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فيهِ جَبَرُوتٌ ولا لَهُ كِبْرِيَاءُ

فضحك مصعب وقال : « لقد تلطفت وان فيك لموضعاً للصنيعة » ، وأمر له بالمائة الف ، ولابن قيس الرقيات بخمسين الف درهم . قيل : وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيد فقيل : « هو كثير الصلاة والدعاء » ، فقال للموكل به : « عرض له بان تكلمني وتسألني اطلاقه » ، فقال له الموكل ذلك ، فقال : « قل لامير المؤمنين ان كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي ، والامر قريب ، والموعد الصراط ، والحاكم الله » ، فخر الرشيد مغشياً عليه ثم افاق وأمر باطلاقه. وقيل: ظفر المأمون برجل كان يطلبه فلما دخل عليه قال : « يا عدو الله انت الذي تفسد في الارض بغير الحق . يا غلام خذه اليك فاسقه كأس المنية ». فقال: « يا أمير المؤمنين ان رأيت ان تستبقيني حتى أؤيدك بمال » ؟ قال : « لا سبيل الى ذلك » ، فقال : « يا أمير المؤمنين فدعني انشدك أبياتاً » . قال : هات . فأنشده :

زَعموا بأنَّ ٱلبازَ عَلَّــقَ مَرَّةً عُصفورَ بَرٍّ ساقَــهُ ٱلمَقدورُ
فَتَكَلَّمَ ٱلعُصفورُ تَحتَ جَناحِهِ وٱلبازُ مُنقَضٌّ عَلَيهِ يَطــيرُ
ما بي لِما يُغني لِمِثلِكَ شبعَةً ولَئِنْ أُكِلْتُ فأنَّني لَحَقيرُ
فَتَبَسَّمَ ٱلبازُ ٱلمُدِلُّ بِنَفسِهِ كَرَماً وأُطلِقَ ذَلِكَ ٱلعُصفورُ

فقال له المأمون : « احسنت . ما جرى ذلك على لسانك الا لبقية بقيت من عمرك » ، فأطلقه وخلع عليه ووصله. وعن بعضهم ان والياً أتى برجل جنى جناية، فأمر بضربه ، فلما مد قال : « بحق رأس أمك الا ما عفوت عني » . قال : أوجع . فقال : « بحق خديها ونحرها » ، قال : اضرب . قال : « بحق ثدييها » ، قال : اضرب . قال : « بحق سرتها » . قال : « ويلكم دعوه لا ينحدر قليلا » .

وعن رسول الله ﷺ انه قال : « ان الرجل اذا ظلم فلم ينتصر ، ولم يجد من ينصره فرفع طرفه الى السماء ودعا، قال الله له : لبيك عبدي انصرك عاجلا وآجلا » . وقال ﷺ في قولهم: أنصر أخاك ظالماً او مظلوماً ، وقد سئل عن ذلك فقيل : انصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ فقال : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك اياه » . وقال فضيل بن عياض : « بكى أبي فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : ابكي على ظالمي . ومن اخذ مالي ، ارحمه غداً اذا وقف بين يدي الله عز وجل ، وسأله فلا تكون له حجة » . وقال الحسن البصري : « ايها المتصدق على السائل يرحمه، ارحم اولاً من ظلمت » . وروي عن عبدالله بن سلام قال : « قرأت في بعض الكتب : قال الله عز وجل : « اذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني » . قال خالد بن صفوان : « إياكم ومجانيق الضعفاء (يعني الدعاء) » .

وضده ، قيل : لما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم السلمي ، في وقعته بالبشر : « فوض الله عمادك ، وأطال سهادك ، وأقل رقادك ، فوالله ان قتلت الا نساء أسافلهن دمي ، وأعاليهن ندي » ، قال لمن حوله : « لولا ان تلد مثلها لخليت سبيلها » . فبلغ ذلك الحسن البصري فقال: « أما الجحاف فجذوة من نار جهنم » . قال : ولما بنى زياد بناء البصرة ، أمر اصحابه ان يسمعوا من افواه الناس، فأتى برجل تلا آية: «أتَبنونَ بكلّ ريعٍ آيةً تعبثونَ وتتّخِذونَ مصانِعَ لعلّكُمْ تخلُدونَ » . قال : « وما دعاك الى هذا » ؟ قال : آية من كتاب الله عز وجل خطرت على بالي فتلوتها ، والله لأعملن فيك بالآية الثانية : «وإذا بطشْتُم بطشْتُم جبّارينَ» ثم أمر به فبني عليه ركن من اركان القصر . قال وبعث زياد الى رجل من بني تميم فقال : « اخبروني بصلحاء كل ناحية » ، فأخبروه ، فاختار منهم رجالاً فضمنهم الطريق ، وقال : «لو ضاع بيني وبين خراسان حبل لعلمت من لقطه » . وكان يدفن الناس احياء ، وينزع اضلاع اللصوص .

قال : وقال عبد الملك للحجاج : « كيف تسير في الناس » ؟ قال : « انظر الى عجوز أدركت زياداً ، فاسألها عن سيرته ، فاعمل بها » ، فأخذ والله بسنته حتى ما ترك منها شيئاً . وذكروا ان الحجاج لما أتى المدينة ارسل الى الحسن بن الحسن رضي الله عنه فقال : « هات سيف رسول الله ﷺ ودرعه » ، قال : « لا أفعل » ، قال : فجاء الحجاج بالسيف والسوط فقال : « والله لأضربنك بهذا السوط حتى اقطعه ، ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرد او تأتيني بهما » ، فقال الناس : « يا أبا محمد لا تعرض لهذا الجبار » ، قال : فجاء الحسن بسيف رسول الله ﷺ ودرعه فوضعهما بين يدي الحجاج، فأرسل الحجاج الى رجل من بني ابي رافع مولى رسول الله ﷺ فقال له : « هل تعرف سيف رسول الله ﷺ » ؟ قال : « نعم » ، فخلطه بين اسيافه ثم قال : « اخرجه » . ثم جاء بالدرع فنظر اليها ، ثم قال : « هناك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك، فطعن بحربة فخرقت الدرع فعرفناها »، فوجد الدرع على ما قال . فقال الحجاج: « أما والله لو لم تجئني به ، وجئت بغيره لضربت به رأسك » . وذكروا ان الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه : « أعسس بنفسك ، فمن وجدته فجئني به فلما أصبح أتاه بثلاثة ، فقال : « اصلح الله الامير ما وجدت الا هؤلاء الثلاثة » ، فقال الحجاج لواحد منهم : « ما كان سبب خروجك بالليل وقد نادى المنادي ان لا يخرج احد بالليل » ، قال : « اصلح الله الامير كنت سكران فغلبني السكر فخرجت ولا أعقل » ، ففكر ساعة ثم قال : « سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودن » . ثم قال للآخر : «فأنت ما كان سبب خروجك » ؟ قال : « اصلح الله الامير كنت مع قوم في مجلس يشربون فوقعت بينهم عربدة فخفت على نفسي فخرجت » ، ففكر الحجاج

ساعة فقال : « رجل أحب المسالمة خلّوا عنه » ، ثم قال الآخر : « ما كان سبب خروجك» ؟ فقال : « لي والدة عجوز ، وانا رجل حمال فرجعت الى بيتي فقالت والدتي : ما ذقت الى هذا الوقت طعاماً ولا ذواقاً ، فخرجت التمس لها ذلك فأخذني العسس » ففكر ساعة ثم قال : « يا غلام اضرب عنقه ، فاذا رأسه بين رجليه » .

محاسن الصبر على الحبس

قال الكسروي : وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبسين : « من صبر على النازلة ، كان كمن لم تنزل به ، ومن طول في الحبل كان فيه عطبه ، ومن أكل بلا مقدار تلفت نفسه » . قيل ودخل ابن الزيات على الافشين وهو محبوس فقال يخاطبه :

اصبِرْ لَهَا صَبْرَ أَقْوامٍ نُفوسُهُمْ لا تَستَريحُ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ

فقال الافشين : « من صحب الزمان لم ينج من خيره او شره ووجد الكرامة والهوان » ، ثم قال :

لَمْ يَنجُ مِنْ خيرِها أوْ شَرِّها أَحدٌ فاذْكُرْ شَوائِبَها إنْ كُنْتَ مِنْ أَحَدِ
خاضَتْ بِكَ المُنْيَةُ الحَمْقاء غَمْرَتَها فتِلْكَ أَمْواجُها تَرْميكَ بالزبدِ

ولعلي بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالَتْ حُبِسْتَ فَقُلْتُ لَيْسَ بِضائِري حَبْسي وأيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ
أوَ ما رَأَيتِ اللَّيْثَ يأْلفُ غِيلَهُ كِبْراً وأوْباشُ السِّباعِ تَرَدَّدُ
والنّارُ في أحْجارِها مَخْبوءَةٌ لَا تُصْطَلَى إنْ لَمْ تُثِرْها الأزْنُدُ
والبَدْرُ يُدْرِكُهُ الظَّلامُ فَتَنْجَلي أيّامُه وكأنَّهُ مُتَجَدِّدُ
والزّاعِبيَّةُ لا يُقيمُ كُعوبَها إلّا الثِّقافُ وجِذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ
غِيَرُ اللَّيالي بادِئاتٌ عُوَّدٌ والمالُ عارِيَةٌ يُفادُ ويَنْفَدُ
لَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ تَفَرُّجِ كُرْبَةٍ خَطْبٌ أتاكَ بِهِ الزَّمانُ الأَنْكَدُ
فلِكُلِّ حالٍ مُعْقِبٌ ولَرُبَّما أجْلى لَكَ المَكْروهُ عَمّا تَحْمَدُ

كَمْ مِنْ عليلٍ قَدْ تَخطَّاه الرَّدَى فنَجا ومــاتَ طَبيبُه والْعُوَّدُ

صَبْراً فإِنَّ اليَومَ يَعقُبه غَدٌ ويَدُ الخِلافَةِ لا تُطاوِلُها يَدُ

والحَبْس ما لَمْ تَغشَه لِدنيَّةٍ شَنْعاءَ نِعْمَ المَــنزِلُ المتَورَّدُ

لَوْ لَمْ يَكنْ في الحَبْسِ إِلَّا أنَّه لا يَستَذِلُّك بالحِجابِ الأعْبُدُ

بيتٌ يُجدِّد لِلْكَريمِ كرامَةً ويُزار فيهِ ولا يَزور ويُحْمَدُ

أبلِغْ أمــيرَ المؤمِنينَ ودونَه خَوْفُ العِدا ومَخاوِفٌ لا تَنْفَدُ

أنتمْ بَنو عَــمِّ النَّبيِّ مُحَمدٍ أوْلى بِما شَرَعَ النَّبيُّ مُحَمَّدُ

ما كانَ مِنْ حُسْنٍ فأنتمْ أهْلُه كَرُمَتْ مَغارِسُكمْ وطابَ المَحْتِدُ

أمِنَ السَّويةِ يا أبْنَ عَم محمَّدٍ خَصْمٌ تُقرِّبُــهُ وآخَرُ يُبْعَدُ

يا أحْمَدَ ابْنَ أبي دوَّادٍ إنَّما تُدْعَى لِكلِّ كَريهَةٍ يا أحْمَدُ

إنَّ الذينَ سَعوْا إليكَ بباطلٍ أعْداءُ نِعْمَتِكَ الَّتي لَا تُجْحَدُ

شَهِدوا وغِبْنا عَنْهُمُ فَتحَكَّموا فينا ولَيسَ كَغائِبٍ مَنْ يَشْهَدُ

لَوْ يَجْمَعُ الخُصَماءَ عِنْدَكَ مَنزِلٌ يَوْماً لَبانَ لَكَ الطَّريقُ الأرْشَدُ

والشَّمْسُ لَوْلَا أنَّها مَحْجوبَةٌ عَنْ ناظِرَيْكَ لَمَا أضاءَ الفَرْقَدُ

وضده ، انشدنا عاصم بن محمد الكاتب لنفسه ، لما حبسه احمد بن عبد العزيز ابن ابي دلف قوله :

قالَتْ: حُبِسْتَ. فقُلْتُ: خَطْبٌ أنكَدُ أنْحَى عَليَّ بِهِ الزَّمانُ المُرْصَدُ

لَوْ كُنْتُ حُرًّا كانَ سَرْبِي مُطْلَقاً ما كُنْتُ أُحبَسُ عَنْوَةً وأُقَيَّدُ

لَوْ كُنتُ كالسَّيْفِ المُهنَّدِ لَمْ يَكنْ وَقْتَ الكَريهَةِ والشَّدائِدِ يُغْمَدُ

لَوْ كُنتُ كالليْثِ الهَصورِ لَما رَعَتْ فيَّ الذِّئابُ وجَذْوَتِي تَتَوَقَّــدُ

مَنْ قال إنَّ الْحَبْسَ بَيْتُ كَرامَةٍ فمُكاثِر في قَـــوْلِهِ مُتَجَلِّدُ
ما الْحَبْسُ إلَّا بَيْتُ كُلِّ مَهانَةٍ ومَذَلَّةٍ ومَكارِهٍ لا تَنفَـــدُ
إنْ زارَني فيهِ ٱلْعَدُوُّ فَشامِتٌ يُبْدِي التَّوَجُّعَ تارَةً ويُفَنِّدُ
أوْ زارَني فيهِ الْمُحِبُّ فَموجَعٌ يَذْرِي الدُّموعَ بِزُفْرَةٍ تَتَرَدَّدُ
يَكفيكَ أنَّ الْحَبْسَ بَيْتٌ لا يُرى أحدٌ عَلَيْهِ مِنَ الْخَلائِقِ يُحْسَدُ
تَمْضِي اللَّيالي لا أذوقُ لِرَقْدَةٍ طَعْماً وكَيْفَ يَذوقُ مَنْ لا يَرْقُدُ
في مُطْبَقٍ فيهِ النَّهارُ مُشاكِلٌ لِلَّيْلِ والظُّلُمـــاتُ فيهِ سَرْمَدُ
فإلى مَتَى هَذَا الشَّقاءُ مُؤَكَّدٌ وإلى مَتَى هذا ٱلْبَلاءُ مُجَدَّدُ
ما لي مُجيرٌ غَيْرُ سَيِّدِيَ الذي ما زالَ يَكْفُلُني فَنِعْمَ السَّيِّدُ
غُذِيَتْ حُشاشَةُ مُهْجَتي بِنَوافِلٍ مِنْ سَيْبِه وصَنائِعٍ لا تُجْحَدُ
عِشْرينَ حَوْلاً عِشْتُ تَحْتَ جَناحِهِ عَيْشَ الْمُلوكِ وحالَتي تَتَزَيَّدُ
فَخَلا ٱلْعَدُوُّ بِمَوْضِعي مِنْ قَلْبِهِ فَحَشاهُ جَمْراً نارُهُ تَتَوَقَّـــدُ
فَٱغْفِرْ لِعَبْدِكَ ذَنْبَهُ مُتَطَوِّلاً فالْحِقْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لا تُعهَدُ
وٱذْكُرْ خَصائِصَ خِدْمَتي ومَقاوِمِي أيَّامَ كُنْتَ جَميعَ أمْري تَحْمَدُ

وقال عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، رضي الله عنهم :

خَرَجْنا مِنَ الدُّنْيا ونَحْنُ مِنَ أهْلِها فَلَسْنا مِنَ الأمْواتِ فيها ولا الأحْيا
إذا دَخَلَ السَّجَّانُ يَوْماً لِحَاجَةٍ عَجِبْنا وقُلْنا جاءَ هٰذا مِنَ الدُّنْيا
ونَفْرَحُ بالرُّؤْيا فَجُلُّ حَديثِنا إذا نَحْن أصْبَحْنا الْحَديثُ عَنِ الرُّؤْيا
فإنْ حَسُنَتْ كانَتْ بَطيئاً مَجيئُها وإنْ قَبُحَتْ لَمْ تُنْتَظَرْ وأتَتْ سَعْيا

وقال آخر :

أَلَا أَحدٌ يَدْعو لِأَهلِ مَحلَةٍ ... مُقيمينَ في الدُّنيا وقَدْ فارَقوا الدُّنيا

كَأَنَّهُمُ لمْ يَعرِفوا غيْرَ دارِهِم ... ولمْ يَعْرِفوا غيْرَ الشَّدائِدِ والْبَلْوى

وقال ابن المعتز :

تَعلَّمْتُ في السِّجْنِ نَسْجَ التِّكَكْ ... وكُنْتُ امرَأً قَبْلَ حَبْسي مَلِكْ

وقُيِّدْتُ بَعْدَ رُكوبِ الْجِيادِ ... وما ذاكَ إِلَّا بِـــدَوْرِ الْفَلَكْ

أَلَمْ تُبْصِرِ الطيْرَ في جَوِّها ... تَكادُ تُلاصِقُ ذاتَ الْحُبُكْ

إذا أَبْصَرَتْهُ خُطوبُ الزَّمانِ ... أَوْقَعنَهُ في حِبـــالِ الشَّرَكْ

فَهَذاكَ مِنْ حالِكٍ قَدْ يُصادُ ... ومِنْ قَعْرِ بَحْرٍ يُصادُ السَّمَكْ

ووجد في البيت الذي قتل فيه ، مكتوب بخطه على الارض :

يا نفْسُ صَبْراً لَعَلَّ الْخَيْرَ عُقْباكِ ... خانَتْكِ بَعْدَ طوالِ الأَمْنِ دُنْياكِ

مَرَّتْ بنا سَحَراً طَيْرٌ فقلْتُ لَها ... طوباكِ يا لَيْتَني إِيَّاكِ طوباكِ

وقال اعرابي :

ولما دخلت السجن كَبَّرَ أَهلهُ ... وقالوا ابو ليلى الغداة حزينُ

وفي الباب مكتوبٌ على صفحاته ... بانك تنزو ثم سوف تلينُ

وفي الحديث المرفوع (ان يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى طول الحبس فأوحى اليه انت حبست نفسك حين قلت : رَبِّ السجن احب إليّ مما يدعونني اليه) ، ولو قلت العافية احب إلي لعوفيت . قال : وكتب يوسف عليه السلام على باب السجن : هذه منازل البـــلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء .

محاسن المودة

قال بعض الحكماء : ليس للانسان تنعم الا بمـــودات الاخوان وقال آخر : الازدياد من الاخوان زيادة في الآجال وتوفير لحسن الحال ، وقيل : عاشر الناس معاشرة ان عشتم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم ، وقال :

قد يمكثُ الناس حينا ليس بينهم ودٌ فيزرعُهُ التسليم واللطفُ
يسلى الشقيقين طول النأي بينهما وتلتقي شُعَبٌ شتى فتأتلفُ

وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لابنه الحسين : ابذل لصديقك كل مودة ولا تطمئن اليه كل الطمأنينة واعطه كل المواساة ولا تفش اليه كل الاسرار . وقال العباس بن جرير : المودة تعاطف القلوب وائتلاف الارواح وانس النفوس ووحشة الاشخاص عند تنائي اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الانفاق في الخصال . وقال بعضهم : من لم يواخ من الاخوان الا من لا عيب فيه قل صديقه ، ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره اياه على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على غير ذنب كثر عــدوه . وكان يقال : اعجز الناس من فرط في طلب الاخوان . وقال الشاعر في مثله :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقاب الذخائرُ

وضده ، قال المأمون : الاخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغني عنه ، وطبقـة كالدواء يحتاج اليه احياناً ، وطبقة كالداء لا يحتاج اليه . وكتب بعض الكتاب ان فلاناً اولاني جميلاً من البشر مقروناً بلطيف من الخطاب في بسط وجه ولين كنف ، فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلى عليه بالذهب المملوء بالعذرة اعجبك حسنه ما دام مطيفاً فلما فتح آنذاك نتنه فلا ابعد الله غيره ، ومما قيل في ذلك :

والله لو كرهَتْ كفي منادمتي لقلتُ للكف بيني اذ كرهتني

وقال آخر :

ولو أني تخالفني شمالي لما اتبعتها ابـداً يميني
اذاً لقطعتها ولقلتُ بيني كذلك اجتوي من يجتويني

وقال آخر :

من لم يُزدكَ فلا تَردهُ ليكن كمن لم تستفدهُ
باعـد أخاك ببعده فإذا نأى شبراً فزدهُ

وقال آخر :

تَوَدُّ عدُوّي ثم تزعم انني اودّك إن الرأيَ منك لعازبُ

وليس اخي من وَدّني رأي عينه ولكن اخي من ودني وهو غائبُ

وقال آخر :

ان اختيارك لا عن خبرة سلفت الا الرجاء وما يُخطيء النظرُ
كالمستغيث ببطن السيل يحسبه حَرزا يبادره إذ بَلَّهُ المطرُ

وقال آخر :

وصاحبٍ كان لي وكنت له اشفق من والدٍ ومن ولدِ
وكان لي مؤنسا وكنت له ليست بنا وحشةٌ الى احـــدِ
كنا كساقٍ مشت بهـــا قدمٌ او كذراع نيطت الى عضُدِ
حتى اذا امكن الحوادث مِن حظي وحل الزمان من عقدي
ازورَّ عني وكان ينظرُ مِن عيني ويرمي بساعدي ويدي
حتى اذا استرفدت يدي يده كنتُ كمسترفدٍ يد الاسدِ

وقال آخر :

فيا عجبا لمن ربيتُ طفلا القمــــهُ باطرافِ البنان
اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعـــده رماني
اعلمه الفتوه كل حــين فلمـــا طَرَّ شاربه جفاني
اعلمه الرواية كل وقتٍ فلما صار شاعرها هجاني

محاسن الولايات

سئل عمار ياسر رضي الله عنه عن الولاية فقال : هي حلوة الرضاع مرة الفطام . وذكروه انه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة ، وقـــد وفد من اهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيدالله عبد الملك بن مروان ، فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت ، فلما فاقوا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك فقام فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين من انا ؟ قال :

عيسى بن طلحة بن عبيدالله ، قال : فمن انت ؟ قال : عبد الملك بن مروان . قال : أفجهلتنا او تغيرت بعدنا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل ويحملنا على ان نثني عليه بغير الحق والله لئن اعدته علينا لنعصيك ملكك، فقال له عبد الملك : انصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيئاً، قال فقام الى منزله وأصبح الحجاج غادياً الى عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيراً فقد ابدلني بكم خيراً وابدلكم بي غيري وولاني العراق .

وعن معمر بن وهيب قال : كان عبد الملك عندما استعفى اهل العراق من الحجاج قال لهم: اختاروا اي هذين شئتم ، يعني اخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله بن عبد الملك — مكان الحجاج ؟ فكتب اليه الحجاج : يا امير المؤمنين ، ان اهل العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص ما عفاهم منه فساروا اليه من قابل وقتلوه ، فقال : صـــدق ورب الكعبة ، وكتب الى محمد وعبدالله بالسمع والطاعة له

وضده ، كتب عبد الصمد بن المعذل الى صديق له ولي النفاطات فأظهر تيهاً :

لعمري لقد اظهرت تيهاً كأنما ... توليت للفضل بن مروان عُكبرا
دع الكبر واستبق التواضع إنه ... قبيحٌ بوالي النفط ان يتغيرا
لحفظ عيون النفط احدثت نخوةً ... فكيف به لو كان مسكاً وعنبرا

وقال ابن المعتز :

كم تائه بولايةٍ ... وبعزله يعدو البريدُ
سُكرُ الولاية طيّبٌ ... وخمارُهُ صعبٌ شديدُ

وقال آخر :

لا تفرحن فكلُّ والٍ يُعزل ... وكما عُزلت فمن قريب تقتلُ
وكذا الزمان بما يسرك تارةً ... وبمـــا يسوءك تارةً يتنقلُ

محاسن الصحبة

قيل : قال علقمة بن ليث لابنه : يا بني ، ان نازعتك نفسك الى الرجال يوماً لحاجتك اليهم فاصحب من ان صحبته زانك ، وان تخففت له صانك ، وان نزلت بك مؤونة مانك ، وان

قلت صدق قولك ، وان صلت شدد صولك ، اصحب من اذا مددت اليه يدك لفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان بدت منك ثلمة سدّها ، واصحب من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك من الطرائف ولا يخذلك عند الحقائق ، وقال آخر : اصحب من خولك نفسه وملكك خدمته وتخيرك لزمانه ، فقد وجب عليك حق وذمامه . وكان يقال : من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه . وقال بعضهم لصاحبه : انا أطوع لك من اليد وأذل من النعل . وقال بعضهم : اذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجه فانه تاركك كما ترك صاحبه . وقال ابن ابي دؤاد لرجل انقطع الى محمد بن عبد الملك الزيات : ما خبرك مع صاحبك ؟ فقال : لا يقصر في الاحسان اليّ ، فقال : يا هذا ان لسان حالك يكذب لسان مقالك .

وضده ، قال : كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقين لهشام بن عبد الملك ، وكان مذموماً في عمله ، فخبرني المدائني قال : وزن يوسف بن عمر درهماً فنقص حبة فكتب الى دور الضرب بالعراق يضرب أهلها مائة . قيل : وخطب في مسجد الكوفة فتكلم انسان مجنون فقال : يأهل الكوفة ألم انهكم ان تدخلوا مساجدكم المجانين اضربوا عنقه فضربت عنقه . قال : وقال لهمام ابن يحيى وكان عـاملاً له : يا فاسق ، خربت مهرجا نقذق قال : اني لم أكن عليها انما كنت على ماه دينار وعمرت البلاد فأعاد ذلك عليه مراراً ، فقال همام : قد اخبرتك اني كنت على ماه دينار وتقول : ضربت مهرجاً نقذق فلم يزل يعذبه حتى مات . قال : وقال لكاتبه وقـد احتبس عن ديوانه يوماً : ما حبسك ؟ قال : اشتكيت ضرسي قال : تشكي ضرسك وتقعد عن الديوان ودعا الحجام وأمره ان يقلع ضرسين من أضراسه . وعن المدائني قال : حدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بني عبس قال : كنت لا احجب عنه وعن خدمته فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث ودعا بخصي له يقال له حديج فقرب اليه واحدة فقال لها : اني اريد الشخوص أفأخلفك او أشخصك معي ؟ فقالت : صحبة الامير احب اليّ ، ولكني احسب ان مقامي وتخلفي اعفى واخف على قلبه . فقال : احببت التخلف للفجور يا حديج اضرب فضربها حتى أوجعها ثم امره ان يأتيه بالثانية ، وقد رأت ما لقيت صاحبتها فقال لها : اني اريد الشخوص أفأخلفك ام أخرجك ؟ فقالت : ما اعدل بصحبة الامير شيئاً بـــل تخرجني قال : أحببت الجماع ، ما تريدين ان يفوتك ليلة يا حديج ، اضرب فضربها حتى أوجعها ، ثم أمره ان يأتيه بالثالثة ، وقد رأت مـــا لقيت ، المتقدمتان ، فقال لها : اني اريد الشخوص أفأخلفك ام اخرجك ؟ قالت : الامير اعلم لينظر اخف الامرين عليه فليفعله . قال : اختياري لنفسك قالت : ما عندي اختيار فليختر الامر . قال : قد فرغت من كل عمل فلم يبقَ لي الا ان اختار لـــك اوجعها يا حديج ، فضربها حتى اوجعها . قال الرجل : فكأنما اوجعني من شدة غيظه عليه ، فولت الجارية فتبعها الخادم فلما بعدت قالت : الخيرة والله في فراقك ما تقرعني احد بصحبتك

فلم يفهم يوسف كلامها . فقال : ما تقول يا حديج ؟ قال : قالت كذا وكذا . فقال : يابن الخبيثة من امرك ان تعلمني يا غلام ، خذ السوط من يده فأوجع رأسه . فما زال يضربه حتى اشتفى ، فتعرف من الغلام الآخر كم ضربت ؟ قال : لا ادري . قال : عدو الله ، أتخرج حاصلي من بيت مالي من غير حساب ، اقتلوه ، فقتلوه .

محاسن التطير

عن عكرمة قال : كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غراب يصيح ، فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن العباس : لا خير ولا شر ، والذي حضرنا من الشعر في مثله لأبي الشيص :

مـــا فرّق الأحباب بعـ د الله إلّا الإبـــلُ
والناس يلحونَ غرا بَ البين لمـــا جهلوا
وما على ظهرِ غرا بِ البين تُطوى الرِحَلُ
ولا اذا صاح غرا بُ في الديار ارتحلوا
وما غرابُ البيين ا لا ناقةٌ او جَمَـــلُ

وقال آخر :

اترحل عمن انت صب بمثله وتلحي غراب البين انك تظلمُ
أقم فغراب البين غير مُفرّق ولا يأتي الاعلى الفصل يحكمُ

وقال آخر :

غلط الذين رأيتهم بجهالة يلحون كلهم غراباً ينعقُ
ما الذنبُ الا للجِمال فانها مما يشتت شملهم ويفرقُ
إن الغراب بيمنه يُدنى النوى وتشتت الشمل الجميع الانيقُ

وقال آخر :

لا يعلم المرء ليلا ما يصبّحهُ الاكواذب مما يخبرُ الفالُ

والفال والزجرُ والكهان كلهم مضللون ودون الغيب اقفالُ

وضده ، حكي عن النعمان بن المنذر انه خرج متصيداً ومعه عدي بن زيد العبادي فمر بآرام – وهي القبور – فقال عدي : أبيت اللعن ، أتدري ما تقول هذه الآرام ؟ فقال : لا قال : انها تقول :

ايها الركب المخفو ن على الارض تمرّونَ

لكما كنتم فكنا وكما كنا تكونون

فقال : أعد فأعادها فترك صيده ورجع كئيباً ، وخرج معه مرة اخرى فوقف على آرام بظهر الحيرة ، فقال عدي : أبيت اللعن ، أتدري ما تقول هـــذه الآرام قال : لا ، قال : انها تقول :

رُبَّ ركب قد اناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم اضحوا عصف الدهر بهم وكذاك الدهر حالا بعد حالِ

فانصرف وترك صيده . قال : ولما خرج خالد بن الوليد الى اهل الردة انتهى الى حي من تغلب فأغار عليهم وقتلهم ، وكان رجل منهم جالساً على شراب له وهو يغني بهذا البيت :

الا عَللاني قبل جيش ابي بكر لعل منايانا قريب وما ندري

فوقف عليه رجل من اصحاب خالد فضرب عنقه ، فاذا رأسه في الجفنـــة التي كان يشرب منها . وهذا كقولهم :

إن البلاء مُوَكلٌ بالمنطقِ

محاسن الوفاء

قيل في المثل : أوفى من مكيهة وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة ، كان من وفائها أن السليك بن سلكة غزا بكر بن وائل ، فلم يجد غفلة يلتمسها ، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا : ان هذا الاثر قدم ورد الماء ، فقصدوا له ، فلما وافى حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها ، فادخلته تحت درعها فانتزعوا ضمارهـــا فنادت اخوتها فجاءوا عشرة ، فمنعوهم منها . قال : وكان سليك يقول : كأني اجد خشونة شعر استها على ظهري حين ادخلتني تحت درعها : وقال :

لعمر أبيك والانبياء تنمي ليَنقمَ الجار اخت بني عُوارا

من الخفرات لم تفضح اخاها ولم ترفع لوالدها شنارا

عنيت به فُكيْهَةَ حين قامت لدخل السيف فانتزعوا الخمارا

ويقال ايضاً : هو اوفى من ام جميل ، وهي من رهط ابن ابي بردة من دوس ، وكان من وفائها ان هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلاً من الازد فبلغ ذلك قومـــه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهري ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت ام جميل وعاذ بها ، فقامت في وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها فلما ولي عمر بن الخطاب ظنت انه اخوه فأتته بالمدينة ، فلما انتسبت له عرف القصة فقال : اني لست بأخيه الا في الاسلام وهو غاز وقد عرفنا منتك عليه وأعطاها على انها ابنـــة سبيل ويقال : أوفى من السموءل بن عاديا ، وكان من وفائه ان امرأ القيس بن حجر لما أراد الخروج الى قيصر استودع السموءل دروعاً له فلما مات امرأ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منـــه السموءل فأخذ الملك ابناً له خارج الحصن وصاح ، يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت ان امرأ القيس ابن عمي وانا أحق بميراثه ، فان دفعت اليّ الدروع والا ذبحت ابنك . فقال : اجلني فأجله ، فجمع اهل بيته فشاورهم فكلهم أشاروا بدفع الدروع وان يستنقذ ابنـــه ، فلما اصبح اشرف عليه وقال : ليس لي الى دفع الدروع سبيل فاصنع ما انت صـــانع فذبح الملك ابنه وهو ينظر اليه وكان يهودياً ، وانصرف الملك ووافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امرأ القيس : وقال في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي اني اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ

وقالوا عنده كنز رهيب فلا وابيك اغدر ما مشيتُ

بنى لي عادياً حصناً حصيناً وبئراً كلما شئتُ استقيتُ

وفي ذلك يقول الأعشى :

كن كالسموءَل اذ طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرارِ

بالابلق الفرد من تيماء منزلُهُ حصن حصين وجار غير غدارِ

خيَّرهُ خطتي خسفٍ فقال له مهما تقولن فإني سامعٌ حارِ

فقال ثُكلٌ وغدرٌ انت بينهما فاختر فما فيهما حظ لمختارِ

فشك غير طويلٍ ثم قال له   اقتل اسيرك اني مانعٌ جاري

ويقال : أوفى من الحارث بن عباد ، وكان من وفائه انه اسر عدي بن ربيعة ولم يعرفه ، فقال له : دلني على عدي بن ربيعة ولك الآمال ، فقال : انا آمن ان دللتك عليه ، قال : نعم . قال : فأنا عدي بن ربيعة فخلاه وفي ذلك يقول الشاعر :

لهف نفسي على عدي وقد شا   رفه الموت واجتوته المنون

ويقال : هو أوفى من عوف بن محلم ، وكان من وفائه ان مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففضوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به امه فقالت : انك تختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ فقال لها مروان : وما ترجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه . قال : وكم ترجين من فدائه ؟ قالت : مائة بعير . قال مروان : لك ذلك على ان ترديني الى خماعة بنت عوف بن محلم ، قالت : ومن لي بالمائة فأخذ عوداً من الارض وقال : هذا لك ، فمضت به الى عوف فاستجار بخماعة ابنته فبعثت به الى عوف ، ثم ان عمرو بن هند بعث الى عوف ان يأتيه بمروان ، وكان واجداً عليه في شيء ، فقال عوف لرسوله : ان خماعة ابنتي قد اجارته ، فقال : ان الملك قد آلى ان يعفو عنه او يضع كفه في كفه ، فقال عوف : يفضل ذلك على ان تكون كفي بين ايديها ، فأجابه عمرو الى ذلك ، فجاء عوف بمروان فأدخله عليه فوضع يده في يده ووضع يده بين ايديها فعفا عنه . ومنهم الطائي صاحب النعمان ابن المنذر ، وكان من وفائه ان النعمان ركب في يوم بؤسه ، وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه احد في يوم بؤسه الا قتله ولا في يوم نعيمه الا احياه وحباه واعطاه ، فاستقبله في يوم بؤسه اعرابي من طيء ، فقال : حيا الله الملك ، لي صبية وصغاراً لم أوصي بهم احداً فان رأى الملك ان يأذن لي في اتيانهم وأعطيه عهد الله ان ارجع اليه اذا أوصيت بهم حتى أضع يدي بين يديه ، فرق له النعمان وقال له : لا الا ان يضمنك رجل ممن معنا فان لم تأت قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراجيل فنظر اليه الطائي وقال :

يا شريك ابن عمرو   هل من الموت محالهْ
يا اخا كل مُضافٍ   يا اخا من لا اخالهْ
يا اخا النعمان فك اليوم عن شيخ غلالهْ
ابن شيبانُ قتيلٌ اصلح الله فعـــالهْ

فقال شريك : هو علي اصلح الله الملك ، فمضى الطائي وأجل له أجلا يأتي فيه، فلما كان ذلك اليوم احضر النعمان شريكاً وجعل يقول له : ان صدر هذا اليوم قد ولي وشريك يقول : ليس لك عليّ سبيل حتى تمسي فلما أمسوا اقبل شخص والنعمان ينظر الى شريك فقال شريك : ليس لك علي سبيل حتى يدنو الشخص فلعله صاحبي ، فبينما هما كذلك اذ أقبــل الطائي فقال النعمان : والله ما رأيت أكرم منكما وما ادري أيكما أكرم أهذا الذي ضمنك وهو الموت ام انت وقد رجعت الى القتل ؟ والله لا اكون الأم الثلاثة ، فاطلقه وأمر برفع يوم بؤسه . وأنشد الطائي :

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فابيت عند تجهم الاقوالِ
اني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب بذّالِ

فقال النعمان : ما حملك على الوفاء ؟ قال : ديني . قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية . قال : اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فتنصر النعمان .

وضده ، قيل : كتب صاحب بريد همذان الى المأمون وهو بخراسان يعلمه ان كاتب صاحب البريد المعزول اخبره ان صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأا على اخراج مائتي الف درهم من بيت المال وأقسماها بينهما ، فوضع المأمون ، إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول اجارة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه ، فأنف الساعي عند ذلك وقال : يا امير المؤمنين رضي الله عنك . المعذرة فان الساعي وان كان في سعايته صادقاً لقد كان في صدقه لئيماً اذ لم يحفظ الحرمة ولم يفِ لصاحبه . قال : ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فقال : يا امير المؤمنين ، عندي نصيحة . قال : وما نصيحتك هذه ؟ قال : فلان كان عاملاً ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد ، فخانهم فيما تولاه ثم اقتطــع اموالاً كثيرة جليلة فمر باستخراجها منه . قال : انت شر منه وأخون حيث أطلقت على امره واظهرته ولولا اني انفر النصاح لعاقبتك ، ولكن اختر مني خصلة من ثلاث . قال : اعرضهن يا امير المؤمنين . قال : ان شئت فتشنا عما ذكرت ، فان كنت صادقاً مقتناك ، وان كنت كاذباً عاقبناك وان استقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل .

محاسن السخاء

روي عن نافع قال : لقي يحي بن زكريا عليه السلام ابليس لعنه الله فقال : اخبرني باحب الناس اليك وابغضهم اليك . قال : احبهم الي كل مؤمن بخيل وابغضهم الي كل منافق سخي .

قال : ولم ذاك ؟ قال : لان السخاء خلق الله الاعظم فاخشى ان يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي ﷺ : « السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخل بعيد من الله من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخي احب الى الله عز وجل من عابد بخيل وادوأ الداء البخل» . وقال ﷺ : «ما اشرقت شمس الا ومعها ملكان يناديان يسممان الخلائق غير الجن والانس وهما الثقلان : اللهم عجل المنفق خلفاً ولممسك تلفاً وملكان يناديان : ايها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر والهى » . وعن الشعبي قال : قالت ام البنين ابنة عبد العزيز اخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحب الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته او طريقاً ما سلكتها ، وكانت تعتق كل يوم رقبة ، وتحمل على قريش في سبيل الله وكانت تقول : البخل كل البخل مَن بخل على نفسه بالجنة .

وقيل اعتقت هند بلت عبد المطلب في يوم واحد اربعين رقبة . وقال بعض الحكماء : ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة ، وثواب البخل حرمان واتلاف ومذمّة . وقال النبي ﷺ لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه : « يا علي، كن شجاعاً فان الله يحب الشجاع، وكن سخياً فان الله يحب السخي وكن غيوراً فان الله يحب الغيور . يا علي : وان انسان سألك حاجة ليس لها بأهل فكن انت اهلاً لها » . وقال النبي ﷺ : « السخاء شجرة في الجنة من اخذ منها بغصن مُدّ به الى الجنة » . وقال عبد العزيز بن مروان : لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم الا سوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيماً . وقال ﷺ : «تجافوا عن ذنب السخي فان الله آخذ بيده كلما عثر». وقال بهرام جور : من احب ان يعرف فضل الجود على سائر الاشياء فلينظر الى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله بالجنان فانه لولا رضاه الجود لم يصطفه لنفسه . وقال الموبذان لأبرويز :

أكنتم تمنون انتم وآباؤكم بالمعروف وتترصدون عليه بالمكافأة ؟ قال : لا ، ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك وفي كتاب ديننا من فعل معروفاً خفياً واظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ان لا نعده من الابرار ولا نذكره في الاتقياء والصالحين ؟ قيل : وسئل الاسكندر : ما اكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال : ابتداري الى اصطناع الرجال والاحسان اليهم . قال : وكتب ارسطاطاليس في رسالته الى الاسكندر : واعلم ان الايام تأتي على كل شيء فتخلقه وتخلق آثاره وتميت الافعال الا ما رسخ في قلوب الناس . فأودع قلوبهم محبة آبدة تبقي بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك . قال : ولما قدم بزرجمهر الى القتل قيل له : انك في آخر وقت من اوقات الدنيا واول وقت من اوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به . فقال : اي شيء اقول ؟ الكلام كثير ولكن ان امكنك ان تكون

حديثاً حسناً فافعل. قيل : وتنازع رجلان احدهما من ابناء العجم والآخر اعرابي من الضيافة . فقال الاعرابي : نحن اقرى للضيف . قال : وكيف ذلك ؟

قال : لان احدنا ربما لا يملك الا بعيراً فاذا حل به ضيف نحره له، فقال له الاعجمي : فنحن احسن مذهب في القـــرى منكم ، قال : وما ذاك ؟ قال : نحن نسمي الضيف مهمان ومعناه انه اكبر من في المنزل واملكنا به ، وقال بعض الحكماء : بلغ الجود من قام بالمجهود . وقيل الجواد من لم يضن بالموجود . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود. قيل وشكا رجل الى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل الناس وينفق . قال : ان النفقة داعية الرزق وكان جالساً على باب فقال للرجل : اغلق هذا الباب فاغلقه . فقال : هل تدخل فيه الريح ؟ قال : لا . قال : فافتحه ، ففتحه فجعلت الريح تخترق في البيت ، فقال : هكذا الرزق اغلقت فلم تدخل الريح فكذلك اذا امسكت لم يأتك الرزق .

قيل : ووصل المأمون محمد بن عباد المهلبي بمائة الف دينار ففرقها على اخوانه فبلغ ذلك المأمون . فقال : يا ابا عبدالله ان بيوت الاموال لا تقوم بهذا . فقال : يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود . وعن امية ابن يزيد الاموي قال : كنا عند عبد الرحمن بن يزيد ابن معاوية فجاءه رجل من اهل بيته فسأله لمعونة على تزويج ، فقال له قولاً ضعيفاً فيه وعد وقلة اطماع .

فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته فقال : اعطه اربعمائة دينار فاستكثرناها وقلنا : كنت رددت عليه رداً ظننا انك تعطيه شيئاً قليلاً فاذا انت اعطيته اكثر مما امل ، فقال : اني احب ان يكون فعلي احسن من قولي . وبحاتم يضرب المثل والسخاء ، فحدثنا عن بعض حالات حاتم . قيل : كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفراً اذا قاتل غلب واذا غنم نهب واذا سئل وهب واذا ضرب بالقداح سبق واذا اسر اطلق ، وكان اقسم ان لا يقتل واحداً ، قيل : ولما بلغ حاتماً قول المتلمس الضبعي :

قليل المـــال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفسادِ
وحفظ المال ايسره من بفاه وضربٍ في البلاد بغير زادِ

فقال : ما له قطع الله لسانه ، يحرض الناس على البخل افلا قال :

فلا الجود يُفني المال قبل فنائه ولا البخل في مالِ الشحيح يزيدُ
فلا تلتمس رزقا بعيشٍ مُقتّرٍ لكل غدٍ رزقا يعود جديدُ
ألم تر أن الرزق غادٍ ورائح وان الذي اعطاك سوف يُعيدُ

قال : ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال : انك قد اقرضتني ناقتك فاحتكم عليّ . قال : راحلتني . قال : لك عشرون ارضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضى . قال : اليك اربعون . ثم قال : لمن بحضرته من قومه ، من اتانا نباقه فله ناقتان بعد الغاءه، فأتوه باربعين فدفعها الى الضيف . وحكوا عن حاتم انه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بارض عنزة ناداه اسير فيهم . يا ابا سفانة قد اكلني الأسار والقمل . قال : والله ما انا في بلادي ولا معي شيء وقد اسأت الى ان نوهت باسمي فذهب الى العنزيين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال : خلوا عنه وانا اقيم مكانه في قيده حتى أؤدي قراه ، ففعلوا فاتاهم بفداء .
قيل : ولما مات حاتم خرج رجل من بني اسد يعرف بابي الخيبري في نفر من قومه وذلك قبل ان يعلم كثير من العرب بموته فأناخوا بقبره فقال : والله لاحلفن للعرب انني نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول :

عجّل ابا سفّانةٍ قراكا فسوف أُنبي سائلي ثناكا

فقال بعضهم : ما لك تنادي رمة باتوا مكانهم فقام صاحب القول من نومه مذعوراً فقال : يا قوم عليكم مطاياكم فان حاتماً أتاني فأنشدني :

ابا الخيبريّ وأنت امرؤٌ ظلوم العشرة شتامها
فماذا اردت الى رقةٍ بدَوِّيّة صَخَبَت هامها
تبغي أذاها وإعسارها وحولك طيٌّ وإنعامها
وإنا لنُنعم اضيافنـــا من الكوم بالسيف نعتامها

وقيل في المثل : هو اجود من كعب بن امامة وكان من إياد وبلغ من جوده انه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر بن قاسط في شهر ناجر والجأم العطش فظلوا فتصافتوا ماءهم فجعل النميري يشرب نصيبه فاذا اراد كعب ان يشرب نصيبه . قال : آثر اخاك النمري فيؤثره حتى اضرّ به العطش فلما رأى ذلك استحث ناقته وبادر حتى رفعت اعلام الماء وقيل له: رد كعب فانك وارد فمات قبل ان يرد ونجا رفيقه . ومن قول ابي تمام :

هو البحر من اي النواحي أتيتَهُ فلجُتّه المعروف والجود ساحله
كريم اذا ما جئت للعرف طالباً حباك بما تحوي عليه انامله
فلو لم يكنْ في كفه غير نفسه لجاد بها فليتّق الله سائله

وللبحتري :

لو ان كفكَ لم تجُدْ لمؤمِّل لكفاه عاجل وجهك المتهلّلِ

ولو ان مجدكَ لم يكن متقادماً اغناك آخر سؤدد عن اولِ

ولبكر بن النطاح في ابي دلف :

بطل بصدر حسامه وسنانه أجلان من صدر ومن أبرادِ

ورث المكارم وابتناها قاسمٌ بصفائح واسنةٍ وجيـــادِ

يا عصمة العرب التي لو لم تكن حياً اذا كانت بغير عمادِ

إنَّ العيون اذا رأتك بعزمه فتّحتَ منه مواضع الاسداد

وكأن رمحك منقع في عُصفرٍ وكان سيفك سُلَّ من فرصادِ

لو صال من غضب ابو دلف على بيض السيوف لذُبْنَ في الاغماد

اورى ونوّر للعداوة والهوى نارين : نار دم ونار زنادِ

قال ابو هفان : انتشرت هذه الابيات عبد العزيز بن ابي دلف بسر من رأى فقال : هل سمعت بمثل هذه الابيات ؟ قلت : لا ، قال : ولغيره من ابي دلف :

ولو يجوز لقال الناس كلهم لولا ابو دلف ما اورق الشجَرُ

قال ابن يحي النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : انشدني قول عمارة في اهل بغداد فانشدته :

ومن يشتري مني ملوك مخرَّم أبِعْ حسناً وابني هشام بدرهمِ

واعطي رجاء بعد ذاك زيادة وامنح دينارا بغير قتومِ

فإن طلبوا مني الزيادة زدتهم ابا دلف والمستطيل بن اكثمِ

فقال المتوكل : ويلي على ابن البوال على عقبيه يهجو شقيقه دولة العباس قال : فهل عندك من أعدم ذِي ابي دلف القاسم بن عيسى شيء ؟ قلت : يا امير المؤمنين قول الاعرابي الذي يقول فيه:

ابا دلف ان السماحة لم تزل مغللة تشكو الى الله غلها

فبشّرها ربي بميلاد قاسم فأرسل جبريلاً اليها فحلها

وقال غيره :

حرٌّ اذا جئته يوماً لتسأله اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنائعه والله يظهرها ان الجميل اذا أخفيته ظهرا

وقال آخر :

فتى عاهد الرحمن فابذل ماله فليس تراه الدهر إلا على العهد

فتى قصرت آماله عن فعاله وليس على الحر الكريم سوى الجهل

وقال آخر :

اذا ما اتاه السائلون توقدت عليه مصابيح الطلاقة والبشر

له من ذرى المعروف نعمى كأنها مواقع ماء المزن في البلد القفر

وقال آخر :

عاد السرور اليك في الاعياد وسعدت من دنياك بالاسعاد

رفقا بعبد جلّ ما اوليته رفقا فقد اثقلته بأيادي

ملأ النفوس مهابة ومحبة بدر بـدا متغمرًا بسواد

ما ان ارى لك مشبهاً فيمن ارى ان الكرام قليلة الانداد

وقال في ابن ابي دؤاد :

بدا حـين اثرى باخوانه فقلل عنهم شبات العدمْ

وحذّره الحزم صرف الزمان فبادر قبـل انتقال النعمْ

فليس وانـ نجل البا خلون يقرع سناً له من ندمْ

ولا ينكتُ الأرض عند السؤال ليمنع سؤّاله عن نعـمْ

ويروى في الحديث : انه لا يجتمع الشح والايمان في قلب عبـد صالح ابداً . ويقولون :

الشحيح اغدر من الظالم اقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل في جنته . وقال النبي ﷺ : من فتح له باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عنه . وقال الشاعر في ذلك :

ليبس في كل ساعة وأوان نتهيا صنائع الاحسانِ

فإذا امكنت تقدَّمتُ فيها حذراً من تعذر الإمكانِ

وذكر عبدالله بن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه ، ان امير المؤمنين علياً صلوات الله عليه بعثه الى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالاً ، فانطلق به الى منزله ، فوجد في الطريق صوفاً ، فأخذه ومرّ بقطعة كساء فأخذها ، فلما صار الى المنزل اعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطاً ، ثم دعا بغرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخيطها بالخيط وصرّ فيها ثلاثين ألف درهم فحملت معه . قال : وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الانصاري رحمه الله يسألونه في حمالة فصادفوه في حائط له يتتبع ما يسقط من الثمر فيعزل جيده ورديئه على حدة فهموا بأن يرجعوا عنه وقالوا ما نظن عنده خيراً . ثم كلموه فأعطاهم ، فقال رجل من القوم : لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك . فقال : وما ذاك ؟ فاخبروه . فقال : ان الذي رأيتم يؤول الى اجتماع ما ينفع وينمو ، ومنها قيل : الذود الى الذود ابل . وانشدوا :

اب كبير هامه صغير وفي البحور تغرقُ البحورُ

وقال آخر :

قد يلحقُ الصغير بالجليل وانما القَرمُ من الافيل

وسحُق النَّخل من الغسيل

قال : وأتى رجل ابن طلحة بن عبيد الله فسأله حمالة فرآه يهنأ بعيراً له فقال : يا غلام اخرج اليه بدرة . فقبضها وقال : اردت ان اتصرف حين رأيتك تهنأ بالبعير فقال : انا لا نضيع الصغير ولا يتعاظمنا الكبير .

مساوىء البخل

المثل السائر في البخل : هو ابخل من مادر ، وهو رجل من بني هلال بن عامر بلغ من بخله انه كان يسقي ابله فبقي في اسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمي مادراً . وذكروا ان بني هلال وبني فزارة تنافروا الى أنس بن مدرك وتراضوا به ، فقالت بني فزارة : لم نعرفه ، وكان سبب ذلك ان ثلاثة اصطحبوا : فزاري ، وثعلبي ، وكلابي ،

فصادفوا حمار وحش ، ومضى الفزاري في بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبأا للفزاري أير الحمار فلما رجع قالا : قد خبأنا لك حقك فكل ، فأقبل يأكل ولا يسيغه فجعلا يضحكان : ففطن واخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأكلان منه او لأقتلكما ، فامتنعا فضرب احدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ، فقال فيهم الشاعر :

نشدتك يا فزار وانت شيخ اذا خُيِّرتَ تخطيء في الخيارِ
أصيحانيَّة أُدِمت بِسَمْنٍ أَحَبُّ اليك ام اير الحمار
بلى اير الحمـارِ وخصيتاهُ احب الى فزارة من فزاري

فقالت بنو فزارة : منكم يا بني هلال من سقى ابله فلما رويت سلح في الحوض ومدره بخلاً فنفرهم انس بن مدرك على الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير وكانوا تراهنوا عليها ، وفي بني هلال يقول الشاعر :

ولكن يرى مشرقاً وجهه ليرغم في حاله من رَغِمْ
لقد جلّلت خزياً هلال بن عامر بني عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها بني عامر انتم شرار العشائر

وفي المثل : هو ابخل من ابي حباحب ، وهو رجل في الجاهلية بلغ من بُخله انه كان يسرج السراج ، فاذا اراد احد ان يأخذه منه اطفأه ، فضرب به المثل . ومنهم صاحب نجيح بن سلكة اليربوعي ، فانه ذكر ان نجيحاً اليربوعي خرج يوماً يتصيد ، فعرض له حمار وحش فاتبعه حتى دفع الى اكمة ، فاذا هو برجل اعمى اسود قاعد في اطمار، بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت ، فدنا منه فتناول بعضها ولم يستطع ان يحرك يده حتى ألقاه ، فقال : يا هذا ، ما هذا الذي بين يديك ؟ وكيف يستطاع أخذه ؟ وهل هو لك ام لغيرك ؟ فاني اعجب مما ارى اجواد انت فتجود لنا ام بخيل فاعذرك ؟ فقال الاعمى : اطلب رجلاً فقد منذ سنين وهو سعد ابن خشرم بن شماس فأتني به نعطك ما تشاء ، فانطلق نجيح مسرعاً قد استطير فؤاده حتى وصل الى قومه ودخل خباءَه ووضع رأسه فنام لما به من الغم لا يدري مَن سعد بن خشرم ، فأتاه آت في منامه فقال له : يا نجيح ان سعد بن خشرم في حي بني محلم من ولد ذهل بن شيبان ، فسأله عن بني محلم ثم سأل عن خشرم بن شماس فاذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه فحياه نجيح، فرد عليه السلام ، فقال له نجيح : من انت؟

قال : انا خشرم بن شماس. قال له : فأين ولدك سعد ؟ قال : خرج من طلب نجيح اليربوعي

وذلك ان آتياً اتاه في منامه فحدثه ان مالاً له في نواحي بني يربوع لا يعلم به الا نجيح اليربوعي ، فضرب نجيح فرسه ومضى وهو يقول :

أيطلبني من قد عناني طلابه فيا ليتني القاك سعد بن خَشرمِ

اتيتَ بني يربوع تبغي لقاءنا وجئتُ لكي القاك ، حيٌّ مُحلّمِ

فلما دنا من محلته استقبله سعد فقال له نجيح : ايها الراكب هل لقيت سعداً في بني يربوع ؟ قال : انا سعد فهل تدل على نجيح؟ قال: انا نجيح. وحدثه بالحديث فقال : الدال على الخير كفاعله – وهو اول من قالها – فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان فتوارى الرجل الاعمى عنهما وترك المال فأخذه سعد كله ، فقال نجيح : يا سعد قاسمني، فقال له اطوعني وعن مالي كشحاً. وأبى ان يعطيه شيئاً فانتضى نجيح سيفاً ، فجعل يضربه حتى برد فلما وقع قتيلاً تحول الرجل الحافظ للمال سعلاة ، فأسرع في اكل سعد وعاد المال الى مكانه فلما رأى نجيح ذلك ولى هارباً الى قومه .

قيل: وكان ابو عبس بخيلاً وكان اذا وضع الدرهم في يده نقره باصبعه ثم يقول : كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها الآن ، الآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ، ثم يرمي به في صندوقه فيكون آخر العهد به . قيل : ونظر سليمان بن مزاحم الى درهم فقال في شق : لا اله الا الله، وفي شق: محمد رسول الله ، ما ينبغي ان تكون الا معاذة، وقذفه في صندوقه. وذكروا انه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيب فأتاه شاعر يمتدحه فلم يعطه شيئاً ثم سعل سعلة فضرط ، فقال الشاعر :

أتيت المسيب في حاجـــة فما زال يسعل حتى ضرط

فقال : غلطنا حساب الخراج فقلت من الضرط جاء الغلط

فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل .

قال : وكتب ارسطاطاليس الى رجل بشيء فلم يفعل فكتب اليه : ان كنت اردت فلم تقدر فمعذور ، وان كنت قدرت ولم ترد ، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر .

قال : وسمع ابو الاسود الدؤلي رجلاً يقول :

من يعشي الجائع؟ فعشاه ثم قام الرجل ليخرج فقال: هيهات تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني، ووضع رجله في الادهم حتى اصبح . قال : وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلح عليه ويسأله ان يتغدى عنده ويقول : لعلك تظن اني اتكلف لك شيئاً والله لا اقدم لك الا ما عندي ، فلما اتاه

لم يجد في بيته الا كسراً يابسة وملح جريش . وجاء سائل الى الباب فقال له : وسّع الله عليك، فلم يذهب فقال: والله لئن خرجت اليك لادقن رأسك، فقال ابن المقفع للسائل: ويحك لو عرفت من صـــدق وعيده ما اعرف من صدق وعده لم تزد كلمة ولم تقم طرفة عين ! قال : وكتب ابراهيم بن سيابة الى صديق له كثير المال يستسلفه ، فكتب اليه : العيال كثير والدخل قليل والمال مكذوب عليه. فكتب اليه: ان كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وان كنت صادقاً فجعلك الله معذوراً . وكتب آخر الى آخر يصف رجلاً : اما بعد فانك كتبت تسأل عن فلان كأنك هممت به او حدثتك نفسك بالقدوم اليه فلا تفعل . فان حسن الظن به لا يقع في الوهم الا بخذلان الله، والطمع فيما عنده لا يخطر على القلب الا بسوء التوكل على الله، والرجاء فيما في يده لا ينبغي الا بعد اليأس من رحمة الله. انه يرى الايثار الذي يرضى به التبذير الذي يعاقب عليه والاقتصاد الذي امر به الاسراف الذي يعاقب عليه، وان بني اسرائيل لم يستبدلوا العدس والبصل بالمن والسلوى الا لفضل اخلاقهم وقديم علمهم وان الصنيعة مرفوعة والصلة موضوعة، والهبة مكروهة والصدقة منحوسة والتوسع ضلالة، والجود فسوق، والسخاء من همزات الشياطين. وان مواساة الرجال من الذنوب الموبقة والافضال عليهم من احدى الكبائر . وأيم الله انه يقول ان الله لا يغفر ان يؤثر المرء في خصاصة نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالاً بعيداً كأنه لم يسمع بالمعروف الا في الجاهلية ، الذي قطع الله ادبارهم ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم وان الرجفة لم تأخذ اهل مدين الا لسخاء كان فيهم ولا اهلكت الريح عاداً الا لتوسع كان منهم فهو يخشى العقاب على الانفاق ويرجو الثواب على الاقتار ويعد نفسه خاسراً او يعدها الفقر ويأمرها بالبخل خيفة ان تمر به قوارع الدهر وان يصيبه ما اصاب القرون الاولى، فأقم رحمك الله مكانك واصطبر على عسرك عسى الله ان يبدلنا واياك خيراً منه زكاة واقرب رحماً .

ولبعض الكتاب : اما بعد فان كثير المواعيد من غير نجح عار على المطلوب اليه وقلتها مع نجح الحاجة مكرمة من صاحبها ، وقد رددتنا في حاجتنا هذه في كثرة مواعيدك من غير نجح لها حتى كأنا قد رضينا بالتعلل لها دون النجاح كقول القائل :

لا تجعلنّا ككمّون بمزرعة إن فاته الماء اروته المواعيدُ

وكتب آخر : ما رأيت طيب قولك اسره سوء فملك ولا مثل بسط وجهك خالفه طول تنكيدك ولا مثل قرب عدتك باعدها افراط مطلك ولا مثل انس مذاهبك اوحش منه اختيار عواقبك حتى كأن الدهر أودعك لطيف الحيلة بالمكر بأهل الحلة ، وكأن زيّنك فيه بالخديعة لتدرك منهم فرصة الهلكة . وقد قيل : وعد الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتأجيل. وقال بعضهم : وعدتنا مواعيد عرقوب ومطلتنا مطل نعاس الكلب ، وغررتنا غرور السراب،

ومنيتنا اماني الكمون . ولبعضهم : اما بعد فلا تدعني مقلقاً بوعدك فالمذر الجميل احسن من المطل الطويل، فان كنت تريد الانعام فأنجح وان تعذرت الحاجة فأوضح، واعلمني ذلك لأصرف وجه الطلب الى غيرك . وذكروا ان فتى من مراد كان يختلف الى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم : انك امرأة ؟ قال : لا . قال : فتزوج وعليّ المهر ، فرجع الى امه فأخبرها الخبر فقالت :

اذا حدّثتكَ النفس انك قادرٌ   على ما حوت ايدي الرجال فكذّبِ

فتزوج واتى عمرو بن العاص فاعتل عليه ولم ينجز وعده فشكا ذلك الى امه فقالت :

لا تغضبنّ على امرىءٍ في ماله   وعلى كرائم حُرٌّ مالك فاغضبِ

ووصف اعرابي رجلاً فقال له : بشر مطمع ومطل مؤيس وكنت منه ابداً بين الطمع واليأس لا بذل سريع ولا مطل مريح ، وقال اعرابي : انا من فلان في اماني تهبط العصم وخلف يذكر العدم ولست بالحريص الذي اذا وعـــده الكذوب علق نفسه لديه واتعب راحته اليه ، وذكر اعرابي رجلاً فقال له : مواعيد عواقبها المطل وثمارها الخلف ومحصولها اليأس ، ويقال : سرعة اليأس احد النجحين ، وقال بعضهم : مواعيد فلان مواعيد عرقوب ، ولمع الآل، وبرق الخلب ، واماني الكون، ونار الحباحب ، وصلف تحت الراعدة ، ومما قيل في ذلك :

اروح واغدو نحوكم في حوائجي   فاصبح فيها غَدْوةً كالذي امسي
وقد كنت ارجو للصديق شفاعتي   فقد صرتُ ارضى ان اشفّع في نفسي

ولأبي النواس :

وعدتني وعدَك حتى اذا   اطمعتني في كنز قارونِ
جئت من الليل بغسالة   تغسل ما قلتَ بصابونِ

ولأبي تمام :

يحتـــاج من يرتجي نوالكم   الى ثلاثٍ من غير تكذيبِ
كنوز قارون ان تكون له   وعُمْرِ نوحٍ وصَبْرِ ايوبِ

وقال آخر :

إني رأيتُ من المكارم حسبُكم   ان تلبسوا خز الثياب وتشبَعوا

وقال حسان بن ثابت :

إني لأعجب من قول غرِرْتَ به ... حُلوٍ يُمَدُّ اليه السمع والبصرُ
لو تسمع العصم من صُمِّ الجبال به ... ظَلَّتْ من الراسيات العُصمُ تنحدِرُ
كالخمر والشهد يجري فوق ظاهره ... وما لباطنهِ طعمٌ ولا خَبرُ
وكالسراب شبيهاً بالغدير وان ... تبغ ِالسراب فلا عينٌ ولا قطَرُ
لا ينبُتُ العُشبُ عن برقٍ وراعدةٍ ... غراء ليس لها سيْلٌ ولا مطرُ

وقال آخر :

رأيت ابا عثمان يبذل عِرْضهُ ... وخبز ابي عثمان في أحرز الحرزِ
يحنّ الى جاراته بعد شبعه ... وجاراته غرثى تحنُّ الى الخُبزِ

وقال آخر :

ما كنتُ احسب أن الخبز فاكهة ... حتى نزلت على ارض بن منصورِ
الحابس الرَوثَ في اعفاج بغلته ... خوفاً على الحبِّ من لقط العصافيرِ

وقال آخر :

نوالك دونـــه خرط القيادِ ... وخبزك كالثُّريا في البعــادِ
ترى الاصلاح صوفك لا لنُسكٍ ... وكسر الخبز من عمل الفسادِ
ارى عمر الرغيف يطول جداً ... لديك كأنه من قوم ٍعادِ

وقال آخر :

اللؤم منك على الطعام طباعُ ... فعيالُ بيتك ما حييتَ جياعُ
واذا يَمُرُّ بباب دارك سائلٌ ... حَمَلَتْ عليه نوابح وسباعُ
وعلى رغيفك حيّة مسمومة ... وعلى خُوانِك عقرب وشجاعُ

وقال آخر :

يا تاركَ البيت على الضَّيف وهارباً عنه من الخــوف
طيفك قد جــاء بخبزٍ له فارجع وكن ضيفاً على الضيفِ
اذا اشتهى الضيف طبيخَ الشّتا اتاه بالشهوة في الصيــفِ
وإن دنا المسكين من بابهِ شدَّ على المسكين بالسّيفِ

وقال آخر :

رأى ضيفُك بالدارِ وكربُ الجوع يَغشاهُ
على خبزك مكتوباً سيكفيكهم اللهُ

وقال آخر :

لابي نوحٍ رغيفٌ ابدا في حجرِ دايَه
ابدا يمسحُه الدهر بكمٍّ ووقــايه
وله كاتب سرٍ خــط فيه بعنايه
فسيكفيكهم الله الى آخر ألآيه

وقال آخر :

الخبز يبطي حين يدعو به كأنــه يَقدُم من قافِ
ويمدح الملح لاصحابه يقول هذا ملح سيرافِ
سيان أكل الخبز في داره وقلــعُ عينيه بخُطّافِ

وقال آخر :

فتىً لا يغارُ على عِرْسهِ ولكن يغار على خبزه
فمنه يَدُ الجودِ مقبوضةٌ وكف السماحة في عجزه

وقال آخر :

يصونون اثوابهم في التخوت وازواجهم بَذْلَةٌ في السكك

يُنَحُّون من رامَ رغفانهم ويدنون من رامَ حلَّ التكك

وقال آخر :

اما الرغيفُ على الخوا ن فمن حَمامات الحرَمْ

ما ان يُجسُ ولا يُمَسُّ ولا يذاق ولا يُشَمْ

فتراه اخضرَ بابسا بالي النقوش من الهرمْ

وقال آخر :

أتينا أبا طاهر مُفطرينَ الى داره فرجعنا صياما

وجاء بخبزٍ له حامضٍ فقلت دَعُوهُ ومُوتوا كِراما

وقال آخر :

يبخَلُ بالماء ولو أنّه منغمسٌ في وسَطِ النيلِ

شُحّاً فلا تطمعُ في خبزِهِ ولو تشفعْتَ بجبريلِ

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال : قال الرشيد : ما لأحد من المولودين ما لأبي النواس في الهجاء :

وما روّحتنا لِتَذُبَّ عنا ولكن خِفْتَ مَرزِئَةَ الذُّبابِ

شرابك كالسّراب اذا التقينا وخبزك عند منقطع الترابِ

وقال آخر :

خان عهدي عمروٌ وما خُنتُ عهده وجفاني وما تغيرت بعده

ليس لي ما حييت ذنب اليه غير اني يوماً تغذيت عنده

وقال الخليل بن احمد العروضي الازدي :

فكفّاه لم تُخلقا للندى ولم يكُ بخلهما بِدْعه

فكف على الخبز مقبوضةٌ　　كما نقضت مـــائةٌ تسعَه
وكفٌّ ثـــلاثة آلافها　　وتسع مِئيها لها شِرْعَه

وقال ابن ابي البغل :

وكل من أجتديه في بلدٍ　　أروم مما لديه في صفدِ
يعقِدُ لي باليسار أربعةً　　منقوصة تسعةً الى العددِ

وقال آخر :

أتيت أبا عمـــرو أرجّي نواله　　فزاد ابو عمرو على حزني حزنا
فكنت كباغي القرن أسلَمَ أُذنه　　فآب بلا أذن ولم يستفد قرنا

محاسن الشجاعة

قيل : كان باليمامة رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك ، وكان لسناً فاتكاً شجاعاً شاعراً ، وكان قد أبر على اهل هجر وناحيتها ، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب الى عامل اليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به ، ويأمره بالتجرد في طلبه حتى يظفر به ، فبعث العامل الى فتية من بني يربوع بن حنظلة ، فجعل لهم جعلاً عظيماً ان هم قتلوا جحدراً او أتوه به أســـيراً ، ووعدهم ان يوفدهم الى الحجاج ويسني فرائضهم ، فخرج الفتية في طلبه حتى اذا كانوا قريباً منه بعثوا اليه رجلاً منهم يريه انهم يريدون الانقطاع اليه والتحرم به ، فوثق بهم واطمأن اليهم ، فبينما هم على ذلك اذ شدوه وثاقاً وقدموا به الى العامل ، فبعث به معهم الى الحجـــاج وكتب يثني على الفتية . فلما قدموا على الحجاج قال له : انت جحدر ؟ قال : نعم . قال : ما حملك على ما بلغني عنك ؟ قـــال : جرأة الجنان ، وجفوة السلطان ، وكلب الزمـــان ، قال : وما الذي بلغ من امرك فيجترىء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكلب زمانك ؟ قال : لو بـــلاني الامير لوجدني من صالحي الاعوان ، وبهم الفرسان وممن اوفى على اهل الزمان . قال الحجاج : إنا قاذفوك في قبة فيها اسد فان قتلك كفانا مؤونتك ، وان قتلته خليناك ووصلناك ، قال : قد أعطيت أصلحك الله الامنية وأعظمت المنة وقربت المحنة . فأمر به فاستوثق منه بالحديد وألقي في السجن ، وكتب الى عامله بكسكر يأمره ان يصيد له اسداً ضارياً ، فلم يلبث العامل ان بعث اليه بأسد ضاريات قد أبرت على أهل تلك الناحية ، ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم ،

فجعل منها واحداً في تابوت يجر على عجلة ، فلما قدموا به على الحجاج أمر فألقى في حيّز وأجيع ثلاثا ، ثم بعث الى جحدر فأخرج وأعطي سيفاً ودلي عليه فمشى الى الاسد وأنشأ يقول:

ليثٌ وليثٌ في مكانٍ ضنكِ　　كِلاهما ذو أنفٍ ومَحْكِ
وصَولةٍ في بطشةٍ وفتكِ　　إن يكشف الله قناعَ الشكِّ
وظفراً بجؤجؤٍ وبَركِ　　فهو أحقُّ منزِلٍ بتركِ
الذئبُ يعوي والغُرابُ يبكي

حتى اذا كان منه على قدر رمح تمطى الاسد وزأر وحمل عليه فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الاسد كأنه خيمة قوضتها الريح ، فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الاسد عليه، فكبر الناس فقال الحجاج: يا جحدر ان احببت ان ألحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت بك ، وان أحببت ان تقيم عندنا أقمت فأسنينا فريضتك ، قال : اختار صحبة الامير ، ففرض له ولجماعة اهل بيته وأنشأ جحدر يقول :

يا جُمْلُ انكِ لو رأيت بسالتي　　في يوم هيجٍ مُرْدِفٍ وعجاجِ
وتقدُّمي لِلَيثِ ارسُفُ نحوه　　حتى اكابده على الاحراج
جَهمٌ كأن جبينَهُ لما بدا　　طَبَقُ الرَّحى متفجرُ الاثباج
يرنو بناظرتين تحسب فيهما　　من ظن خالهما شعاعُ سراجِ
شَثْنٌ براثِنه كأن نيوبه　　زرق المعاول او شذاة زجاج
وكأنما خيطن عليه عباءة　　برقاء او خَلَقٌ من الديباج
قرنان محتضران قد رَبّتهما　　ام المنية غير ذات نتاج
وعلمت إني ان ابيتُ نزاله　　اني من الحجاج لستُ بناج
فمشيت ارسف في الحديد مكبلا　　بالموت نفسي عند ذاك اناجي
والناس منهم شامت وعصابةٌ　　عبراتهم لي بالحلوق شواجي

ففلقت هامته فخرَّ مكانه أُطمٌ تقوضَ مائل الابراج

ثم انثنيتُ وفي قميصي شاهدٌ مما جرى من شاخِب الاوداج

ايقنت اني ذو حفاظٍ ماجدٌ من نسلِ املاكِ ذوي اتواج

فلئن قُذِفت الى المنيَّة عامداً اني لخيرِكِ بعد ذلك راجي

علم النِّساء بانني لا انثني اذ لا يثقْنَ بغيره الازواج

وحكى عن الطفيل بن عامر العمري قال : خرجت ذات يوم أريد الغار ، وكنت رجلاً أحب الوحدة ، فبينا انا أسير اذ ضللت الطريق الذي أردته ، فسرت أياماً لا أدري اين أتوجه حتى نفد زادي ، فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة ، فبينا انا أسير اذ أبصرت قطيع غنم في ناحية من الطريق فملت اليها ، واذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان ، فقال لي : يابن العم اين تريد ؟ فقلت : أردت حاجة لي من بعض المدن وما ظني الا قد ضللت الطريق، فقال : أجل ! ان بينك وبين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك ، فنزلت فرمى لفرسي حشيشاً وجاء إليّ بثريد كثير ولبن ، ثم قام الى كبش فذبحه وأجج ناراً وجعل يكبب لي ويطعمني حتى اكتفيت ، فلما جننا الليل قام وفرش لي وقال: قم فارم بنفسك فان النوم اذهب لتعبك وارجع لنفسك ، فقمت ووضعت رأسي ، فبينا انا نائم اذ اقبلت جارية لم ترَ عيناي مثلها قط حسناً وجمالاً ، فقصدت الى الفتى وجعل كل واحد منهما يشكو الى صاحبه ما يلقى من الوجد به ، فامتنع علي النوم لحسن حديثهما فلما كان في وقت السحر قامت الى منزلها ، فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له : ممن الرجل ؟ قال: انا فلان بن فلان ، فانتسب لي معرفته فقلت له : ويحك ! ان أباك لسيد قومه ، فما حملك وضعك نفسك في هذا المكان ؟ فقال : انا والله اخبرك ، كنت عاشقاً لابنة عمي هذه التي رأيتها وكانت هي ايضاً لي وامقة ، فشاع خبرنا في الناس ، فأتيت عمي فسألته ان يزوجنيها . فقال : يا بني ، والله ما سألت شططاً ، وما هي بآثر عندي منك ، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء وعمك يكره المقالة القبيحة ، ولكن انظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك ، فقلت : لا حاجة لي فيما ذكرت وتحملت عليه بجماعة من قومي فردهم وزوجها رجلاً من ثقيف له رياسة وقدر فحملها الى ههنا — وأشار الى خيم كثيرة بالقرب منا — فضاقت علي الدنيا برحبها وخرجت في أثرها فلما رأتني فرحت فرحاً شديداً وقلت لها : لا تخبري احداً اني منك بسبيل ثم أتيت زوجها وقلت :

انا رجل من الازد اصبت دماً وانا خائف ، وقد قصدتك لما اعرف من رغبتك في اصطناع المعروف ولي بصر بالغنم ان رأيت ان تعطيني من غنمك شيئاً فأكون من جـــوارك وكنفك فأفعل . قال : نعم وكرامة ، فأعطاني مائة شاة وقال لي : لا تبعد بها من الحي ، وكانت ابنة عمي تخرج اليّ كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف ، فلما رأى حسن حال الغنم أعطاني هذه فرضيت من الدنيا بما ترى . قال : فأقمت عنده اياماً ، فبَينا انا نائم اذ نبهني وقال : يا أخا بني عامر ، قلت له : ما شأنك ؟ قال : ان ابنة عمي قد ابطأت ولم تكن هذه عادتها ووالله ما أظن ذلك الا لأمر حادث فحدثني فجملت أحدثه ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَيّة لا تأتي كعادتها — هل هاجها طرب اوصدها شغلُ

لكن قلبيَ لا يعنيه غيركم — حتى الممات ولا لي غيركُمْ املُ

لو تعلمين الذي بي من فراقكم — لما اعتذرت ولا طابت لكِ العللُ

نفسي فداؤكِ قد احللتِ بي حُرقاً — تكاد من حَرّها الاحشاء تفصلُ

لو كان عادية منه على جَبَلٍ — لزَلّ وانهدّ من اركانه الجبلُ

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح وقام ومر نحو الحي فأبطأ عني ساعة ثم أقبل ومعه شيء وجعل يبكي عليه ، فقلت له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنة عمي افترسها السبع فأكل بعضها ووضعها بالقرب مني فأوجع والله قلبي ، ثم تناول سيفه ومرّ نحو الحي فأبطأ هنيهة ثم أقبل إليّ وعلى عاتقه ليث كأنه حمار فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبي ، قلت : وكيف علمته ؟ قال : اني قصدت الموضع الذي اصابها فيه وعلمت انه سيعود الى ما فضل منها ، فجاء قاصداً الى ذلك الموضع فعلمت انه هو فحملت عليه فقتلته ، ثم قام فحفر في الارض فأمعن وأخرج ثوباً جديداً وقال : يا اخا بني عامر اذا انا مت فادرجني معها في هذا الثوب ، ثم ضعنا في هذه الحفرة وهل التراب واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كنا على ظهرها والعيش في مهل — والدهر يجمعنا والدار والوطنُ

فخاننا الدهر في تفريق الفتنا — واليوم يجمعنا في بطنها الكفنُ

ثم التفت الى الاسد وقال :

ألا أيها الليث المُدِلُّ بنفسه — هُبلْتَ لقد جَرّت يداك لنا حزنا

وغادرتني فرداً وقد كنت آلفاً وصيّرت آفاق البلاد لنا سجنا
أأصحبُ دهراً خانني بفراقها معاذ إلهي ان اكون له خِدْنا

ثم قال : يا اخا بني عامر اذا فرغت من شأننا فصح في ادبار هذه الغنم ، فردها الى صاحبها ثم قام الى شجرة فاختنق حتى مات ، فقمت فادرجتها في ذلك الثوب ووضعتها في تلك الحفرة وكتبت البيتين على قبرهما ، ورددت الغنم الى صاحبها ، وسألني القوم فأخبرتهم الخبر ، فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرن عليه تعظيماً له ، فخرجوا واخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا الينا فنحرت ثلثمائة ناقة ثم انصرفنا

وقيل لما كان من امر عبد الرحمن من الأشعث الكندي ما كان ، قال الحجاج اطلبوا لي شهاب بن حرقة السعدي في الاسرى او القتلى فوجدوه في الاسرى فلما أدخل على الحجاج قال له : من انت ؟ قال : انا شهاب بن حرقة ، قال : والله لأقتلنك ، قال : ما كان الامير بالذي يقتلني . قال : ولِمَ ؟ قال : لأن فيّ خصالاً يرغب فيهن الامير . قال : وما هن ؟ قال : ضروب بالصفيحة ، هزوم للكثيرة من الكتيبة ، أحمي الجار وأذب عن الذمار وأجود على العسر من اليسر غير بطيء عن النصر . قال الحجاج : ما أحسن هذه الخصال فاخبرني بأشد شيء مرّ عليك ، قال : نعم أصلح الله الامير

« بينا انا أسير ، ومركبي وثير ، في عصبة من قومي ، في ليلتي ويومي ، يمضون كالآجادل ، في الحرب كالبواسل ، انا المصاع فيهمُ ، في كل ما يليهمُ ، فسرت خمساً عوماً ، وبعد خمس يوماً ، حتى وردت أرضاً ، ما ان ترام عرضاً ، من بلد البحرين ، عند طلوع المين ، فهجتهم نهارا ، التمس المغارا ، حتى اذا كان السحر ، من بعد ما غاب القمر ، اذا انا بعير ، يقودها خفير ، موقرة متاعاً ، مقبلة سراعاً ، فصلت بالسنان ، مع سادة فتيان ، فسقتها جميعاً ، أحثها سريعاً ، اريد رجع عالج ، أمعج بالمناجج ، أسير في الليالي ، خرقاً بعيداً خالي ، وقد لقينا تعباً ، وبعد ذاك نصباً ، حتى اذا هبطنا ، من بعد ما صعدنا ، عنت لنا بيدانه ، قد كان فيها عانه ، رميتها بقوسي ، في مهمه كالترس ، حتى اذا ما أممنت ، بالقفز ثم درمت ، وردت قصراً منهلا ، في جوفه طام حالاً ، وعنده خبيمة ، في جوفهـــا نعيمة ، غزيرة كالشمس ، فاقت جميع الانس ، فعجت مهري عندها ، حتى وقفت معها ، حييت ثم ردت ، في لطف وحيت ، فقلت بالعروب ، والطفلة العروب ، هـــل عندكم قراء ، اذ نحن بالعراء ، قالت نعم برحب ، في لطف وقرب ، اربع هنا عتيداً ، ولا تكن بعيداً ، حتى يجئك عامر ، مثل الهلال زاهر ، فعجت عن قريب ، في باطن الكثيب ، حتى رأيت عامراً ، يحمل ليثاً خادراً ، على عتيق سابح ، كمثل عود اللامح .

قال : وكان الحجاج متكئاً فاستوى جالساً ثم قال : ويحك دعنا من السجع والرجز وخذ في الحديث، قال : نعم ايها الامير ثم نزل فربط فرسه وجمع حجارة وأوقد عليه ناراً وشق عن بطن الاسد وألقى مرافه في النار فجعلت ، اصلح الله الامير ، اسمع للحم الاسد نشيشاً فقالت له نعيمة : قد جاءنا ضيف وانت في الصيد ، قال : فما فعل ؟ قالت : ها هو ذاك بظهر الكثيب والخيمة ، فأومأت الي ، فأتيتها ، فاذا انا بغلام امرد كأن وجهه دارة القمر فربط فرسي الى جنب فرسه ودعاني الى طعامه فلم أمتنع عن أكل لحم الاسد لشدة الجوع ، فأكلت انا ونعيمة منه بعضه وأتى الغلام على آخره ، ثم قام الى زق فيه خمر فشرب ، ثم سقاني فشربت ثم شرب الغلام حتى أتى على آخره ، فبينا نحن كذلك اذ سمعت وقع حوافر خيـــل أصحابي فقمت وركبت فرسي وتناولت رمحي وصرت معهم ثم قلت : يا غلام خل عن الجارية ولك ما سواها فقال : ويلك احفظ المالحة ، قلت : لا بدّ من الجارية وفارس ، فالتفت اليها وقال لها : قفي ، ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ والا فارس وفارس فبرز اليه رجل من أصحابي فقال له الغلام : من انت ؟ فلست أقاتل من لا اعرفه ولا أقاتل الا كفوءاً أعرفه ، فقال : أنا عاصم بن كلبة السعدي ، فشد عليه وأنشد يقول :

انك يا عاصم بي لجاهل اذ رُمتَ امرأً أنت عنه ناكلْ
اني كَمِيٌّ في الحروب باسل ليث اذا اصطك الليوثُ بازِلْ
ضرّاب هامات العـــدى منازل قتّال اقرانِ الوغى مقاتِـــلْ

ثم طعنه فقتله . وقال : يا فتيان ، هل لكم في العافية ؟ والا فارس وفارس ، فتقدم اليه آخر من أصحابي فقال له الغلام : من أنت ؟ فقال : أنا صابر بن حرقة . فشد عليه وأنشأ يقول :

انـــك والإله لَسْت صابرا على سنانٍ يجلب المقادرا
ومنصل مثـــل الشهاب باترا في كف قِرمٍ يَمْنعُ الحرائرا
اني اذا رُمـــت امرأً فآسرا يكون قرني في الحروب باترا

ثم طعنه فقتله . ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ والا فارس لفارس فلما رأيت ذلك هالني امره واشفقت على اصحابي فقلت: احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك انشأ يقول:

الآن طاب الموت ثم طـــابا اذ تطلبون رخصة كعابا
ولا نريـــــد بعدها عتابا

فركبت نعيمة فرسها واخذت رمحها فما زال يجالدنا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلاً فاشفقت على اصحابي فقلت : يا غلام قد قبلنا العافية والسلامة . فقال : ما كان احسن هذا لو كان اولاً ونزلنا وسالمنا . ثم قلت : يا عامر بحق المهالحة من انت؟ قال: انا عامر بن حرقة الطائي وهذه ابنة عمي ونحن في هذه البرية منذ زمان ودهر ما مر بنا إنسي غيركم ، فقلت : من اين طعامكم ؟ قال : حشرات الطير والوحش والسباع . قلت : فمن اين شرابكم ؟ قال : الخمر اجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة او مرتين . قلت : ان معي مائة من الابل موقرة متاعاً فخذ منها حاجتك . فقال : لا ارب لي فيها ولو اردت ذلك لكنت اقدر عليه فارتحلنا عنه منصرفين . فقال الحجاج : الآن يا عدو الله طاب قتلك لغدرك بالفتى . قال : كان خروجي على الامير اصلحه الله اعظم من ذلك فان عفا عني الامير رجوت ان لا يؤاخذني بغيره فأطلقه ووصله ورده الى بلده .

وضده ، قال : دخل ابو زبيد الطائي على عثمان بن عفان في خلافته ، وكان نصرانياً فقال له : بلغني انك تجيد وصف الاسد . فقال له : لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مخبراً لا يزال ذكره يتجدد على قلبي . قال : هات ما مرّ على رأسك منه . قال : خرجت يا أمير المؤمنين في صيابة ، من افناء قبائـــل العرب ذوي شارة حسنة ترتمي بنا المهاري بأكسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل نريد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام ، فاخروط بنا المسير في حمارة القيظ حتى اذا عصبت الافواه وذبلت الشفاه وشالت المياه واذكت الجوزاء المعزاء وذاب الصيخد وصر الجندب وضايق العصفور الضبّ في وجاره قال قائلنا : ايها الركب غوروا بنا في دوح هذا الوادي فاذا واد كثير الدغل دائم الغلل شجراؤه مغنـــة وأطياره مرنة ، فحططنا رحالنا باصول دوحات كنهبلات فأصبنا من فصلات المزاود وأتبعناها بالماء البارد ، فأنا لنصف حر يومنا ومماطلته اذ صر أقصى الخيل أذنيه وفحص الارض بيده ، ثم ما لبث ان جال فحمحم وبال فهمهم ثم فعل فعله الذي يليه واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكمكمت الابل وتقهقرت البغال ، فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا ان قد أتينا وانه السبع لا شك فيه ففزع كل امرىء منا الى سيفه واستله من جربانه ، ثم وقفنا له رزدقاً فأقبل يتطالع في مشيته كأنه مجنوب او في هجار لصدره نحيط وليلاً غيمه غطيـــط ولطرفه وميض ولارساغه نقيض كأنما يخبط هشيماً او يطأ صريماً ، واذا هامـــة كالمجن وخد كالمسن وعينان سجراوان كأنهما سراجان يقدان وقصرة ربلة ولهذمة رهلة وكتد مغبط وزور مفرط

وساعد مجدول وعضد مفتول وكف" ششنة البراسن الى مخالب كالمحاجن ثم ضرب بذنبه فأرهج وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفـلولة وفم أشدق كالغار الاخرق ثم تمطى فأسرع بيديه وحفر وركيه برجليه حتى صار ظله مثليه ، ثم اقعى فاقشعر ، ثم مثل فاكفهر ، ثم تجهم فازبأر، فلا والذي بيته في السماء ما أتقيناه بأول من أخ لنا من بني فزارة كان ضخم الجزارة فوهصه ثم أقعصه فقضقض متنه وبقر بطنه ، فجعل يلغ في دمه فذمرت اصحابي فبعد لأي" ما استقدموا فكر مقشعر الزبرة كأن به شيهماً حولياً فاختلج من دوني رجلا اعجر ذا حوايا فنفضة نفضه فتزايلت أوصاله وانقطعت اوداجه ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ثم لحظ ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه ، فارتعشت الايدي واصطكت الارجل وأطت الاضلاع وارتجت الاسماع وحملجت العيون وانخزلت المتون ولحقت الظهور البطون ثم ساءت الظنون وأنشأ (يقول) :

عبوسٌ شموسٌ ، مُصَلْخَدٌ خُنايسُ جريءٌ على الارواح للقِرْنِ قاهرُ

منيــعٌ ويحمي كل وادٍ يرومه شديد أصول المــاضغين مُكابرُ

براثنهُ شَثنُ وعيناه في الدجى كجمر الغضا في وجهِ الشر ظاهرُ

يدل بأنياب حــدادٍ كأنها إذا قلَّصَ الاشداق عنها خناجرُ،

فقال عثمان : اكفف لا أم لك ، فلقد ارعبت قلوب المسلمين ولقد وصفته حتى كأني انظر اليه يريد يواثبني . وقيل في المثل : وهو اجبن من هجرس — وهو القرد — وذلك لانه لا ينام الا وفي يده حجر مخافة ان يأكله الذئب . وحدثنا رجل بمكة قال : اذا كان الليل رأيت القرود تجتمع في موضع واحد ثم تبيت مستطيلة واحداً في اثر واحد في يد كل واحد منهم حجر لئلا ترقد فيأتيها الذئب فيأكلهـا وان نام واحد وسقط الحجر من يده خرج فتحرك الآخر فصار قدامه فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت من الموضع الذي باتت فيه على ثلاثة اميال او اكثر جبناً . وقيل : هو اجبن من صافر وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من ان ينام فيؤخذ . وقيل أيضاً : هو اجبن من المنزوف ضرطاً . وكان من حديثه ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام الى الضحى فاذا انتبه ضربنه وقلن له قم فاصطبح ويقول: لو لعادية نبهتنـّني — اي خيل عادية عليكن مغيرة فادخلها عنكن — فلما رأين ذلك فرحن وقلن : ان صاحبنا لشجاع ثم اقبلن عليه وقلن : تعالين نجربه فأتينه كما كن يأتينه فأيقظنه فقال : لو لعادية نبهتنني فقلن له: نواصي الخيل معك ، فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط حتى مات فضرب به المثل .

وقيل لجبان : انهزمت فغضب الامير عليك ، قال : ليغضب الامير وانا حي احب الي من ان يرضى وانا ميت . وقيل لبعض الجبان : ما لك لا تغزو ؟ قال : والله اني لابغض الموت على فراشي فكيف امر اليه ركضاً ؟ قال : وقال الحجاج لحميد الارقط وقد انشده قصيدة يصف فيها الحرب : يا حميد هل قاتلت قط ؟ قال : لا ايها الامير الا في النوم . قال : وكيف كانت وقعتك ؟ قال : انتبهت وانا منهزم . ومما قيل في ذلك من الشعر :

ظلت تشجعني هنـــد بتضليل ۝ وللشجاعة خطبٌ غير مجهولِ
هاتي شجاعاً لغير القتل مصرعه ۝ أوجدْكِ الف جبان غير مقتولِ
الحرب توسع من يصلى بها حربا ۝ يُتْمَ العيال وإثكالَ المثاكيلِ
اسم الوغى اشتق من غوغاء يحربُها ۝ يغدون للموت كالطير الابابيلِ
والله لو أن جبريلاً تكَفّل لي ۝ بالنصر ما خاطرت نفسي لجبريلِ
هل غير ان يعذروني انني فَشِلٌ ۝ فكل هذا نعَمْ فاغروا بتعزيلي
إن أعتذر من فراري في الوغى ابداً ۝ كان اعتذاري رديداً غير مقبولِ
اسمع اخبرك عن بأسي بذي سلب ۝ خلاف بأس المساعير البهاليلِ
لما بدت منهمُ نحوي عشوزنة ۝ شَماء تشرع في عَرضي وفي طولي
فقلت وَيْحكم لا ترهبوا جَلَدي ۝ رمحي كسيرٌ وسيفي غير مصقولِ
لما اتقيتهم طوعاً بذات يـــدِ ۝ وانصعت اطوي الفلا ميلاً الى ميلِ
الله خلصني منهـــم وفلسفتي ۝ حتى تخلصت مخضوب السراويلِ

وقال آخر :

اضحت تشجعني هندٌ فقلت لها ۝ إن الشجاعة مقرون بها العطبُ
لا والذي قبحّتِ الانظار كعبتَه ۝ ما يشتهي الموت عندي من له ارب
للحرب قوم اضلّ الله سعيهم ۝ اذا دعتهم الى حوماتها وثبوا
ولست منهم ولا اهوى فعالهم ۝ لا القتل يعجبني منهم ولا السلبُ

وقال آخر :

يقول لي الأمير بغـير جُرمٍ تقدَّم حين حل بنا المراسُ
فما لي ان اطعتُك في حياة ولا لي غير هذا الراسِ راسُ

محاسن حب الوطن

قال عمر بن الخطاب : لولا حب الوطن لخرب بلد السوء. وكان يقال: بحب الاوطان عمرت البلدان ، وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضه كما تتروح الارض الجدبة ببل المطر . وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير ارضه كأن الطبيعة تنزع الى غذائها ، ومما يؤكد ذلك قول اعرابي وقد مرض بالحضر فقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : مخيضاً روباً وضباً مشوياً ، وقد قيل : احق البلدان بنزاعك اليها بلد أمصتك حلب رضاعه ، وقيل : احفظ ارضاً ارسخك رضاعها ، واصلحك غذاؤها ، وارع حمى اكتنفك فناؤه . وقيل : لا تشكُ بـلداً فيه قبائلك . وقيل : من عـلامة الرشد أن تكون النفسُ الى اوطانها مشتاقة والى مولدها تواقة . وحدثنا بعض بني هاشم قال : قلت لاعرابي: من اين اقبلت ؟ قال : من هذه البادية، قلت: واين تسكن منها ؟ قال : مساقط الحمى حمى ضرية ما ان لعمر الله اريد بها بدلاً ولا ابتغي عنها حولاً حفتها الفلوات فلا يملولح ماؤها وتحمى تربتها ليس فيها اذى ولا قذى ولا وعك ولا لوم ونحن بارفه عيش وأوسع معيشة واسبغ نعمة . قلت : ما طعامكم ؟ قال : بخ بخ الهبيد والضباب واليرابيع مع القنافذ والحيات وربما والله اكلنا القد واشتوينا الجلد فلا نعلم احداً اخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعة .

وقيل لاعرابي : كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال : وهل العيش الا ذاك ؟ يمشي احدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايوان كسرى .

وقال بعض الحكماء: عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك. وقيل لاعرابي : ما الغبطة؟ قال : الكفاية ولزوم الاوطان والجلوس مـع الاخوان ، وقيل : فما الذل ؟ قال : التنقل في البلدان والتنحي عن الاوطان . وقال بعض الادباء : الغربة ذلة والذلة قلة ، وقال الآخر : لا تنهض عن وطنك ووكرك فتنقصك الغربة وتصمتك الوحدة . وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل ابويه فلا أم ترأمه ولا أب يحدب عليه . وكان يقال : الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالفرس الذي زايل ارضه وفقد شربه فهو ذاوٍ لا يثمر وذابل لا ينضر . وكان يقال : الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشر عن موضعه الذي هو لكل رام رمية ، واحسن من ذلك

واصدق قول الله عز وجل : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء» . وقال تعالى : « ولو أنما كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليلٌ منهم » فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل، وقال تقدست اسماؤه : «وما لنا الا ان نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا » ، فجعل القتال بازاء الجلاء ، قال ﷺ : « الخروج عن الوطن عقوبة » ومما قيل في ذلك من الشعر :

اذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي — واضحى فؤادي نهبــة للهماهمِ
حنينا الى ارض بها اخضرّ شاربي — وحلت بهــا عني عقود التمائم
والطف قومٍ بالفتى اهــل ارضه — وارعاهم للمرء حــقّ التقادمِ

وقال آخر :

أحن الى ارض الحجاز وحاجتي — خيام بنجد دونها الطرف يقصرُ
وما نظري من نحو نجد بنافعي — اجل لا ولكني على ذاك انظرُ
ففي كل يوم قطرة ثم عبرة — لعيشِك يجري ماؤها يتحدَّرُ
متى يسترح قلب فإمــا محاذرٌ — حزين واما نازحَ يتذكــرُ

وقال آخر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى — ما الحب الا للحبيب الاولِ
كم منزل في الاض يألفه الفتى — وحنينه ابــداً لأول منزلِ

وقال ابن ابي السرح : قرأت على حائط بيتي شعر ، وهما :

إن الغريب ولو يكون ببلدةٍ — يجبى اليه خراجها لغريبُ
وأقل ما يلقى الغريب من الاذى — ان يُستذل وان يقال كذوبُ

وقال : وقرأت على حائط بعسكر مكرم :

ان الغريب اذا ينادي موجعاً — عند الشدائد كان غــير مجابِ

فاذا نظرت الى الغريب فكن له   مترحماً لتباعـــد الاحباب

وقال : وقرأت على حائط ببغداد :

غريب الدار ليس له صديق   جميـــع سؤاله اين الطريقُ
تعلق بالسؤال لكل شيء   كما يتعلق الرجـــل الغريقُ
فلا تجزع فكل فتى سيأتي   على حالاتـــه سعة وضيقُ

وقال : ووجدت على حائط باب مكتوباً :

عليك سلام الله يا خير منزل   رحلنا وخلفناك غـــير ذميم
فإن تكن الايام فَرَّقْن بيننا   فما احـــد من ريبها بسليم

وقال آخر :

وان اغتراب المرء من غير حاجة   ولا فاقة يسمو لهـــا لعجيبُ
فحسب امريء ذلاً ولو ادرك الغنى   ونال ثراءً، انــ يقال غريبُ

وقال آخر :

ان الغريب وان يكن في غبطة   لمعذب وفـــؤاده محزونُ
ومتى يكون مع التغرب عاشقاً   ومفارقاً يا رب كيف يكونُ

وقال آخر :

ان الغريب ذليل اينما سلكا   لو انه ملك كلَّ الورى ملكا
اذا تغنى حمام الايك في غصن   حن الغريب الى اوطانه فبكى

وقال آخر :

سل الله الاياب مـــن المغيب   فكم قد رد مثلك من غريب
وسلِّ الحزن منك بحسن ظنٍ   ولا تيأس من الفرج القريب

وقال آخر :

تصبر ولا تعجل وُقيتَ من الردى لعل اياب الظاعنين قريبُ
فقلت وفي قلبي جوى لفراقها : الا لا تصبرّني فلست أجيبُ

وقال آخر :

اعاذل حبي للغريب سجية وكل غريب للغريب حبيبُ
لئن قلت لم اجزع من البين إن مضوا لطيّتهم اني إذاً لكذوبُ
بلى غُبّراتُ الشوق اضرمتِ الحشا ففاضت لها من مقلتيّ غروبُ

وقال آخر :

اذا اغترب الكريم رأى أموراً مجللة يشيب لها الوليدُ

وقال آخر :

ما كنت احسب ان يكو نُ كذا تَفَرّقُنا سريعا
بَخِل الزمان عليّ ان نبقى كما كنا جميعا
فأحلّني في بلدة وأحلّك البلد الشسيعا
قد كنت انتظر الوصال فصرت انتظر الرجوعا

وقال آخر :

نسيم الخزامى والرياح التي جرت بنجدٍ على نجد تذكرني نجدا
اتاني نسيم السّدر طيباً الى الحمى فذكرني نجداً فقطّعني وجْدا

وفي معناه (الدعاء للمسافر) بأيمن طالع واسر طائر ولا كبا بك مركب ولا اشت بك مذهب ولا تعذر عليك مطلب سهل الله لك السير وأنالك القصد وطوى لك البعد بمسرة الظفر وكرامة المدخر . على الطائر الميمون والكوكب السعد الى حيث تتقاصر ايدي الحوادث عنك وتتقاعس نوائب الايام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب . كان الله لك في سفرك خفيراً وفي حضرك ظهيراً بسعي نجيح وأوب سريح . بصرك الله محلك وهداك رحلك وسرّ بأوبتك

اهلك ولا زلت آمناً مقيماً وظاعناً باسعد جد وانجح مطلب واسر منقلب واكرم بدأة واحمد عاقبة . أشخص مصحوباً بالسلامة والكلاءة آئباً بالنجح والغبطة محوطاً فيما تطالعه بالعناية والشفقة في ودائع الله وكنفه وجواره وستره وامانه وحفظه وذمامه . وقال رجل للنبي ﷺ : اني اريد سفراً ، فقال : في كنف الله وستره زودك الله التقوى ووجهك الى الخير حيثما كنت استخلف الله فيك واستخلفه منك . وقال الشاعر :

في كنف الله وفي سترهِ   من ليس يخلو القلب من ذكره

وقال آخر :

إرحل ابا بشرٍ بأيمن طائرٍ   وعلى السعادة والسلامة فانزل

وضده ، قال بعض حكماء الفلاسفة : اطلبوا الرزق في البعد فانكم ان لم تكسبوا مالاً غنمتم عقلاً كثيراً ، وقال آخر : لا يألف الوطن الا ضيق المعطن . وقيل: لا توحشنك الغربة اذا آنستك النعمة . وقيل : الفقير في الاهل مصروم والغني في الغربة موصول . وقال : لا تستوحش من الغربة اذا أنست مصروماً . وقيل : اوحش قومك ما كان في إيحاشهم انسك واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك . وانشد :

لا يمنعنّك خفض العيش في دعة   نزوع نفس الى اهلٍ واوطانِ
تلقى بكل بلاد ان حللت بها   اهلاً بأهل وجيراناً بجيرانِ

وقال آخر :

نَبَتْ بك الدار فَسِر آمنا   فللفتى حيث انتهى دارُ

وفي معناه (الدعاء الى المسافر) بالبارح الاشأم والسانح الأعضب والصرد الانكد والسفر الأبعد . لا استمرت به مطيته ولا استتبت به أمنيته ولا تراخت منيته . بنحس مستمر وعيش مر . لا قرى اذا استضاف ولا أمن اذا خاف . ويقال ان علياً عليه السلام لما اتصل به مسير معاوية قال : لا أرشد الله قائده ولا أسعد رائده ولا أصاب غيثاً ولا سار الا ريثاً ولا رافق الا ليثاً أبعده الله واسحته وأوقد على أثره وأحرقه لا حط الله رحله ولا كشف محله ولا بشّر به أهله، لا زكى له مطلب ولا رحب له مذهب ولا يسر له مراماً لا فرج الله له غمه ولا سرى همه لا سقاه الله ماء ولا حل عقده ولا أروى زنده جمله الله سفر الفراق وعصى الشقاق وأنشد :

بأنكدِ طائر وبشرّ فَالِ لأبعـد غاية واخسّ حالِ
بحد السُّد حيث يكون مني كما بين الجنوب الى الشمالِ
غريباً تمتطي قدميك دهرا على خوف تحن الى العيالِ

وقال آخر :

اذا استقلت بك الركاب فحيث لا درّت السحابُ
وحيث لا تبتغي فلاحا وحيث لا يرتجى اياب
وحيث ما دُرْتَ فيه يوما قايلك الذئب والغراب

وقال آخر :

فسر بالنحُوس الى بلدةٍ تعمرّ فيها ولا ترزقُ
ولا تمرع الارهن من زهرة ولا يثمر الشجر المورق
تفيض البحار بها مرة ويكدى السحاب بها المغدق

وقال آخر :

ادنى خطاك الهند والصين وكل نحس بك مقرونُ
بحيث لا يأنس مستوحش وحيث لا يفرح محزون
تهوي بك الارض الى بلدة ليس بها حالة ولا طين

محاسن الدهاء والحيل

قال الهيثم بن الحسن بن عمار : قدم سنيح من خزاعة ايام المختار فنزل على عبد الرحمن بن ابان الخزاعي ، فلما رأى ما تصنع سوقة المختار من الاعظام جعل يقول : يا عباد الله ابا المختار يصنع هذا والله لقد رأيته يتتبع الاماء بالحجاز فبلغ ذلك المختار فدعا به وقال : ما هذا الذي بلغني عنك . قال : الباطل ، فأمر بضرب عنقه . فقال : لا والله لا تقدر على ذلك ، قال : ولمَ ؟ قال : اما دون ان انظر اليك وقد هدمت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقاتلة

وسبيت الذرية ثم تصلبني على شجرة على نهر والله اني لأعرف الشجرة الساعة وأعرف شاطىء ذلك النهر . فالتفت المختار الى أصحابه فقال لهم : ان الرجل قد عرف الشجرة فحبس حتى اذا كان الليل بعث اليه فقال : يا أخا خزاعة او مزاح عند القتل ؟ قال : انشدك الله ان أقتل ضياعاً ، قال : وما تطلب ههنا ؟ قال : اربعة آلاف درهم اقتضي بها ديني . قال : ادفعوها اليه واياك ان تصبح بالكوفة . فقبضها وخرج عنه .

وعنه قال سراقة البارقي من ظرفاء أهل الكوفة فأسره رجل من أصحاب المختار فأتى به المختار فقال له : أسرك هذا ؟ قال سراقة : كذب والله ما اسرني الا رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق . فقال المختار : الا ان الرجل قد عاين الملائكة ضلوا سبيله . فلما أفلت منه أنشأ يقول :

ألا ابلـــغ ابا اسحاق اني رأيت البلقَ دُهما مصمتاتِ
أري عينيَّ ما لم ترأياه كلانا عـــالمُ بالترهاتِ
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً عليّ قتالكم حتى المماتِ

وعنه قال : كان الأحوص بن جعفر المخزومي يتغذى في دير اللج في يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي، فلما كان على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخز وعليهما الاطمار قال حمزه لسراقة : أين يذهب بنا في البرد ونحن في اطمار ؟ قال : سأكفيكه . فبينما هو يسير اذ دنا منهم راكب مقبل فحرك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالاحوص ، فقال له : ما خبرك الراكب ؟ قال : زعم ان فوارج خرجت بالقطقطانة . قال : بعيد . قال : ان الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً وأكثر . وكان الاحوص احد الجبناء فثنى رأس دابته وقال : ردوا طعامنا نتغذّى في المنزل. فلما حاذى منزله قال لأصحابه : ادخلوا. ومضى الى خالد بن عبدالله القسري فقال : خرجت خارجة بالقطقطانة . فنادى خالد في العسكر فجمعهم ووجه خيلاً تركض نحو اللج لتعرف الخبر فاعلموه انه لا أصل للخبر . فقال للأحوص : من أعلمك بهذا ؟ قال : سراقة . قال : وأين هو ؟ قال : في منزلي ، فأرسل اليه من أتاه به . قال : انت اخبرته عن الخارجة ؟ قال : ما فعلت أصلح الله الامير ، قال له الأحوص : أتكذبني بين يدي الامير ، قال خالد : ويحك أصدقني . قال : نعم أخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن في اطمارنا هذه فأحببت ان أرده ، فقال له خالد : ويحك وهذا مما يتلاعب به ، وسراقة هذا هو القائل :

قالوا سراقة عِنّين فقلت لهم الله اعــلم اني غير عِنّين
فان ظننتم بي الشيء الذي زعموا فقربوني من بنت ابن ياسين

وذكروا : ان شبيب بن يزيد الخارجي مرّ بغلام مستنقع في الفرات فقال له : يا غــلام اخرج اني أسألك ، فعرفه الغلام فقال له : اني أخاف . أفآمن انا اذا خرجت حتى ألبس ثيابي : قال : نعم، فخرج وقال : والله لا ألبسها اليوم . فضحك شبيب وقال : خدعتني ورب الكعبة ووكل به رجلاً من أصحابه يحفظه الا يصيبه احد بمكروه . قال : وكان رجل من الخوارج يقول :

فمنّا يزيــد والبطين وقعنَبُ ومنا أمير المؤمنينَ شبيبُ

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله فأتي به ، فلما وقف بين يديه قال : انت القائل : « ومنا امير المؤمنين شبيب ... » قال : لم أقل هكذا يا امير المؤمنين انما قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب . فضحك عبد الملك وأمر بتخلية سبيله ، فتخلص بدهائه وفطنته لازالة الاعراب من الرفع الى النصب وزعموا ان عمرو بن معدي كرب هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة وأخذها فلما أمعن بها بكت . فقال : ما يبكيك ؟ قالت :

أبكي لفراقي بنات عمي هن مثلي في الجمال وأفضل مني خرجت معهن فانقطعنا عن الحي ، قال : وأين هن ؟ قالت : خلف ذلك الجبل ووددت اذ اخذتني انك أخذتهن معي فامض الى الموضع الذي وصفته فمضى الى هنالك ، فلم يشعر بشيء حتى هجم على فارس شاك في السلاح فعرض عليه المصارعة فصارعه الفارس ، ثم عرض عليه ضروباً من المناوشة فغلبه الفارس في كلها . فسأله عمرو عن اسمه فاذا هو ربيعة بن مكرم الكناني فاستنقذ الجارية . وعن عطاء ان مخارق بن عفان ومعن بن زائده تلقيا رجلاً ببلاد الشرك ومعه جارية لم يريا احسن منها شباباً وجمالاً ، فصاحا به خل عنها، ومعه قوس فرمى بها وهابا الاقدام عليه، ثم عاد ليرمي فانقطعت وتره وسلم الجارية وأسند في جبل كان قريباً منه فابتدراه وأخذا الجارية ، وكان في أذنها قرط فيه درة فانتزعاه من اذنها، فقالت ، وما قدر هذه لو رأيتما درتين معه في قلنسوته وفي القلنسوة وتر قد أعده ونسيه من الدهش. فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر فأخذه وعقده في قوسه، فوليا ليست لهما همة الا الالتجاء وخليا عن الجارية . وعن الهيثم قال : كان الحجاج حسوداً لا يتم له صنيعة حتى يفسدها فوجه عمارة بن تميم اللخمي الى عبد الرحمن محمد بن الاشعث فظفر به وصنع ما صنع ، ورجع الى الحجاج بالفتح ولم يرَ منه ما أحب وكره منافرته ، وكان عاقلاً رفيقاً فجعل يرفق به ويقول : ايها الامير اشرف العرب ، انت من شرفته شرف ، ومن وضعته

اتضع ، وما ينكر ذلك مع رفقك ويمنك ومشورتك ورأيك ، وما كان هذا كله الا بصنع الله وتدبيرك وليس احد اشكر لبلائك مني ومن ابن الأشعث ، وما خطره حتى عزم الحجاج على المسير الى عبد الملك ، فأخرج عمارة معه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير ، فلم يزل يلاطف بالحجاج في مسيره ويعظه حتى قدموا على عبد الملك ، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج قام عمارة فقال : يا امير المؤمنين سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي ، قال الحجاج : يا امير المؤمنين صنع وصنع ومن بأسه ونجدته وعفافه كذا وكذا وهو أيمن الناس نقيبة وأعلمهم بتدبير السياسة ولم يبقَ في الثناء عليه غاية . فقال عمارة : قد رضيت يا أمير المؤمنين ، قال : نعم فرضي الله عنك حتى خالها ثلاثاً في كلها يقول قد رضيت ، قال عمارة : فلا رضي الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه فهو والله السيّء التدبير الذي قد أفسد عليك اهل العراق وألب الناس عليك وما أتيت الا من قبله ومن قلة عقله وضعف رأيه وقلة بصره بالسياسة ، فلك والله أمثالها ان لم تعزله ، فقال الحجاج : مه يا عمارة ، فقال : لا مه ولا كرامة كل امرأة له طالق وكل مملوك له حر ان سار تحت راية الحجاج ابداً ، قال : اني أعلم انه ما خرج هذا منك الا عن معتبة ولك عندي العتبى وأرسل اليه ، فقال : ما كنت أظن ان عقلك على هذا أرجع اليه بعد الذي كان من طعني عليه وقولي عند أمير المؤمنين ما قلت فيه : لا ولا كرامة .

وضده قيل : هو احمق من عجل ، وهو عجل بن لجيم ، وذلك انه قيل له : ما سميت فرسك؟ ففقأ عينه وقال : سميته الاعور ، فقال الشاعر فيه :

رمتني بنو عجل بداء ابيهم وأي امرىء في الناس أحمق من عجل

أليس ابوهم عار عين جواده فصارت به الامثال تضرب في الجهل

وقيل : هو احمق من هبنقة ، وبلغ من حمقه انه ضل له بعير فجعل ينادي : من وجد بعيري فهو له ، فقيل له : ولمَ تنشره ؟ قال : واين حلاوة الظفر والوجدان ؟ واختصمت اليه الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعى هؤلاء ، وهؤلاء فيه فقالوا : انظروا بالله مَن طلع علينا ؟ فلما دنا قصوا عليه القصة فقال هبنقة : الحكم في هذا بيِّن ، اذهبوا به الى نهر البصرة فألقوه فيه ، فان كان راسبياً رسب ، وان كان طفاوياً طفا . فقال الرجل : اريد ان اكون من احد هذين الحيين ولا حاجة لي في الديوان . وقيل : هو احمق من دغة وهي مارية بنت مغنج تزوجت في بني العنبر وهي صغيرة فلما ضربها المخاض ظنت انها تريد الخلاء فخرجت تتبرز فصاح الولد فجاءت منصرفة ، فصاحت : يا اماه هل يفتح الجعْرُ فاه ؟ قالت : نعم ، ويدعو أباه ، فسبت بنو العنبر

بذلك ، فقيل : بنو الجمراء . وقيل : هو احمق من باقل ، وكان اشترى عنزاً بأحد عشر درهماً فسئل بكم اشتريت العنز؟ ففتح كفيه وفرق اصابعه واخرج لسانه، يريد احد عشر درهماً فعيروه بذلك ، قال الشاعر :

يلومون في حمقه باقلاً كأن الحماقة لم تخلقِ
فلا تكثروا العذل في عيه فللصمت اجمل بالاموقِ
خروج اللسان وفتح البنان احب الينا من المنطقِ

ومما قيل ايضاً من الشعر فيه :

يا ثابت العقل كم عاينت ذا حُمق الرزق اغرى به من لازم الجرب
فأنني واجد في الناس واحدة الرزق اروغ شيء عن ذوي الادب
وخصلة ليس فيها من يخالفني الرزق والنوك مقرونان في سبب

وقال آخر :

ارى زمناً نَوْكاهُ اسعد خلقه على انه يشقى به كل عاقلِ
علا فوقه رجلاه والرأس تحته فكب الاعالي بارتفاع الاسافلِ

وقال آخر :

كم من قويّ قويّ في تقلبه مهذب اللب عند الرزق منحرفُ
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط كأنه من خليج البحر يغترفُ

محاسن المفاخرة

قال رسول الله ﷺ : « انا سيد ولد آدم ولا فخر » . وسمع رسول الله ﷺ رجلاً ينشد بيتاً من الشعر :

اني امرؤ حميرى حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مُضَرِ

فقال له : ذلك ألأم لك وابعد عن الله ورسوله ، وقال بعضهم :

اذا مضر الحمراء كانت ارومتي وقام بنصري خازم وابن خازمُ

عطست بأنف شامخٍ وتناولت   يداي الثريا قاعداً غير قائمِ

شعيب بن ابراهيم عن علي بن يزيد عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب ابن ربيعة قال : مر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنفر من قريش وهم يقولون انما محمد من اهله مثل نخلة نبتت في كناسة ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجد منه فخرج حتى قام فيهم خطيباً ثم قال : «أيها الناس ، من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . قال : أفأنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم ، ان الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ثم جعل الخلق الذي انا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه ، ثم جعل الخلق الذي انا منهم شعوباً فجعلني في خيرهم شعباً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً ، فانا خيركم بيتاً وخيركم والداً واني مباه لكم . قم يا عباس فقام عن يمينه ، ثم قال: قم يا سعد فقام عن يساره فقال : يقرب امرؤ منكم عماً مثل هذا وخالاً مثل هذا» . وحدثنا سنان بن الحسن التستري عن اسماعيل بن مهران العسكري عن ابان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس رحمهما الله تعالى عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال : لما امر رسول الله ﷺ ان يعرض نفسه على القبائل خرج وانا معه وابو بكر وكان عالماً بأنساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة ، فتقدم ابو بكر فسلم عليهم فردوا عليه السلام فقال : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . قال : من هامتها ام لهازمها ؟ قالوا : بل من هامتها العظمى . قال : وأي هامتها ؟ فقالوا : ذهل . قال : ذهل الاكبر ام ذهل الاصغر ؟ قالوا : بل الاكبر . قال : فمنكم عوف الذي كان يقال لاحر بوادي عوف ؟ قالوا : لا . قال : افمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الاحياء ؟ قالوا : لا . قال : افمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا . قال : افمنكم المزدلف صاحب العمامة ؟ قالوا : لا . قال : افأنتم اخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال : افأنتم اصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال : فلستم من ذهل الاكبر اذا انتم من ذهل الاصغر . فقام اليه اعرابي غـــلام حسن بقل وجهه فأخذ بزمام ناقته ورسول الله ﷺ واقف على ناقته يسمع مخاطبته فقال :

لنا على سائلنـــا ان نسأله   والعبء لا تعرفه او تحمـــله

يا هذا انك قد سألتنا أي مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً فاخبرنا ممن انت ؟ فقال ابو بكر : من قريش . فقال : بخ بخ ! اهل الشرف والرياسة فاخبرني من أي قريش انت ؟ قال : من بني تيم بن مرة . قال : افمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان له مجمع ؟ قال ابو بكر : لا . قال : افمنكم هاشم الذي يقول فيه الشاعر :

عمرو العلى هَشمَ الثريد لقومه   ورجال مكة مُسنِتُون عجافُ

قال ابو بكر : لا . قال : افمن [illegible] كأن وجهه يضيء في الليلة الداجية مطعم الطير ؟ قال : لا . قال : افمن المضيفين [illegible] قال : لا . قال : افمن اهل الرفادة انت ؟ قال : لا . قال : افمن اهل السقاية [illegible] قال : افمن أهـــل الحجابة انت ؟ قال : لا . قال : اما والله لو شئت [illegible] من اشراف قريش ، فاجتذب ابو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب فقال الاعرابي

صادف درَّ السيل درٌّ [illegible] هضبة ترفعـــه وتضعه

فتبسم رسول الله ﷺ . قال علي [illegible] فقلت : يا أبا بكر لقد وقعت من هذا الاعرابي على باقعة . قال : اجل [illegible] ما من طامة الا وفوقها طامة وان البلاء موكل بالمنطق . قال : وأتى الحسن [illegible] معاوية بن ابي سفيان وقد سبقه ابن العباس رحمه الله فأمر معاوية بانزاله [illegible] عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد المدعى الى ابي سفيان يتحاورون في [illegible] اذ قال معاوية : قد اكثرتم الفخر ولو حضركم الحسن بن علي وعبدالله بن عباس [illegible] فقال زياد : وكيف ذاك يا امير المؤمنين وما يقومان لمروان ابن الحكم [illegible] ولا لنا في مواذخنا فابعث اليهما حتى نسمع كلامهما . فقال معاوية لعمرو [illegible] فابعث اليهما في غد ، فبعث معاوية بابنه يزيـــد اليهما فأتيا فدخلا عليه [illegible] اني احلكما وارفع قدركما على المسامر بالليل ولا سيا انت يا أبا محمد فانك [illegible] وسيد شباب أهل الجنة . فشكر له ، فلما استويا في مجلسهما علم عمرو ان [illegible] والله لابد ان أتكلم فان قهرت فسبيل ذلك وان قهرت أكون قد ابتدأت [illegible] قد تقارضنا فقلنا ان رجال بني أمية اصبر على اللقاء وأمضى في الوغاء وأوفى [illegible] وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب ، ثم تكلم مروان بن الحكم فقال [illegible] يكون ذلك وقـــد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم فان شئنا عفونا [illegible] ثم تكلم زياد فقال : ما ينبغي لهم ان ينكروا الفضل لأهله ويجحدوا الخير [illegible] في الحروب ولنا الفضـــل على سائر الناس قديماً وحديثاً ، فتكلم الحسن بن علي [illegible] فقال : ليس من الحزم ان يصمت الرجل عن إيراد الحجة ولكن من الافك [illegible] بالخنا ويصور الكذب في صورة الحق يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على [illegible] مثالبك الخبيثة ابديها مرة بعد مرة أتذكر مصابيح الدجى وأعلام الهدى [illegible] وحتوف الاقران وأبناء الطعان وربيع الضيفان ومعدن العلم ومهبط النبوة ؟ [illegible] أحمى لما وراء ظهوركم وقد تبيّن ذلك يوم بدر حين نكصت الابطال وتساورت الاقران [illegible] حمت الليوث ، واعتركت المنيـــة وقامت

رحاها على قطبها ، وفرت عن نابها ، وطار شرار الحرب ، فقتلنا رجالكم ومن النبي ﷺ على ذرايكم ، وكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب ثم قال : وأما انت يا مروان فما انت والاكثار في قريش وانت ابن طليق وأبوك طريد تتقلب في خزاية الى سوءة ، وقد أتى بك الى امير المؤمنين يوم الجمل ، فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه ، واشتبكت انيابه كنت كما قال الاول :

بصبصن ثم رمين بالابعار

فلما مَنّ عليك بالعفو وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعــد منا مقعد أهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ، ونحن من لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية ، ثم التفت الى زياد وقال : وما انت يا زياد وقريش ما اعرف لك فيها أديماً صحيحاً . ولا فرعاً نابتاً ولا قديماً ثابتاً ولا منبتاً كريماً ، كانت أمك بغياً يتداولها رجالات قريش وفجار العرب ، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا – يعني معاوية – فما لك والافتخار !!؟ تكفيك سمية ويكفينا رسول الله ﷺ وابي سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه وعماي حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة ، وانا وأخي سيدا شباب اهل الجنة ، ثم التفت الى ابن العباس فقال : انما هي بغاث الطير انقض عليها البازي ، فأراد ابن العباس ان يتكلم فأقسم عليه معاوية ان يكف فكف ، ثم خرجا ، فقال معاوية : أجاد عمرو الكلام اولا لولا ان حجته دحضت ، وقد تكلم مروان لولا انه نكص ثم التفت الى زياد فقال : ما دعاك الى محاورته ما كنت الا كالحجل في كف العقاب . فقال عمرو : أفلا رميت من ورائنا ؟ قال معــاوية : اذا كنت شريككم في الجهل أفأفاخر رجلاً، رسول الله ﷺ جده وهو سيد من مضى ومن بقي وأمه فاطمة سيدة نساء العالمين ثم قال لهم : والله لئن سمع أهل الشام ذلك انه للسوءة السوآء. فقال عمرو: لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرحى بثفالها ووطئهما وطىء البازل القراد بمنسمه ، فقال زياد : والله لقد فعل ولكنك يا معاوية تريد الاغراء بيننا وبينهم لا جرم والله لا شهدت مجلساً يكونان فيه الا كنت معهما على من فاخرهما، فخلا ابن عباس بالحسن رضي الله عنه فقبل بين عينيه وقال : أفديك بابن عمي والله ما زال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من اولاد البغايا . ثم ان الحسن رضي الله عنه غاب أياماً ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبدالله بن الزبير . فقال معاوية : يا أبا محمد اني اظنك تعباً نصباً فأت المنزل فأرح نفسك ، فقام الحسن رضي الله عنه ، فخرج ، فقال معاوية لعبدالله بن الزبير : لو افتخرت على الحسن فأنت ابن حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ولأبيك في الاسلام نصيب وافر ، فقال ابن الزبير : أنا له . ثم جعل ليلته يطلب الحجج فلما أصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضي

الله عنه فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال : خير مبيت وأكرم مستفاض ، فلما استوى في مجلسه قال له ابن الزبير : لولا انك خوارٌ في الحروب غير مقدام ما سلمت لمعاوية الامر وكنت لا تحتاج الى اختراق السهول وقطع المراحل والمفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه وكنت حرياً ان لا تفعل ذلك وانت ابن علي في بأسه ونجدته ، فما أدري ما الذي حملك على ذلك ؟ اضعف حال ام وحي نحيزة ؟ ما أظن الك مخرجاً من هذين الحالين أما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت انني ابن الزبير وانني لا انكص عن الابطال ، وكيف لا أكون كذلك وجدتي صفية بنت عبد المطلب وأبي الزبير حواري رسول الله ﷺ وأشد الناس بأساً واكرمهم حسباً في الجاهلية ، وأطوعهم لرسول الله ﷺ ؟ فالتفت الحسن اليه وقال : أما والله لولا ان بني أمية تنسبني إلى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوناً بك ، ولكن سأبين ذلك لتعلم اني لست بالكليل. أإياي تعير وعليّ تفتخر ، ولم تكُ لجدك في الجاهلية مكرمة ان لا تزوجه عمتي صفية بنت عبد المطلب فبذخ بها على جميع العرب وشرف بمكانها ، فكيف تفاخر من في القـــلادة واسطتها وفي الاشراف سادتها ؟ نحن اكرم اهل الارض زنداً ، لنا المشرق الثاقب والكرم الغالب ، ثم تزعم اني سلمت الامر لمعاوية فكيف يكون ؟ ويحك كذلك ! وأنا ابن أشجع العرب ولدتني فاطمة سيدة النساء وخيرة الامهات لم افعل ويحك ذلك جبناً ولا فرقاً ، ولكنه بايعني مثلك وهو يطلب بترة ويداجيني المودة فلم أثق بنصرته لأنكم بيت غدر وأهل إحن ووتر ، فكيف لا تكون كما أقول ؟ وقد بايع امير المؤمنين أبوك ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل بها الناس ، فلما دلف نحو الأعنة ورأى بريق الاسنة قتل بمضيعة لا ناصر له وأتى بك اسيراً ، وقد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها واعتلاك الاشتر فغصصت بريقك واقعيت على عقبيك كالكلب اذا احتوشته الليوث ، فنحن ويحك نور البلاد وأملاكها وبنا تفتخر الامة والينا تلقى مقاليد الازمة ، نصول وانت تختدع النساء ثم تفتخر على بنى الأنبياء لم تزل الاقاويل منا مقبولة وعليك وعلى أبيك مردودة دخل الناس في دين جدي طائعين وكارهين ، ثم بايعوا امير المؤمنين صلوات الله عليه فسار الى أبيك وطلحة حيث نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله ﷺ فقتلا عند نكثهما بيعته وأتي بك اسيراً تبصبص بذنبك فناشدته الرحم ان لا يقتلك فعفا عنك ، فأنت عتاقة أبي وانا سيدك وابي سيد أبيك ، فذق وبال امرك ، فقال ابن الزبير : اعذرنا يا أبا محمد فانما حملني على محاورتك هذا واشتهى الاغراء بيننا فهلا إذ جهلت امسكت عني فانكم اهل بيت سجيتكم الحـــلم ، قال الحسن : يا معاوية انظر ، أأكع عن محاورة احد ويحك ؟ أتدري من اي شجرة انا والى من أنتمي ؟ انته عني قبل ان اسمك بسمة يتحدث بها الركبان في آفاق البلدان ، قال ابن الزبير :

هو لذلك أهل ، فقال : معاوية اما انه قد شفا بلابل صدري منك ورمى فقتلك فبقيت في يده كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف شاء ، فلا أراك تفتخر على احد بعد هذا . وذكروا ان الحسن بن عليّ صلوات الله عليهما دخل على معاوية فقال في كلام جرى من معاوية في ذلك :

فيم الكلام وقد سبقت مبرزا سبق الجواد من المدى والمِقوسِ

فقال معاوية ، اياي تعني ؟ والله لآتينك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك ، انا ابن بطحاء مكة ، انا ابن اجودها جوداً واكرمها ابوة وجدوداً واوفاها عهوداً ، انا ابن من ساد قريشاً ناشئاً. فقال الحسن : اجل ! اياك اعني ، أفعليّ تفتخر يا معاوية وانا ابن ماء السماء وعروق الثرى وابن من ساد اهل الدنيا بالحسب الثاقب والشرف الفائق والقديم السابق وابن من رضاه رضى الرحمن وسخطه سخط الرحمن فهل لك أب كأبي او قديم كقديمي ، فان تقل : « لا » تغلب ، وان تقل : « نعم » تكذب ، فقال : أقول ، « لا » تصديقاً لقولك ، فقال الحسن رضي الله عنه :

أَلْحق أَبْلَج لا تَزِيغُ سَبيلُه والحَقُّ يَعْرِفُه ذوو الألبابِ

قال : وقال معاوية ذات يوم ، وعنده اشراف الناس من قريش وغيرهم : « اخبروني بأكرم الناس أباً وأماً وعماً وعمة وخالاً وخالة وجداً وجدة » فقام مالك بن عجلان ، وأومأ الى الحسن ابن علي صلوات الله عليه ، فقال : « هو ذا ابوه علي بن ابي طالب ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وعمه جعفر الطيار ، وعمته ام هانىء بنت ابي طالب ، وخاله القاسم ابن رسول الله ﷺ ، وخالته زينب بنت رسول الله ﷺ ، وجـــده رسول الله ﷺ ، وجدته خديجة بنت خويلد » . فسكت القوم ، ونهض الحسن ، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال : « أحُبُّ بني هاشم حملك على ان تكلمت بالباطل » ؟ فقال ابن عجلان : « ما قلت إلا حقاً ، وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق إلا لم يعط امنيته في دنياه ، وختم له بالشقاء في آخرته ، بنو هاشم انضركم عوداً وأوراكم زنداً ، أكذلك هو معاوية » ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال : واستأذن الحسن ابن علي رضي الله عنه على معاوية ، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو ابن العاص ، فأذن له ، فلما اقبل قال عمرو : « قد جاءكم الفهه العيي الذي كان بين لحييه عقله ، فقال عبد الله بن جعفر : « مه ، والله لقد رمت صخرةململة تنحط عنها السيول ، وتقصر دونها الوعول ، لا تبلغها السهام ، فإياك والحسن إياك ، فانك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش ، ولقد رميت فما برح سهمك ، وقدحت ، فما أورى زندك » . فسمع الحسن الكلام ، فلما أخذ مجلسه قال : « يا معاوية لا يزال عندك عبد يرتع في لحوم الناس ، اما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الامور ، وتحرج منه الصدور » ثم انشأ يقول :

أتأمرُ يا معاويَ عبدَ سَهمٍ　　بشتمي والمــلا منّا شُهودُ
إذا أخــذتْ مجالِسها قُريشٌ　　فقدْ علمتْ قُريشٌ ما تُريدُ
أأنتَ تظلُّ تشتمُني سِفاهاً　　لِضغنٍ ما يزُولُ ولا يَبيدُ
فهَل لكَ مِنْ أبٍ كأبي تُسامي　　بهِ مَنْ قد تُسامي أو تَكيدُ
ولا جدٌّ كجَدّي يابنَ حَربٍ　　رسولِ اللهِ إنْ ذُكرَ الجُدودُ
ولا أمٌّ كأمّي مِنْ قُريشٍ　　إذا ما حُصّلَ الحَسَبُ التّليدُ
فما مِثْلي تُهكّمُ يابنَ حربٍ　　ولا مثْــلي يُنهْنِهُهُ الوَعيــدُ
فمَهْلاً لا تَهِجْ مِنّــا أموراً　　يَشيبُ لِهَوْلها الطّفل الوليدُ

وذكروا ان عمرو بن العاص قال لمعاوية : « إبعث الى الحسن بن علي فأمرْه ان يخطب على المنبر ، فلعله يحصر ، فيكون في ذلك ما نعيره به » . فبعث اليه معاوية ، فأمره ان يخطب ، فصعد المنبر وقد اجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النبي ، أنا ابن البشير النذير ، السراج المنير ، انا ابن من بعثه الله رحمة للعالمين . أنا ابن من بعث الى الجن والانس ، انا ابن مستجاب الدعوة ، انا ابن الشفيع المطاع ، انا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ، أنا ابن اول من يقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرعب من مسيرة شهر » ، وأمعن في هذا الباب ولم يزل ، حتى اظلمت الارض على معاوية ، فقال : « يا حسن قد كنت ترجو ان تكون خليفة ولست هناك » ، قال الحسن : « انما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ وعمل بطاعته ، وليس الخليفة من دان بالجور ، وعطل السنن ، واتخذ الدنيا أباً وأماً ، ولكن ذلك ملك أصاب ملكاً يتمتع به قليلاً ويعذب بعده طويلاً ، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه التبعة ؟ فكان كما قال الله تعالى : « وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » . ثم انصرف ، فقال معاوية لعمرو : « ما أردت إلا هتكي . ما كان اهل الشام يرون احداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا » .

قال : وقدم الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية ، فلما دخل عليه ، وجد عنده عمرو ابن العاص ، ومروان بن الحكم ، والمغيرة بن شعبة ، وصناديد قومه ووجوه أهل بيته ، ووجوه اهــل اليمن وأهل الشام . فلما نظر اليه معاوية ، أقعده على سريره ، وأقبل عليه بوجهه يريه

السرور به وبقدومه ، فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم : « لا تحاوروا هذين الرجلين ، فقد قلداكم العار عند اهل الشام » — يعني الحسن ابن علي رضي الله عنه ، وعبد الله بن عباس— فقال مروان : « يا حسن ، لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد والعلى ، ما أقعدك هذا المقعد ، ولقتلك ، وانت لهذا مستحق بقودك الجماهير الينا ، فلما قاومتنا وعلمت ألا طاقة لك بفرسان اهل الشام ، وصناديد بني امية ، اذعنت بالطاعة ، واحتجزت بالبيعة ، وبعثت تطلب الأمان . أما والله لولا ذلك لأراق دمك ، ولعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى ، فاحمد الله إذ ابتلاك بمعاوية ، وعفا عنك بحلمه ، ثم صنع بك ما ترى » . فنظر اليه الحسن وقال : « ويلك يا مروان ، لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها . والمخاذلة عند مخالطتها . هبلتك امك . لنا الحجج البوالغ ، ولنا عليكم ، ان شكرتم ، النعم السوابغ ، ندعوكم الى النجاة ، وتدعوننا الى النار ، فشتان ما بين المنزلتين . تفتخر ببني أمية وتزعم انهم صبر في الحرب ، أسد عند اللقاء ، ثكلتك الثواكل أولئك البهاليل السادة ، والحماة الذادة ، والكرام القادة ، بنو عبد المطلب . أما والله لقد رأيتهم أنت، وجميع من في المجلس، ما هالتهم الأهوال ، ولا حادوا عن الابطال ، كالليوث الضارية الباسلة الحنقـــة ، فعندها وليت هارباً وأخذت أسيراً ، فقلدت قومك العار ، لانك في الحروب خوّار ، أتهرق دمي ؟ فهلا أهرقت دم من وثب على عثمان في الدار ، فذبحه كما يذبح الحمل وأنت تثغو ثغاء النعجة ، وتنادي بالويل والثبور كالمرأة الوكعاء ، ما دافعت عنه بسهم ، ولا منعت دونه بحرب ، قد ارتعدت فرائصك، وغشي بصرك ، واستغثت كما يستغيث العبد بربه ، فأنجيتُك من القتل ، ثم جعلتَ تبحث عن دمي ، وتحض على قتلي، ولو رام ذلك معاوية معك ، لذبح كما ذبح ابن عفان، وانت معه اقصر يداً ، وأضيق باعاً ، وأجبن قلباً من ان تجسر على ذلك ، ثم تزعم اني ابتليت بحلم معاوية ؟ أما والله لهو اعرف بشأنه ، وأشكر لنا اذ وليناه هذا الأمر ، فمتى بدا له ، فلا يغضين جفنه على القذى معك ، فوالله لأعنّفنّ أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه ، ويستأصل فرسانه ، ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب ، ولا تنتفع بتدريجك الكلام ، فنحن من لا يجهل آباؤنا الكرام القدماء الاكابر ، وفروعنا السادة الاخيار الافاضل ، انطق ان كنت صادقاً » . فقال عمرو : « ينطق بالخنا وتنطق بالصدق » ، ثم أنشأ يقول :

قَدْ يَضْرُطُ العَيْرُ والمَكْواةُ تأخذَهُ ... لا يَضْرُطُ العيرُ والمكْواةُ في النَّار

« ذق وبال أمرك يا مروان ، فأقبل عليه معاوية فقال : « قد نهيتك عن هذا الرجل، وأنت تأبى إلا انهماكاً فيما لا يعنيك ، أربع على نفسك فليس أبوه كأبيك ، ولا هو مثلك . انت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم ، ولكن رب باحث عن حتفه بظلفه » . فقال

مروان : « ارم دون بيضتك ، وقم بحجة عشيرتك » ، ثم قال لعمرو : « لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتيك ، ومنها ثنيت أعنتك ، وقام مغضباً » . فقال معاوية : «لا تجار البحار فتغمرك ، ولا الجبال فتقهرك ، واسترح من الاعتذار » .

قال : ولقي عمرو بن العاص، الحسنَ بن علي عليهما السلام في الطواف ، فقال : « يا حسن. أزعمت ان الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ؟ فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله ثابتاً بعد ميله ، وبيناً بعد خفائه ، افيرضى الله قتل عثمان، أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين ؟ عليك ثياب كغرقيء البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله انه لألمّ للشمث ، وأسهل للوعث ، ان يوردك معاوية حياض أبيك » . فقال الحسن صلوات الله عليه : «إن لأهل النار علامات يعرفون بها : وهي الالحاد في دين الله ، والموالاة لاعداء الله، والانحراف عن دين الله ، والله إنك لتعلم ان علياً لم يتريّث في الأمر ، ولم يشك في الله طرفة عين ، وأيم الله لتنتهين يا بن العاص ، أو لأقرعن قصتك – يعني جبينه – بقراع وكلام ، وإياك والجراءة علي فاني من عرفت لست بضعيف المغمز ، ولا بهش المشاشة – يعني العظام – ولا بمريء المأكلة ، وإني لمن قريش كأوسط القلادة، معرق حسبي لا أدعى لغير أبي ، وقد تحاكمت فيك رجال من قريش ، فغضب عليك ألأمها حسباً ، وأعظمها لعنة ، فاياك عني ! فانما انت نجس ، ونحن أهل بيت الطهارة ، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً » .

قال : واجتمع الحسن بن علي صلوات الله عليهما ، وعمرو بن العاص ، فقال الحسن : « قد عَلِمَت قريش بأسرها اني منها في عز أرومها لم اطبع على ضعف ، ولم اعكس على خسف ، اعرف نسبي ، وأدعى لأبي » . فقال عمرو : « وقد علمت قريش أنك ابن أقلّها عقلاً، واكثرها جهلاً ، وإن فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منها ، لشملك خزيها ، كما شمل البياض الحالك ، وأيم الله لئن لم تنته عما أراك تصنع ، لاكبسن لك حافة كجلد العائط ، اذا اعتاطت رحمها ، فيما تحمل ، أرميك من خللها بأحر من وقع الأثافي ، أعرك منها أديمك عرك السلعة ، فانك طالما ركبت المنحدر ، ونزلت في أعراض الوعر ، التماساً للفرقة وإرصاداً للفتنة ، ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة» . فقال الحسن : « أما والله لو كنت تسمو بحسبك، وتعمل برأيك ، ما سلكت فج قصد ، ولا حلات راية مجد ، أما والله لو أطاعنا معاوية ، لجعلك بمنزلة العدو الكاشح ، وانه طال ما تأخر شأوك ، واستسر داؤك ، وطمح بك الرجاء الى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ، ولا يخضر منها رعيك، أما والله لتوشكن يابن العاص ان تقع بين لحيي ضرغام ، ولا ينجيك منه الروغان اذا التقت حلقتا البطان .

ابن المنذر عن أبيه الشعبي عن ابن عباس انه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله

عنه الى العراق ، فاذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش ، قد استعلام بالكلام ، فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير ، وقال : أصبحت والله كما قال الشاعر :

يا لَــكِ من قُنْبُرَةٍ بمَعْمَرِ خَلَالكِ الجَوُّ فبيضي واصفِرِي
ونقّرِي ما شِئْتِ أنْ تُنقّرِي قدْ ذَهَبَ الصَّيَّادُ عَنكِ فأبْشري
لا بُدَّ منْ أخذِكِ يوْماً فاصْبرِي

خلت الحجاز من الحسين بن علي ، وأقبلت تهدر في جوانبها » ، فغضب ابن الزبير وقال : « والله انك لترى أنك أحق بهذا من غيرك » ، فقال ابن عباس : « انما يرى ذلك من كان في حال شك ، وأنا من ذلك على يقين » ، قال : « وبأي شيء استحق عندك أنك بهذا الأمر أحق مني » ؟ فقال ابن عباس : « لأنا أحق بمن يدل بحقه ، وبأي شيء استحق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ فقال ابن الزبير : « استحق عندي اني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً » ، فقال : « انت أشرف أم من شرفت به » ؟ فقال : « ان من شرفت به زادني شرفاً الى شرفي » ، قال : « فمني الزيادة أم منك » ؟ فتبسم ابن عباس ، فقـــال ابن الزبير : « يابن عباس ، دعني من لسانك هـــذا الذي تقلبه كيف شئت ، والله يا بني هاشم لا تحبوننا ابداً » . قال ابن عباس : « صدقت ، نحن اهل بيت مع الله ، لا نحب من أبغضه الله » ، قال : « يابن عباس ، أما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة » ؟ قال : « انما يصفح عمن أقر ، وأما من هر فلا ، والفضل لأهل الفضل » ، قال ابن الزبير : « فأين الفضل » ؟ قال : « عند أهـــل البيت لا تصرفه عن أهله فتظلم ، ولا تضعه في غير أهله فتندم » . قال ابن الزبير : « أفلست من أهله » ؟ قال : « بلى ان نبذت الحسد ، ولزمت الجدد » . وانقضى حديثهما .

وروي عن ابن عباس أنه قال : قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع من بني أمية ووفود العرب عنده ، فدخلت ، وسلمت ، وقعدت فقال : « يابن عباس من الناس » ؟ فقلت : « نحن » ، قال : « فاذا غبتم » ، قلت : « فلا أحد » ، قال : « فانك ترى اني قعدت هـــذا المقعد بكم » ، قلت : « نعم فيمن قعدت » ؟ قال : « بمن كان مثل حرب ابن أمية » ، قلت : « من كفأ عليه اناءه وأجاره بردائه » .

قال : فغضب وقال : « أرحني من شخصك شهراً ، فقد أمرت لك بصلتك ، وأضعفتها لك » ، فلما خرج ابن عباس ، قال لخاصته : « ألا تسألونني ما الذي اغضب معاوية » ؟ قالوا : « بلى ، فقل بفضلك » ، قال : « ان أباه حرباً لم يلق أحداً من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق الا تقدمه حتى يجوزه ، فلقيه يوماً رجل من تميم في عقبة فتقدمه التميمي » ، فقال حرب : « أنا

حرب بن أمية ، فلم يلتفت اليه وجازه ، فقال : موعدك مكة ، فخافه التميمي ، ثم أراد دخول مكة ، فقال : « من يجيرني من حرب بن أمية » ؟ فقيل له : « عبـــد المطلب » ، فقال : « عبد المطلب أجل قدراً من أن يجير على حرب » . فأتى ليلاً الى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق بابه فقال الزبير لعبده : قد جاءنا رجل إما طالب قرى ، واما مستجير ، وقد أجبناه الى ما يريد ، ثم خرج الزبير اليه ، فقال التميمي :

لاقيتُ حَرْباً في الثَّنِيَّةِ مُقْبِلاً والصُّبْحُ أَبلجَ ضوْءهُ للسَّاري

فَدعا بصوْتٍ واكْتنَى ليرُوعني وسَمَا عليَّ سُمُوَّ لَيْثٍ ضَاري

فتَرَكْتُهُ كالكَلْب يَنْبحُ ظِلَّهُ وأتيْتُ قَرْمَ مَعالِمٍ وفَخارِ

لَيْثــاً هِزَبْراً يُستَجارُ بعِزِّه رَحْبَ المبَاءَةِ مُكْرِماً للجارِ

ولقدْ حَلَفْتُ بمكَّةٍ وبزَمْزَمٍ والبيْتِ ذِي الأحجارِ والاستارِ

إنَّ الزُّبيرَ لَمَا نعِي مِنْ خوفهِ ما كَبّرَ الحُجَّاجُ في الأمْصارِ

فقدمه الزبير وأجاره ، ودخل به المسجد ، فرآه حرب فقام اليه فلطمه ، فحمل عليـــه الزبير بالسيف فولى هارباً يعدو حتى دخل دار عبد المطلب فقال : « أجرني من الزبير » ، فأكفأ عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس ، فبقي تحتها ساعة ثم قال له : أخرج ، قال : « وكيف أخرج وعلى الباب تسعة من بنيك قد احتبوا بسيوفهم » ؟ فألقى عليه رداء كان كساه إياه سيف بن ذي يزن ، له طرتان خضروان ، فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره عبد المطلب ، فتفرقوا عنه » .

قال : وحضر مجلس معاوية عبدالله بن جعفر ، فقال عمرو بن العاص : « قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني ، والطربات بالتغني ، محب للقيان ، كثير مزاحه ، شديد طماحه ، صدود عن الشبان ، ظاهر الطيش ، رخيّ العيش ، أخاذ بالسلف ، منفـــاق بالسرف » ، فقال ابن عباس : « كذبت ، والله ، انت ، وليس كما ذكرت ، ولكنه لله ذكور ، ولنعمائه شكور ، وعن الخنا زجور ، جواد كريم ، سيد حليم ، اذا رمى أصاب ، واذا سئل أجاب ، غير حصر ولا هياب ، ولا عيابة مُغتاب ؛ حل من قريش في كريم النصاب كالهزبر الضرغام ، الجريء المقدام ، في الحسب القمقام ، ليس بدعيّ ولا دنيء ، لا كمن اختصم فيه من قريش شرارها ، فغلب عليه جزارها ، فأصبح ألأمها حسباً ، وأدناها منصباً ينوء منها بالذليل ، ويأوي منها الى القليل ،

مذبذب بين الحيين كالساقط بين المهدين ، لا المضطر فيهم عرفوه ، ولا الظاعن عنهم فقدوه ، فليت شعري بأي قدر تتعرض للرجال ، وبأي حسب تعتد به عند النضال ؟ أبنفسك ، وأنت الوغد اللئيم ، والنكد الذميم ، والوضيع الزنيم ؟ أم بمن تنمى اليهم ، وهم أهل السفه والطيش ، والدناءة في قريش ؟ لا بشرف في الجاهلية شهروا ، ولا بقديم في الاسلام ذكروا ، جعلت تتكلم بغير لسانك ، وتنطق بالزور في غير أقرانك ، والله لكان أبين للفضل ، وأبعد للعدوان ، أن ينزلك معاوية منزلة البعيد السحيق ، فانه طالما سلس داؤك ، وطمح بك رجاؤك الى الغاية القصوى التي لم يخضر فيها رعيك ، ولم يورق فيها غصنك » . فقال عبدالله بن جعفر : « أقسمت عليك لما أمسكت ، فانك عني ناضلت ، ولي فاوضت » ، فقال ابن عباس : « دعني والعبد فانه قد كان يهدر خالياً ، ولا يجد ملاحياً ، وقد أتيح له ضيغم شرس ، للأقران مفترس ، وللأرواح مختلس » ، فقال ابن العاص : « دعني يا أمير المؤمنين أنتصف منه ، فوالله ما ترك شيئاً » . قال ابن عباس : « دعه فلا يبقى المبقي الا على نفسه » . فوالله ان قلبي لشديد ، وان جوابي لعتيد ، واني لكما قال نابغة بني ذبيان :

وقِدْماً قدْ قَرَعْتُ وقارَعوني فما نَزُرَ الكَلَامُ ولا شَجاني
يُصُدُّ الشاعِرُ العَرّافُ عني صُدُودَ البِكْرِ عنْ قَرْمٍ هِجانِ

قال : وبلغ عائشة بنت عاثم[1] ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبني هاشم، فقالت لأهل مكة : « ايها الناس ، ان بني هاشم سادت فجادت ، ومَلَكَتْ ومُلِّكَتْ ، وفضلت وفُضِّلت ، واصطفت واصطُفيت ، ليس فيها كدر عيب ولا أفك ريب ، ولا خسروا طاغين ولا خازين ولا نادمين ، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين ، ان بني هاشم أطول الناس باعاً ، وأمجد الناس أصلاً ، وأعظم الناس حلماً ، وأكثر الناس علماً وعطاءً، منا عبد مناف المؤثر، وفيه يقول الشاعر :

كانتْ قُرَيشٌ بيْضةً فتَفَلَّقَتْ فالمحُّ خالِصها لعَبْدِ منافِ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه ، وفيه يقول الشاعر :

عَمْرُ العُلَا هَشَمَ الثَّريدَ لقوْمِهِ ورجالُ مكّةَ مُسْنِتون عِجافُ

---

١ — هكذا وردت في الاصل وفي نسخة ثانية : عاتمة بنت عاتم ، وفي المسامرات : غانمة بنت غانم .

ومنا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث ، وفيه يقول ابو طالب :

ونحنُ سُنيُّ المَحْلِ قامَ شَفيعُنا بمكّةَ يَدْعو والمِياهُ تغُورُ

وابنه ابو طالب عظيم قريش ، وفيه يقول الشاعر :

آتيْتهُ مَلِكاً فقَامَ بحاجتي وتَرَى العُلَيِّجَ خائباً مَذْموما

ومنا العباس بن عبد المطلب ، أردفه رسول الله ﷺ وأعطاه ماله ، وفيه يقول الشاعر :

رَدِيفُ رَسولِ اللهِ لم نَرَ مِثلَه ولا مِثلُه حتى القيامةِ يُولَدُ

ومنا حمزة سيد الشهداء ، وفيه يقول الشاعر :

أبا يَعْلَى بكَ الأرْكانُ هُدَّتْ وأنتَ الماجِـد البَرُّ الوَصول

ومنا جعفر ذو الجناحين ، احسن الناس حالاً ، واكملهم كمالاً ، ليس بغدار ولا جبان ، أبدله الله بكلتا يديه جناحين يطير بهما في الجنة ، وفيه يقول الشاعر :

هاتوا كَجَعْفَرِنا ومِثلَ عَلِيِّنا كانا أعزَّ النَّاسِ عندَ الخالقِ

ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه ، أفرس بني هاشم، وأكرم من احتبى وانتعل ، وفيه يقول الشاعر :

عليٌّ ألَّفَ الفُرْقـانَ صُحفاً ووالى المُصْطفي طِفْلاً صَبيًّا

ومنا الحسن بن علي عليه السلام ، سبط رسول الله ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة ، وفيه يقول الشاعر :

يا أجـلَّ الأنام يابن الوَصيّ أنتَ سبطُ النبيِّ وابن عليّ

ومنا الحسين بن علي حمله جبريل عليه السلام على عاتقه ، وكفاه بذلك فخراً ، وفيه يقول الشاعر :

حُبُّ الحُسيْنِ ذَخيرَةٌ لِمُحبِّهِ يا رَبِّ فاحشُرْني غداً في حِزْبهِ

يا معشر قريش والله ما معاوية كأمير المؤمنين علي ، ولا هو كما يزعم هو والله شانىء رسول الله ﷺ ، واني آتية معاوية وقائلة له ما يعرق منه جبينه ، ويكثر منه عويله وأنينه ، فكتب عامل معاوية اليه بذلك ، فلما بلغه انها قربت منه ، أمر بدار ضيافة فنظفت ، وألقى فيهـا

فرش ، فلما قربت من المدينة ، استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه ، فلما دخلت المدينة ، أتت دار أخيها عمرو بن عائم ، فقال لها يزيد : « ان أبا عبد الرحمن يأمرك ان تنتقلي الى دار ضيافته » ، وكانت لا تعرفه ، فقالت : « من أنت كلأك الله » ؟ قال : « أبا يزيد بن معاوية » ، قالت : « فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد » ، فتغير لون يزيد ، وأتى اباه فأخبره فقال : « هي أسن قريش وأعظمهم حلماً » ، قال يزيد : « كم تعد لها » ؟ قال : « كانت تعد على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام ، وهي من بقية الكرام » ، فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلم عليها فقالت : « على المؤمنين السلام ، وعلى الكافرين الهوان والملام » ، ثم قالت : « أفيكم عمرو بن العاص » ! قال عمرو : « هاأناذا » ، قالت : « أنت تسب قريشاً وبني هاشم ، وأنت أهل السب ، وفيك السب ، واليك يعود السب ؛ يا عمرو اني والله عارفة بك وبعيوبك ، وعيوب أمك ، واني أذكر ذلك : ولدتَ من أمة سوداء ، مجنونة حمقاء ، تبول من قيامها ، وتعلوها اللئام ، واذا لامسها الفحل فكان نطفتها أنفذ من نطفته ، ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً ، وأما انت فقد رأيتك غاوياً غير مرشد ، ومفسداً غير مصلح ، والله لقد رأيت فحل زوجتك على فراشك ، فما غرت ولا أنكرت ، وأما انت يا معاوية فما كنت في خير ، ولا ربيت في نعمة ، فما لك ولبني هاشم ؟ نساؤك كنسائهم ؟ أم أعطى أمية في الجاهلية والاسلام ما أعطى هاشم ؟ وكفى فخراً برسول الله ﷺ » ، فقال معاوية : « ايتها الكبيرة أنا كافٌ عن بني هاشم » ، قالت : « فاني أكتب عليك كتاباً فقد كان رسول الله ﷺ دعا ربه ان يستجيب لي خمس دعوات ، أفأجعل تلك الدعوات كلها فيك » ؟ فخاف معاوية فحلف لا يسب بني هاشم ابداً ، فهذا ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة .

قال : وكان علي بن عبدالله بن عباس عند عبد الملك بن مروان ، فأخذ عبد الملك يذكر أيام بني أمية ، فبينا هو على ذلك ، نادى المنادي بالآذان ، فقال : « أشهد ان لا إله الا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » ، فقال علي :

هَذِي المكارِمُ لا قَعْبانِ منْ لَبنٍ شِيبا بماءٍ ، فعادا بَعْدُ أبوالَا

فقال عبد الملك : الحق في هذا أبين من ان يكابر .

قال علي بن محمد النديم : دخلت على المتوكل وعنده الرضي فقال : « يا علي من أشعر الناس في زماننا » ؟ قلت : « البحتري » ، قال : « وبعده » ، قلت : « مروان بن ابي حفصة عبدك » ، فالتفت الى الرضي فقال : « يابن عم ، من أشعر الناس » ؟ قال: « علي بن محمد العلوي » ، قال: « وما تحفظ من شعره » ؟ قال قوله :

لقدْ فاخرَتنا منْ قُريشٍ عصابةٌ   بمَطِّ خُدودٍ وامْتِدَادِ أصابعِ
فلمَّا تنازَعنا القَضاءَ قَضى لنا   عليهِمْ بما نَهْوَى نِدَاءُ الصَّوَامِعِ

فقال المتوكل : « ما معنى قوله : نداء الصوامع » ؟ قال : « الشهادة » ، قال : « وأبيك انه اشعر الناس » . ومما قيل في هذا المعنى من الشعر قوله ايضاً :

بَلَغنا السَّماءَ بأنسابنـــا   ولوْلا السَّماءُ لجُزْنا السَّماء
فحَسْبُكَ منْ سُؤْدَدٍ أنَّنا   بحُسْنِ البَلَاءِ كَشفْنا البَلاء
إذا ذُكِرَ النَّاسُ كُنَّا مُلوكاً   وكانوا عَبيداً وكانوا إماء
يَطيبُ الثَّناءُ لآبائنـــا   وذِكرُ عليٍّ يُطِيبُ الثَّناء
هَجاني رِجالٌ ولمْ أهجُهُمْ   أبى اللهُ لي أن أقولَ الهِجاء

وقال آخر :

وإني منَ القومِ الذينَ عرَفتهمْ   إذا ماتَ منهمْ سَيِّدٌ قامَ صاحِبُه
أضاءتْ لهُم أحسابُهم ووُجوهُهُم   دُجى اللَّيلِ حتَّى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُه
نُجومُ السَّماءِ كُلَّما انقَضَّ كوكَبٌ   بدَا كوْكَبٌ تأوِي اليهِ كواكِبُه

وقال آخر :

خُطَباءُ حينَ يقولُ قائِلُهُمْ   بيضُ الوجوهِ مَقاوِلٌ لُسْنُ
لا يَفطُنونَ لعيبِ جارِهمُ   وهُمُ لحفظِ جِوارِهِمْ فُطُنُ

وضده : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفتخروا بآبائكم في في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجُعَلُ برجله خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية». قال : وكان الحسن البصري يقول : « يا ابن آدم ، لمَ تفتخر ، وانما خرجت من سبيل بولين نطفة مشجت باقذار » . وقال بعضهم لرجل : « اتفتخر ؟ ويحك وأولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بينهما وعاء عذرة ، فما هذا الافتخار » ؟ وروي عن ابن عباس ، انه قال :

« الناس يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات والامارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق ، ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين، وأتقاهم أحسنهم يقيناً، وأزكاهم عملاً، وأرفعهم درجة».
وقيل في ذلك :

يَزِينُ الفَتى في النَّاسِ صِحَّةُ عَقلِهِ وَإنْ كانَ مَحْظوراً عليهِ مكاسِبُه
وشَينُ الفَتى في النَّاسِ قِلَّة عَقلِهِ وإنْ كَرُمَتْ آباؤهُ ومنَاسِبُه

وقيل لعامر بن قيس : « ما تقول في الانسان » ؟ قال : « وما أقول فيمن ان جاع ضرع وان شبع بغى وطغى » . وقال بعض الحكماء : « لا يكون الشرف بالنسب . الا ترى ان أخوين لأب وأم يكون احدهما اشرف من الآخر ، ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لأحد منهم على الآخر فضل ، لأن نسبهما واحد ، ولكن ذلك من قبل الافعال ، لأن الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب » . قال الشاعر :

أبوكَ أبي والجدُّ لا شَكٌّ واحدٌ ولكنَّنا عودانِ آسٌ وخِرْوَعُ

وبلغنا عن المدائني قال : ليس السؤدد بالشرف ، وقد ساد الاحنف بن قيس بحلمه ، وحصين ابن المنذر برأيه ، ومالك بن مسمع بمحبته في العامة ، وسويد بن منجوف بعطفه على ارامل قومه ، وساد المهلب بن ابي صفرة بجميع هذه الخصال . وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبي ﷺ أنه أتاه اعرابي ، فقال : « بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله ، من اكرم الناس حسناً » ؟ قال : « احسنهم خلقاً وافضلهم تقوى » ، فانصرف الاعرابي ، فقال : « ردوه » ، ثم قال : « يا اعرابي ، لعلك أردت اكرم الناس نسباً » ، قال : « نعم يا رسول الله » ، قال : « يوسف الصديق ، صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فأين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا ما كان مثلهم ولا يكون مثلهم احد ابداً » ، وقال الشاعر في ذلك :

ولمْ أرَ كالأسباطِ أبناء والِدٍ ولا كأبيهِمْ والداً حِينَ يُنْسَبُ

قال : ودخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ فانتسب له ، فقال : « انا ابن الأشياخ الاكارم » ، فقال ﷺ : « أنت إذاً يوسف صديق الرحمـــن عليه السلام ابن يعقوب اسرائيل الله او اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله » . وقال ﷺ : « خير البشر آدم ، وخير العرب محمد ، وخير الفرس سلمان الفارسي ، وخير الروم صهيب ، وخير الحبشة بلال » .

قال : وسمع عمر بن الخطاب ، وهو خليفة ، صوتاً ولفظاً بالباب فقال لبعض من عنده : « اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله » ، فخرج الرسول فوجد بلالاً وصهيباً وسلمان فأدخلهم ، وكان ابو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً على الباب فقال : « يا معشر قريش، انتم صناديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب ، ويدخل حبشي وفارسي ورومي» ، فقال سهيل: « يا ابا سفيان انفسكم فلوموا ، ولا تذموا أمير المؤمنين . دُعي القوم فأجابوا ، ودعيتم فأبيتم ، وهم يوم القيامة اعظم درجات واكثر تفضيلاً » ، فقال ابو سفيان : « لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفاً » .

فأما صناعات الأشراف ، فانه روى ان أبا طالب كان يعالج العطر والبزّ ، واما ابو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين ، وكان سعد بن أبي وقاص يعذق النخل ، وكان أخوه عتبة نجاراً ، وكان العاص بن هشام اخو أبي جهل بن هشام جزاراً ، وكان الوليد ابن المغيرة حداداً ، وكان عقبة بن ابي معيط خماراً ، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطاً ، وكان ابو سفيان بن حرب يبيع الزيت والأدم ، وكان أمية بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً ، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والإبل ، وكان جرير بن عمرو وقيس أبو الضحاك بن قيس ، ومعمر بن عثمان ، وسيرين بن محمد بن سيرين ، كانوا كلهم حدادين ، وكان المسيب ابو سعيد زياتاً ، وكان ميمون بن مهران بزازاً ، وكان مالك بن دينار وراقاً ، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزازاً ، وكان مجمع الزاهد حائكاً .

قيل : اتخذ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان ، فلما ولي قتيبة بن مسلم ، جعله لإبله ، فقال مرزبان مرو : « هذا كان بستاناً وقد اتخذته لإبلك » ، فقال قتيبة : « أبي كان اشتربان وكان ابو يزيد بستانبان فمنها صار ذلك كذلك » .

قال : وذكروا ان المأمون ذكر اصحاب الصناعات فقال : السوقة سفل ، والصناع انذال ، والتجار بخلاء ، والكتاب ملوك على الناس ، والناس أربعة : أصحاب الحرف وهي : امارة ، وتجارة ، وصناعة ، وزراعة ، فمن لم يكن منهم صار عيالاً عليهم .

محاسن الثقة بالله

قيل : خطب سليمان بن عبد الملك فقال : « الحمد لله الذي انقذني من ناره بخلافته » . وقال الوليد بن عبد الملك : « لأشفعن للحجاج بن يوسف ، وقرة بن شريك عند ربي » . وقال الحجاج : « يقولون مات الحجاج ، ما أرجو الخير كله الا بعد الموت ، والله ما رضي الله البقاء الا لأهون خلقه عليه، اليس ابليس اذ قال : «رب انظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين

الى يوم الوقت المعلوم ». وقال ابو جعفر المنصور : « الحمد لله الذي أجارني بخلافته ، وانقذني من النار بهـــا ». وحدثني ابراهيم بن عبد الله عن أنس بن مالك قال : « دخلنا على قوم من الانصار ، وفيهم فتى عليل ، فلم نخرج من عنده حتى قضى نحبه ، فاذا عجوز عند رأسه ، فالتفت اليها بعض القوم فقال : استسلمي لامر الله واحتسبي ، قالت : أمات ابني ؟ قال : نعم، قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم ، فمدت يدها الى السماء وقالت : اللهم انك تعلم اني اسلمت لك ، وهاجرت الى نبيك محمد صلوات الله عليه ، رجاء ان تغيثني عند كل شدة ، فلا تحملني هذه المصيبة اليوم ، فكشف ابنها الذي سجيناه وجهه ، وما برحنا حتى طعم ، وشرب ، وطعمنا معه ».

وضده ، قال عيسى بن مريم صلوات الله تعالى عليه : « يا معشر الحواريين ان ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل : هو في ثلاث منها واثق ، وهو في الرابعة سيىء الظن يخاف خذلان الله اياه ، فأما المنزلة الاولى فانه خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن ، فاذا أخرج من ظلمة البطن ، وقع في اللبن لا يخطو اليه بقـــدم ولا ساق ، ولا يتناوله بيد ، ولا ينهض اليه بقوة ، بل يكره اليه اكراهاً ، ويؤجر ايجاراً حتى ينبت عليه لحمه ودمه ، فاذا ارتفع عن اللبن ، وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه يكسبان عليه من حلال وحرام ، فان ماتا ، عطف عليه الناس ، هذا يطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يؤويه ، وهذا يكسوه . فاذا وقع في المنزلة الرابعة ، واشتد واستوى ، وكان رجلاً ، خشي ان يرزق ، فيثب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ، ويغصبهم أموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه .

محاسن طلب الرزق

قال عمرو بن عتبة : « من لم يقدّمه الحزم أخّره العجز » ، وقال رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى : « يابن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقـــاً » ، وفي بعض الحديث : « سافروا تغنموا » . وقال الكميت بن زيد الأسدي :

ولن يُزيح همومَ النفسِ إن حضَرَتْ ... حاجاتُ مثلِكَ إلّا الرّحلُ والجَمَلُ

وقال ابو تمام الطائي :

وطول مقام المرء في الحيِّ مُخلِقٌ ... لديباجتيهِ ، فاغترِبْ تتجدَّدِ

فإنّي رأيتُ الشمسَ زيدَتْ محبّةً ... الى النّاسِ أن لَيسَتْ عليهم بسرمَدِ

وقال بعض الحكماء : « لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان ، فان الكريم محتال ، والدنيء عيّال » ، وأنشد :

فسرْ في بلادِ اللهِ والتَمِسِ الغِنى   تَعِشْ ذا يَسارٍ أو تموتَ فتُعْذرا
ولا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بدونٍ ولا تَنَمْ   وكيفَ يَنامُ اللّيلَ مَنْ كانَ مُعْسِرا

وتقول العامة : « كلب جوال خير من أسد رابض » ، وتقول : « من غلى دماغه صائفاً ، غلت قدرُه شاتياً » . ووقع عبدالله بن طاهر : « من سعى رعى ، ومن لزم المنام رأى الاحلام» . هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان فانه يقول : « هرك روذ جرد هرك خسبد خراب ببند » . وأنشد :

كَفى حَزَناً أنَّ النَّوى قَذَفَتْ بنا   بَعيداً وأنَّ الرِّزْقَ أعْيَتْ مَذَاهِبُه
ولوْ أنَّنا إذْ فَرَّقَ الدَّهرُ بيننا   غِنَى واحِدٍ مِنَّا تَمَوَّلَ صاحِبُه
ولكنَّنا مِنْ دَهرِنا في مَؤُونَةٍ   يُكالِبُنا طَوْراً وطَوْراً نُكالِبُه

وقال آخر :

ومَنْ يَكُ مِثْلي ذا عِيالٍ ومُقْتِراً   مِنَ المالِ يَطرَحْ نفْسَه كلَّ مَطْرَحِ
ليَبْلُغَ عُذْراً أو يَنالَ غَنيمةً   ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثلُ مُنْجِحِ

وقال آخر :

وليسَ الرِّزْقُ عَنْ طَلَبٍ حَثيثٍ   ولٰكِن ادل دَلْوَكَ في الدِّلاءِ
تَجِئْكَ بِمِلْئِهـا حيناً وطوْراً   تَجِيْ بِحَمْأةٍ وقليلِ مـاءِ

وضده ، قيل : وجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة ، مكتوب عليه : كُنْ لما لا ترجو ، أرجى منك لما ترجو ؛ فان موسى عليه السلام خرج ليقبس ناراً ، فنودي بالنبوّة» . وبلغنا عن ابن السمّاك أنه قال : « لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض ، وكن اليوم مشغولاً بما أنت مسؤول عنه غداً ، وإياك والفضول ، فان حسابها يطول » . قال الشاعر :

إنّي علمتُ ، وعلمُ المرء ينفعهُ   أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنّيني تطلُّبُـه   ولو قعدتُ ، أتاني لا يعنّيني

وقال آخر :

لعمرُكَ ما كلُّ التعطُّلِ ضائِرُ ... ولا كُلُّ شُغلٍ فيه للمرء منفعَهْ
إذا كانتِ الأرزاقُ في القُرب والنَّوى ... عليك سواء ، فاغتنِمْ لذَّة الدَّعَهْ

وقال آخر :

سهِّلْ عليكَ ، فإنَّ الرزقَ مقدورُ ... وكُلُّ مستأنفٍ في اللوحِ ، مسطورُ
أتى القضاءُ بما فيه لُمدَّتهِ ... وكُلُّ ما لم يكُنْ فيه ، فمحظورُ
لا تكذِبَنَّ فخيرُ القولِ أصدَقُه ... إنَّ الحريصَ على الدُّنيا لَمغرورُ

وقال آخر :

لا تعتِبَنَّ على العبادِ ، فإنَّما ... يأتيكَ رزقُكَ حينَ يؤْذَنُ فيهِ

وقال آخر :

هيَ المقَاديرُ تجْري في أعِنَّتِها ... فاصبِرْ فليسَ لها صَبرٌ على حالِ
يوماً تَرِيشُ خسيسَ القومِ ترْفعُه ... دونَ السَّماءِ ويوْماً تَخفِضُ العالي

وقال آخر :

إصبرْ على زَمَنٍ جَمٍّ نوائبُه ... فليسَ منْ شِدَّةٍ إلا لها فَرَجُ
تَلقاهُ بالأمسِ في عَمْياء مُظلَمَةٍ ... ويُصْبح اليومَ قدْ لاحتْ له السُّرُجُ

وقال آخر :

ألَا رُبَّ راجٍ حاجةً لا ينَالها ... وآخَرَ قدْ تُقْضَى له وَهو آيسُ
يَجولُ لها هذا وتُقْضَى لغيْرِه ... فتأْتي الذي تقْضَى له وَهو جَالسُ

وقال آخر :

فلمَّا أنْ عُنِيتَ بما أُلاقي ... وأعْيَتْني المَسائلُ بالقُروضِ
دَعوتُ اللهَ لا أرْجو سِواهُ ... وربُّ العَرْشِ ذو فَرَجٍ عَريضِ

وقال آخر :

يا صاحبَ الهَمّ إنّ الهمّ مُنفرِجٌ ... أبشِرْ بخيرٍ كأنْ قدْ فرّجَ اللهُ

اليأسُ يَقْطعُ أحياناً بصاحِبه ... لا تَيأسنّ فإنّ الصانِعَ اللهُ

إذا ابتُلِيتَ فثِقْ باللهِ وارْضَ به ... إنْ الذي يَكشُفُ البَلْوَى هوَ اللهُ

وقال آخر :

واذا تُصِبكَ من الحوادث نكبةٌ ... فاصبِرْ ، فكُلّ بليّةٍ تتكشّفُ

محاسن المواعظ

قال الأصمعي : حججت ، فنزلت ضريّة ، فاذا أعرابي قد كوّر عمامته على رأسه ، وقد تنكـّب قوساً ؛ فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ! انما الدنيا دار ممرّ ، والآخرة دار مقرّ . فخذوا من ممرّكم لمقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند مَن يعلم أسراركم . أما بعد ، فانه لن يستقبل أحدٌ يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجَله ؛ فاستعجلوا لأنفسكم لما تقدمون عليه ، لا لما تظعنون عنه ؛ وراقبوا مَن ترجعون إليه ، فانه لا قويّ أقوى من خالق ولا ضعيف أضعف من مخلوق ، ولا مهرب من الله إلا إليه ؛ وكيف يهرب مَن يتقلـّب بين يدي طالبه « وإنما توَفـّون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة ، فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وقال بعض الاعراب : « ان الموت ليقتحم على بني آدم كاقتحام الشيب على الشباب ؛ ومن عرف الدنيا لم يفرح بها فهو خائف ، ولم يحزن فيها على بلوى ؛ ولا طالبَ أغشم من الموت ، ومن عطف عليه الليل والنهار أردَياه ، ومن وكل به الموت أفناه » . وقال أعرابي : « كيف يفرح بممر تنقصه الساعات ، وبسلامة بدنٍ معرّض الآفات ؟ لقد عجبت من المرء يفرّ الموت ، وهو سبيله ، ولا أرى أحداً إلا استدركه الموت » . وقيل : وجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها : « ان حاجة الله الى عباده ان يعرفوه ؛ فمن عرفه لم يعصه طرفة عين . كيف البقاء مع الفناء ، وكيف يأسى المرء على ما فاته ، والموتُ يطلبه » ؟ وقال كسرى : « لم يكن من حق علمه ان يقتل واني لنادم على ذلك[1] ... قال : وحضرت الوفاة رجلاً من حكماء

---

١ — يبدو ان في العبارة نقصاً ، وقد وردت على هذه الصورة في أصل نسخة الكتاب .

فارس فقيل له : « كيف حالك » ؟ قال : « كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ، ويقدم على ملك عادل بغير حجة ، ويسكن قبراً موحشاً بغير أنيس » ؟

وضده ، قيل : لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، جزع أبوه عليه جزعاً شديداً ، فقال ذات يوم لمن حضره : « هل من منشد شعراً يعزيني به أو واعظ يخفف عني فأتسلى به » ؟ فقال رجل من أهل الشام : « يا أمير المؤمنين كل خليل مفارق خليله بأن يموت او يذهب الى مكان » ، فتبسم عمر بن عبد العزيز وقال : « مصيبتي فيك زادتني الى مصيبتي مصيبة » .

وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة ، وعنده رسول لعبد الملك بن مروان ، فقال : « ليت اني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتي » ، فقال له الرسول : « أقول » ، قال : « قل » قال : «كل انسان مفارق صاحبه بموت او بصلب او بنار تقع عليه من فوق البيت، او يقع عليه البيت، او يسقط في بئر، او يغشى عليه او يكون شيء لا يعرفه » . فضحك الحجاج وقال : « مصيبتي في أمير المؤمنين اعظم حين وجه مثلك رسولاً » .

محاسن فضل الدنيا

قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : « الدنيا دارُ صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن لها عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد انبياء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته ، ومتجر أوليائه يكسبون فيها الرحمة ، ويربحون فيها الجنة، فمن ذا يذمّها ؟ وقد آذنت ببنيها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها ، وشوقت بسرورها الى السرور ، وببلائها الى البلاء تخويفاً وتحذيراً ، وترغيباً وترهيباً . فيا أيها الذام للدنيا والمفتتن بغرورها متى غرتك : أبمصارع آبائك من البلى ، ام بمضاجع امهاتك تحت الثرى ؟ كم علات بكفيك ، وكم مرضت بيديك ؟ تبتغي لهم الشفاء ، وتستوصف لهم الاطباء، وتلتمس لهم الدواء؟ لم تنفعهم بطلبتك، ولم تشفعهم بشفاعتك، ولم تستشفهم باستشفائك بطبك . مثلت بهم الدنيا مصرعك ومضجعك ، حيث لا ينفعك بطاؤك ، ولا يُغني عنك أحباؤك » .

ثم التفت الى قبورٍ هناك ، فقال : « يا أهل الثراء والعزّ ، الأزواج قد نكحت ، والأموال قد قسمت ، والدور قد سكنت . هذا خير ما عندنا ، فما خير ما عندكم » ؟ ثم قال لمن حضر : « والله ، لو أذِن لهم لأجابوا بأن خير الزاد التقوى » ، وأنشد :

ما أحسنَ الدُّنيا وإقبالها   إذا أطاع اللهُ مَن نالها

مَن لم يواسِ الناسَ من فضلِها   عرّض للإدبارِ إقبالَهـــا

قال ابو حازم : « الدنيا طالبة ومطلوبة . طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه منها ، وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه » . وقال الحسن البصري : « بينا أنا أطوف بالبيت ، اذا أنا بعجوز متعبّدة ، فقلت : « مَن أنتِ » ؟ فقالت : « من بنات ملوك غسان » ، قلت : « فمن أين طعامك » ؟ قالت : « اذا كان آخر النهار ، جاءتني امرأة متزينة ، فتضع بين يدي كوزاً من ماء، ورغيفين» ، قلت لها : « أتعرفينها » ؟ قالت : « اللهم لا» . قلت : « هي الدنيا خدمت ربك ، جلّ ذكره ، فبعث اليك الدنيا فخدمتك » .

وضده ، زعموا ان زياد بن أبيه مرّ بالجدة ، فنظر الى دير هناك ، فقال لخادمه : « لمـــن هذا » ؟ قيل له : « هـــذا دير حرقة بنت النعمان بن المنذر » ، فقال : « ميلوا بنا اليه نسمع كلامها » ، فجاءت الى وراء الباب فكلمها الخادم فقال لها : « كلمي الأمير ». فقالت : « أأوجز أم أطيل » ؟ قال : « بل أوجزي » ، قالت : « كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما على الأرض أحد أعز منا ، وما غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدونا » ، قال : فأمر لها بأوساق من شعير ، فقالت : « أطعمتك يد شبعاء جاعت ، ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت » ، فسر زياد بكلامها ، فقال لشاعر معه : قيد هذا الكلام ليدرس ، فقال :

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الخيرِ قِدْماً ولا تَسَلْ فتىً ذاقَ طَعْمَ الْخَيْرِ مُنذُ قريبِ

ويقال : إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى الى دير حرقة بنت النعمان ، فألفاها وهي تبكي ، فقال لها : « ما يبكيك » ؟ قالت : « ما من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت بعد ذلك تبوراً » ، ثم قالت :

فبينا نَسوسُ النَاسَ والأَمرُ أمرُنا إذا نَحْنُ فيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

فأُفٍّ لدُنيـــا لا يَدومُ نَعيمُها تَقَلَّبُ تاراتٍ بِنا وتَصَرَّفُ

قال : وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن ابي وقاص : « لا جعل الله لك الى لئيم حاجة ، ولا زالت لكريم اليك حاجة ، وعقد لك المنن في أعناق الكرام، ولا أزال بك عن كريم نعمة، ولا أزالها بغيرك إلا جعلك سبباً لردها عليه » .

قال : وقال عبدالله بن مروان لسلم بن يزيد الفهمي : « اي الزمان أدركت أفضـــل وأي ملوكه أكمل » ؟ قال : « أما الملوك فلم أرَ إلا ذامّاً وحامداً، وأما الزمان فرفع أقواماً ووضع آخرين ، وكلهم يذم زمانه لأنه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم ، وكل ما فيه منقطع إلا الأمل » ، قال : « فأخبرني عن فهم » ، قال : هم كما قال الشاعر :

دَرَجَ اللَّيْلُ والنَّهارُ على قَوْ م بْنِ عَمْرٍو فأصْبَحوا كالرَّميمِ
وخَلَتْ دارُهُمْ فأضْحَتْ قِفاراً بَعْـــدَ عِزٍّ وثَرْوَةٍ ونَعيمِ
وكَذاكَ الزَّمانُ يَذْهَبُ بالنَّا سِ وتَبقَى دِيارُهُمْ كالرُّسومِ

قال : فمن يقول منكم :

رأيتُ النَّاسَ مُذ خُلِقوا وكانوا يُحِبُّونَ الغَنيَّ مِنَ الرِّجَــالِ
وإنْ كانَ الغنيُ أقلَّ خيراً بَخيلاً بالقَليلِ مِنَ النَّــوَالِ
فلا أدْرِي عَلامَ وفيمَ هذا وماذا يَرْتَجونَ مَنَ المُحالِ
أَلِلدُّنيا فليسَ هُناكَ دُنيــا ولا يُرْجَى لِحادِثَةِ اللَّيالي

قال : انا، وقد كتمتها. قال: ولما دخل علي صلوات الله عليه المدائن فنظر الى إيوان كسرى أنشد بعض من حضره قول الأسود بن يعفر :

ماذا يؤمِّلُ بعْدَ آلِ مُحرِّقٍ تَرَكوا مَنازِلَهمْ وبَعْدَ إيادِ
أهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ وبارِقٍ والقَصْرِ ذي الشرُفاتِ من سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأنْقِرَةٍ يَسيلُ عَلَيهِمُ ماءُ الفُراتِ يَجيءُ مِنْ أطْوادِ
أرْضٌ تَخيَّرَها لِطيبِ نسيمِها كَعْبُ بْنُ مامَةَ وابْنُ أُمِّ دُوادِ
جَرَتِ الرِّياحُ عَلى مَحلِّ دِيارِهِمْ فكأنَّمــا كانوا عَلى ميعادِ
فإذا النعيمُ وكُلُّ ما يُلْهَى بهِ يوماً يصيرُ الى بِــلىً ونفادِ

وقال عليّ صلوات الله عليه: « أبلغ من ذلك قول الله تعالى : « كم تركوا من جناتٍ وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك ، وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

وقال عبد الله المعتزّ : « أهل الدنيا كرَكْبٍ ، يُسارُ بهم ، وهم نيام » . وقال غيره : « طلاق الدنيا مهر الجنة » ، وذكروا أن اعرابياً ذكر الدنيا ، فقال : « هي جمّة المصائب ، رنقة المشارب » . وقال آخر : « الدنيا لا تمتعك بصاحب » . قال أبو الدرداء : « من هوان الدنيا على الله تعالى انه لا يُعصى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها » وقال : « اذا أقبلت الدنيا على امريء أعارته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » . وقال الشاعر :

أيا دُنيا حَسَرْتِ لَنــا قِناعاً ... وكان جمالُ وجهكِ في النّقابِ
ديارٌ طالمــا حُجبَتْ وعَزّتْ ... فأصبحَ إذنُها سهلَ الحجابِ
وقد كانت لنا الأيامُ ذَلّتْ ... فقد قُرِنَتْ بأيّامٍ صعابِ
كأنَّ العيشَ فيها كان ظلاً ... يُقلّبُه الزّمانُ إلى ذهابِ

قال الاصمعي : وُجد في دار سليمان بن داود ، عليه السلام ، على قبّتة مكتوباً :

ومَن يَحْمَدِ الدُّنيا لشيءٍ يَسُرُّهُ ... فسوفَ لعَمْري عَنْ قريبٍ يلومُها
إذا أدْبَرَتْ كانَتْ على المَرْءِ حَسْرَةً ... وإنْ أقْبَلَتْ كانتْ كثيراً هُمومُها

وكان ابراهيم بن أدهم ينشد :

نُرَقِّعُ دُنيــانا بِتَمْزيقِ دينِنا ... فلا دِينُنا يَبْقى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال ابو العتاهية :

يا مَنْ تَرَفَّعَ بالدُّنيا وزينَتِها ... لَيْسَ التَّرَفّعُ رَفْعَ الطِّينِ بالطِّينِ
إذا أرَدْتَ شَريفَ القَوْمِ كُلِّهِمِ ... فانْظُرْ إلى مَلِكٍ في زيٍّ مِسكِينِ
ذاكَ الّذي عَظُمَتْ في النّاسِ هِمَّتُهُ ... وذاكَ يَصلُحُ لِلدُّنيــا ولِلدِّينِ

وقال آخر :

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إلَيْكَ عَفْواً ... ألَيْسَ مَصيرُ ذاكَ إلى زَوَالِ

وقال محمود الوراق :

هيَ الدُّنيا فَلا يَغْرُرْكَ مِنْها ... مَخائِلُ تَسْتَفِزُّ ذوي العقُولِ
أقَلُّ قَليلِهــا يَكفيكَ مِنها ... وَلكِنْ لَسْتَ تَقْنَعُ بِالْقَليلِ
تُشيدُ وتَبْتَني في كُلِّ يَوْمٍ ... وأنْتَ عَلى التَّجَهُّزِ لِلرَّحيلِ
ومِنْ هذا عَلى الأيّامِ تَبْقَى ... مَضارِبُهُ بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

وقال آخر :

دُنيا تداولَها العبـــادُ ذميمةٌ   شيبَتْ بأكرَه من نقيعِ الحنظلِ
وثباتُ دُنيا مـــا تزالُ مُلِمَّةً   منها فجائِعُ مثلُ وقعِ الجندلِ

وقال آخر :

حتى متى أنت في دُنياكَ مشتغِلٌ   وعاملُ اللهِ بالرَّحْمٰنِ مشغولُ

وقال ابو نواس الحسن بن هانيء :

دعِ الحِرصَ على الدُّنيا   وفي العيشِ فلا تطمَعْ
ولا تجمَع لكَ المـــالَ   فما تدري لِمَنْ تجمَعْ
ولا تـــدري أفي أرضِـ   ـكَ أم في غيرِها تُصرَعْ ؟

قال الأصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء وهو يقول : بينا أنا أدور في بعض البراري ، اذا أنا بصوت :

وإنَّ امرأً دُنياهُ أكـــثَرُ همّهِ   لَمستَمْسِكٌ منها بحبلِ غُرورِ

فقلت : « أإنسيٌّ أم جنّي ؟ » ، فلم يجبني ، فنقشته على خاتمي .

قال : وسمع يحي بن خالد بيت العدويّ في وصفه الدنيا :

حتوفُها رصدٌ ، وعيشُها نَكَدٌ   وشُربُها رَنَقٌ ، وملكُها دُوَلُ

فقال : « لقد نظن في هذا البيت صفة الدنيا » . قال : وسمع المأمون بيت أبي نواس :

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشّفَتْ   له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

فقال : « لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفت نفسها كصفة أبي نواس » . وقيل للحسن البصري : « مـــا تقول في الدنيا » ؟ قال : « ما أقول في دار ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب » ، فقيل : « ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا » . قال : « بلى ، كلام عمر بن عبد العزيز ، كتب اليه عدي بن أرطأة : «وهي على حمص ، قد تهدمت واحتاجت الى صلاح حيطانها» ، فكتب اليه : « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم ، والسلام » .

قال محمد بن الحسن عن أبي همام ، وكان قد عرف ضيغماً : كنت معه في طريق مكة ، فلما بعدنا في الرمل ، نظر الى ما تلقى الابل من شدة الحر ، فبكى ضيغم ، فقلت : « لو دعوت الله ان يمطر علينا ، كان أخف على هذه الابل » ، قال : فنظر الى السماء وقال : «ان شاء الله فعل» قال : « فوالله ما كان الا أن تكلم ، حتى نشأت سحابة ، فهطلت » .

وعن عطاء بن يسار ان أبا مسلم الخولاني خرج الى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى النجارين ، فملأ مزوده من نشارة الخشب ، وأتى منزله فألقاه ، وخرج هارباً من أهله ، فاتخذت المرأة المزود فاذا دقيق حواري ، لم تر مثله فعجنته وخبزته ، فلما جاء قال : « أين لك هذا » ؟ قالت : « الدقيق الذي جئت به » .

وعن أبي عبدالله القرشي ، عن صديق له قال : دخلت بئر زمزم فاذا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن ، فلما شرب أرسل الدلو ، فأخذته ، فشربت فضلته ، فاذا هو سويق لم أر أطيب منه ؛ فلما كانت القابلة في ذلك الوقت جاء الرجل ، وقد أسبل ثوبه على وجهه ، ونزع الدلو فشرب ثم ارسله فأخذته فشربت فضلته فاذا هو ماء مضروب بالعسل ، لم أرَ شيئاً قط أطيب منه ، فأردت أن آخذ طرف ثوبه فانظر من هو ففاتني ، فلما كان في الليلة الثالثة قعدت قبالة زمزم في ذلك الوقت ، فجاء الرجل ، وقد أسبل ثوبه على وجهه ، فنزع الدلو ، فشرب ، وأرسله ، وأخذته ، وشربت فضلته ، فاذا هو اطيب من الأول ، فقلت : « يا هذا أسألك بربّ هـذه البنيّة من انت » ؟ قال : « تكتم علي حتى الموت » ؟ قلت : « نعم » . قال لي : « انا سفيان الثوري ، وكانت تلك الشربة تكفيني اذا شربتها الى مثلها لا اجد جوعاً ولا عطشاً » . وقال الاصمعي : « أرأيت اعرابياً يكدح جبهته في الارض يريد ان تجعل سجادة » . فقلت : « ما تصنع » ؟ قال : « اني وجدت الأثر في وجه الرجل الصالح » .

وقال الشاعر :

كيف يبكي لمحبس في طلولِ ... مَن سيقضي ليوم حبس طويلِ
إنَّ في البعث والحسابِ لشُغلاً ... عن وقوفٍ برسم ربعٍ مُحيلِ

وقال آخر :

إنَّ الشقيّ الذي في النار منزلهُ ... والفوزُ فوزُ الذي ينجو منَ النارِ

يا ربّ أسرفتُ في ذنبي ومعصيتي   وقد علِمتُ يقيناً سوء آثاري
فاغفِرْ ذنوباً إلهي قد أحطتَ بها   ربُّ العبادِ ، وزحزحني عن النّارِ

وقال ذو الرمة :

تَعصي الإله وأنتَ تُظهرُ حُبَّهُ   هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأَطعتَهُ   إنّ المحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ يطيعُ[1]

وقال ابو نواس :

أيا عجباً كيف يُعصى الإلٰهُ   أم كيف يجحدهُ الجـاحدُ
ولله في كلّ تحريكةٍ   وتسكينةٍ فاعلَمَنْ شاهِدُ
وفي كلّ شيءٍ لهُ آيـةٌ   تَدُلُّ على أنّهُ واحِـدُ

وقال ايضاً :

سُبحانَ مَنْ خَلَقَ الخَلْـ   قَ مِنْ ضَعيفٍ مَهينِ
يَسوقُهُمْ مِـنْ قَرارٍ   إلى قَرارٍ مَكينِ
يَحُوزُ خلقـاً فخَلْقاً   في الحَجْبِ دُونَ العُيونِ
حتّى بَدَتْ حرَكاتٌ   مَخلوقـةٌ مِنْ سُكونِ

وقال آخر :

أخي ما بالُ قَلبِكَ ليسَ يَنْقى   كأنّكَ ما تَظُنُّ الموْتَ حَقّا
الَا يابنَ الذينَ مضَوْا وبادُوا   أما واللهِ ما ذَهبوا لِتَبقَى
ومالَكَ غيرَ تَقوَى اللهِ زَادٌ   إذا جَعلَتْ إلى اللّهَواتِ تَرْقَى

---

١ ـ وهذان البيتان ينسبان الى النابغة الذبياني ، وقـد اثبتناهما في ديوانه الذي حققناه ونشرناه في الشركة اللبنانية للكتاب سنة ١٩٦٩ .

وقال آخر :

يا قلبُ مَهْلاً وكنْ على حَذَرِ   فقدْ لَعَمْرِي أُمِرْتُ بالْحَذَرِ
مالَكَ بالتُّرَّهاتِ مُشْتَغلاً   أفي يَدَيْكَ الأمانُ مِنْ سَقَرِ

وقال آخر :

إنْ كُنْتَ تُؤْمن بالْقِيامَةِ   واجْتَرَأْتَ عَلى الْخَطيَّه
فلَقدْ هَلَكْتَ وإنْ جَحَدْ   تَ فذاكَ أعْظَمُ لِلْبَلِيَّه

وقال آخر :

وأفنيةُ الملوكِ محجَّباتٌ   وبابُ الله مبذولُ الفناء
فما أرجو سواهُ لكشفِ ضُرّي   ولا أفزعْ[1] الى غيرِ الدعاء
ولا أدعو الى اللإواء كهفاً   سوى من لا يَصِمُّ عن الدُّعاء

وضده ، قيل : كان جندي بقزوين يصلي في بعض المساجد ، فافتقده المؤذن أياماً ، فصار اليه ، وقرع بابه عليه ، فخرج اليه ، فقال له المؤذن : « أبو مَن » ؟ قال: « ابو الجحيم » ، قال : « بئس ، يا هذا ردّ الباب » . قال : وقيل للقيني : « ما أيسر ذنبك » ؟ قال : « ليلة الدير » . قيل له : « وما ليلة الدير » ؟ قال : « نزلتُ بدير نصرانية فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير، وشربت خمرها ، وفجرتُ بها ، وسرقت كساءها ، وخرجت[2]» .

قيل اتى خمسة من الفتيان الى قرية ، فنزلوا على باب خان ، فقام احدهم يصلي ، والباقون جلوس ، فمرّت بهم نبطية ، فقالوا : « دلّينا على قحبة » ، قالت : « نعم ، كم انتم » ؟ قالوا : « نحن أربعة » ، فأومى الذي يصلي ، بيده : سبحان الله ! أنا الخامس » . وقال الشاعر :

وإنّني في الصلاة أحضُرُها   ضحكةٌ أهل الصلاةِ إن شهدوا
أقعُدُ في سَجْدَةٍ إذا رَكَعوا   وأرْفَعُ الرَّأسَ إنْ هُمُ سَجَدوا

---

١ – الفعل المضارع جُزم بدون عامل يجزمه .

٢ – يذكر ابن قتيبة هذه القصة ، في كتابه ، لأبي الطمحان القيني ، وينسبها بعضهم الى الفرزدق ، وفي ذلك يقول جرير :

وكنت اذا نزلت بدار قومٍ   رحلتَ بخزيةٍ ، وتركتَ عاراً

أسجُدُ والقَوْمُ راكِعونَ معاً وأسرعُ الوَثْبَ إنْ هُمُ قَعدوا
فلَسْتُ أدرِي إذا هُم فَرَغوا كَمْ كانَ تِلْكَ الصَّلاةُ والعَدَدُ

وقال آخر :

وأصــلِّي فأغلَطُ الدَّهرَ فيا بَيْنَ سَبْعٍ وأرْبَعٍ وثمانِ
ومَواقيتُ حينِها لَسْتُ أدرِي ما أذانٌ مُوَقَّتٌ مِنْ أذانِ

وقال آخر :

نِعْمَ الفَتَى لوْ كانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ويُقِيمُ وَقْتَ صلاتِهِ حَمّــادُ
عَدَلَتْ مَشافِرُهُ الدِّنانْ فأنفُهُ مِثْلُ القَدومِ يَسُنُّهُ الحَدَّادُ
فابْيَضَّ مِنْ شُرْبِ المُدامَةِ وجْهُهُ فَبياضُهُ يوْمَ الحِسابِ سَوادُ

وقال آخر :

إنْ قَرَأَ العادِياتِ في رَجَبٍ لمْ يَغْدُ مِنْها إلّا إلى رَجَبِ
بَلْ نَحْنُ لا نَستَطيعُ في سَنَةٍ نَخْتِمُ تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبِ

محاسن النساء العاديات

قيل : كان رسول الله ﷺ يستحسن قول الخنساء في صخر اخيها :

لا بُدَّ مِنْ مَيْتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ والدَّهرُ مِنْ شأْنِهِ حَوْلٌ وإضْرارُ
وإنَّ صَخْراً لَتأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ كأنَّــهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

وقيل للخنساء : « صفي لنا صخراً » ؟ فقالت : « كان مطر السنة الغبراء ، وذعاف الكتيبة الحمراء » . قيل : « فمعاوية » ؟ قالت : « حياء الجدبة اذا نزل ، وقرى الضيف اذا حل » . قيل : « فأيهما كان عليك أحنى » ؟ قالت : أما صخر فسقام الجسد ، وأمــا معاوية فجمرة الكبد، وأنشدت :

أَسدانِ مُحْمَرَّا المَخالِبِ نَجْدَةً ... غَيْثانِ في الزَّمَنِ الغَضوبِ الأَعْسَرِ

قَمَران في النَّادِي رَفِيعا مَحتِدٍ ... في المَجْدِ فَرْعَا سُؤْدَدٍ مُتخَيَّرِ

وروي انهـــا دخلت على عائشة أم المؤمنين ، وعليها صدار من شعر ، فقالت لها عائشة : اتتخذين الصدار ، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ » ؟ فقالت : « يا أم المؤمنين ! إن زوجي كان رجلاً متلافاً منفقاً ، فقال لي : لو أتيت معاوية فاستعنته ، فخرجت وقد لقيني صخر ، فأخبرته فشاطرني ماله ثلاث مرات ، فقالت له امرأته : لو اعطيتها من شرارها – تعني الابل – فقال :

تاللهِ لا أَمْنَحُها شِرارَها ... وهْيَ حَصانٌ قد كَفَتْني عارَها

وإنْ هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمارَها ... واتَّخَذَتْ مِنَ شَعْرٍ صِدارَها

فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ، ونذرت ان لا أنزعه حتى أموت » . قال ثور بن معن السلمي : حدثني أبي قال : دخلت على الخنساء في الجاهلية وعليها صدار من شعر ، وهي تجهز ابنتها ، فكلمتها في طرح الصدار ، فقالت : « يا حمقاء والله لأنا أحسن منك عرساً ، وأطيب منك درساً ، وأرق منك نعلاً ، وأكرم منك بعلاً » . قال عبد الرحمن بن مرة عن بعض اشياخه ان عمر بن الخطاب قال للخنساء : « ما أقرح مآقي عينيك » ؟ قالت : « بكائي على السادات من مضر » ، قال : « يا خنساء انهم في النار » ، قالت : « ذلك أطول لعويلي » . ومما اخترنا من اشعارها قولها :

تَعَرَّقَني الدَّهْرُ قَرْعاً وغَمْزاً ... وأَوْجَعَني الدَّهْرُ نَهْشاً ووَخْزا

وأَفْنى رِجـــالي فَبادوا مَعاً ... فأَصْبَحَ قَلْبي لَهُـــمْ مُسْتَفَزَّا

كأَنْ لَمْ يكونوا حِمًى يُتَّقَى ... إذِ النَّاسُ إذ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

وكانوا سَراةَ بني مالِـــكٍ ... وزَيْنَ العَشيرَةِ مَجْداً وعِزَّا

وهُمْ في القَديمِ صِحاحُ الأَديـ ... ـمِ والكائِنونَ مِنَ النَّاسِ حِرْزا

بِسُمْرِ الرِّماحِ وبِيضِ الصِّفاحِ ... فبِالبِيضِ ضَرْباً وبِالسُّمْرِ وَخْزا

حَزَزْنا نَواصِيَ فُرْسانِكُمْ ... وكانوا يَظُنُّونَ أَنْ لا تُحَزَّا

ومَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقي الحُروب ... بأَنْ لا يُصابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزا

نَعِفُّ ونَعْرِفُ حَقَّ القِرَى   ونَتَّخِذُ الحَمْدَ ذُخراً وكَنْزا
ونَلْبَسُ في الحَرْبِ نَسْجَ الحَدِيدِ   وفي السِّلْمِ نَلبَسُ خَزّاً وقَزّا

وروي خبر الخنساء من جهة اخرى : ذكروا انها أقبلت حاجّة ، فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها ، فأتوا عمر بن الخطاب ، فقالوا : « هذه خنساء ، فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والاسلام » ، فقام عمر وأتاها وقال : « يا خنساء » ، قال : فرفعت رأسها ، فقالت : « ما تشاء وما الذي تريد » ؟ فقال : « ما الذي أقرح مآقي عينيك » ؟ قالت : « البكاء على سادات مضر » . قال : « انهم هلكوا في الجاهلية ، وهم اعضاد اللهب ، وحشو جهنم » ، قالت : « فداك أبي وأمي ، فذلك الذي زادني وجعاً » ، قال : « فأنشديني ما قلت » ، قالت : « أما أني لا انشدك ما قلت قبل اليوم ، ولكني انشدك ما قلته الساعة » ، فقالت :

سَقَى جَدَثاً أعراقُ غَمْرَةَ دونَهُ   وبيشَةَ دِيماتُ الرَّبيعِ ووابِلُه
وكنتُ أُعيرُ الدَّمعَ قبلَكَ مَنْ بَكَى   فأنتَ على مَنْ ماتَ قبلَكَ شاغِلُه
وأرْعيهِمُ سَمْعِي إذا ذكَروا الأسَى   وفي الصَّدْرِ مِنّي زَفْرَةٌ لا تُزايلُه

فقال عمر : دعوها فانها لا تزال حزينة ابداً .

ليلى الأخيلية هجاها رجل من قومها فقال :

ألا حَيِّيا لَيْلى وقولا لَها هَلا   فَقَدْ رَكِبتْ ايراً أغرَّ مُحَجَّلا

فأجابته :

تُعَيِّرُني داءً بأُمِّـــكَ مِثْلُهُ   وأيُّ جَوادٍ لا يُقالُ لَه هَلا

ذكروا انها دخلت على عبد الملك بن مروان ، فقال لها : « يا ليلى هل بقي في قلبك من حب توبة ، فتى الفتيان ، شيء » ؟ قالت : « وكيف أنساه » ؟ وهو الذي يقول يا أمير المؤمنين :

ولَوْ أن لَيْلى في ذُرَى مُتَمَنِّعٍ   بِنَجْرانَ لالْتَفَّتْ عَلَيَّ قُصورُها
حَمامَةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمي   سَقاكِ مِنَ الغرِّ الغَوادِي مَطيرُها
أبيني لَنا لا زالَ ريشُكِ ناعماً [1]   وبَيْضُكِ في خَضْراءَ غُصْنٍ نَضيرُها

---

١ – أما رواية أبي علي القالي فهي : « ولا زلت في خضراء غض نضيرها »

تَقولُ رِجالٌ لا يَضيرُكَ نأيُها ... بَلىٰ كُلُّ ما شَفَّ النفوسَ يَضيرُها

أيَذْهَبُ رَيْعانُ الشَّبابِ ولمْ أزُرْ ... كَوَاعِبَ في هَمْدانَ بِيضاً نُحورُها

قال : « عمرك الله ان تذكيه » . ولتوبة في ليلى الاخيلية :

ولَوْ أنَّ لَيْلىٰ الأخْيَلِيَّة سَلَّمَتْ ... عَليّ ودوني جَنْدَلٌ وَصفائِحُ

لَسَلَّمتُ تَسْلِيمَ ٱلبَشاشَةِ أوْ زَقَا ... إلَيْها صَدىً مِنْ جانِبِ ٱلقَبْرِ صائِحُ

وَلَوْ أنَّ لَيْلىٰ في السماءِ لأَصعَدَتْ ... بِطَرْفي إلى لَيْلىٰ ٱلعُيُونُ اللَّوامِحُ

فلما مات توبة ، مر زوج ليلى بليلى على قبره ، فقال لها : « سلمي على توبة فانه زعم في شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة » ، فقالت : « ما تريد الى من بليت عظامه » ، فقال : « والله لتفعلن » ، فقالت وهي على البعير : « سلام عليك يا توبة، فتى الفتيان » . وكانت قطاة مستظلة في ثقب من ثقب القبر ، فلما سمعت الصوت ، طارت وصاحت ، فنفر البعير ورمى بليلى فماتت ، فدفنت الى جنب قبر توبة . قال : وسأل الحجاج ليلى : « هل كان بينك وبين توبة ريبة قط » ؟ قالت: «لا والذي اسأله صلاحك ألا أنه مرة قال لي قولاً ظننت انه خنع لبعض الأمر» فقلت له:

وذِي حاجَةٍ قُلْنا لَهُ لا تَبُحْ بِها ... فليسَ إليها مــــا حَييتُ سَبيلُ

لَنا صاحِبٌ لا يَنْبغي أنْ نَخونَهُ ... وأنتَ لِأُخرى فارِغٌ وخَليلُ

فما كلمني بعد ذلك بشيء ، حتى فرق بيني وبينه الموت .

قال الحجاج : « فما كان بعد ذلك » ؟ قالت : لم يلبث ان قال لصاحب له : اذا اتيت الحاضر من بني عباد فقل بأعلى صوتك :

عَفا اللهُ عنها هَلْ أبيتَنَّ لَيلَةً ... مِنَ الدَّهرِ لا يَسْري إلَيَّ خيالُها

فلما سمعت الصوت ، خرجت ، فقلت :

وعنهُ عَفا ربِّي وأحسَنَ حالَهُ ... تَعِزُّ علَيْنا حاجَةٌ لا يَنالُها

قال : ودخلت ليلى على الحجاج فأنشدته قولها فيه :

إذا نَزَلَ الحَجّاجُ أرْضاً سَقيمَةً ... تَتَبَّــعَ أقْصَى دائِها فَشفاها

شَفاها مِنَ الدّاءِ ٱلعُضالِ الذي بها ... غُـلامٌ إذا هَزَّ ٱلقَناةَ ثَناها
أَحَجّاجُ لا تُعطِي ٱلعُصاةَ مُناهُمُ ... ولا اللهُ يُعطِي لِلْعُصاةِ مُناها

فوصلها الحجاج بألف دينار ، وقال : لو قلت : « بدل غلام همام لكان احسن » .

هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان قيل : لما قتل شيبة وعتبة ، ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، رثتهم هند فقالت :

إنّي رَأَيتُ فساداً بَعدَ إصْلاحِ ... في عَبْدِ شَمْسٍ فقلبي غَيْرُ مُرتاحِ
هاجَتْ لهمْ أدْمعٌ تَتْرَى ومَنبَعُها ... مِنْ رأسِ مَحْروبَةٍ ما إنْ لها لاحي
لَمّا تَنادَتْ بَنو فِهرٍ عَلى حَنَقٍ ... والموْتُ بَيْنَهُمُ ساعٍ لِأَرْواحِ
كأنّمـــا النَّسْجُ في قَتْلى مُصَرَّعَةٍ ... سُرُجٌ أضاءتْ على جُذرٍ وألْوَاحِ
يا آلَ هاشِمٍ إنّا لا نُصالِحُكمْ ... حَتى نَرَى الخَيْلَ تَرْدِي كلَّ كَفّاحِ
إنْ يُمكِنِ اللهُ يَوْماً مِنْ هَزيمَتِكم ... يورِثْ نِســاءَكُم داءَ بِتَقْراحِ

فأجابتها عمرة بنت عبدالله بن رواحة الانصاري :

يا هِنْدُ مَهْلاً لَقَدْ لاقَيتِ مُهْلَةً ... يَوْمَ الأَعِنَّةِ والأَرْواحُ في الرّاحِ
أُسْدٌ غَطارِفَةٌ غُرٌّ جَحاجِحَةٌ ... أَبناءُ مُحْصِنَةٍ بِيضٌ لِجَحْجاحِ
هُنالِكَ ٱلفَوْزُ والرِّضْوانُ إنْ صَبَروا ... مَعَ الرَّسولِ فَما آبوا بِتَقْباحِ
اللهُ أَهلَكَهُمْ والأَوْسُ شاهِدَةٌ ... والْخَزْرَجُ ٱلغُرُّ فيهِمْ كلُّ مُجْتاحِ
لا تَبْعدَنَّ فإنّي غيْرُ صارخَةٍ ... وكَيْفَ تَصْرُخُ ذاتُ ٱلبَعْلِ: يا صاحِ

النساء الماجنات

قال سليمان بن عبد الملك : « أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء » ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين سار رجـــل من الظرفاء في بعض طرقاته ، اذ اخذته السماء ، فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر ، وجارية مشرفة عليه ، فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال :

لَوْ بِتُفَّاحَـــةٍ رَمَيْتِ رَجونا ومِنَ الرَّمي بِالْحَصاةِ جَفـــاءُ

فأجابته :

ما جَهِلْنا الذي ذَكَرْتَ مِنَ الشَّكْلِ ولا بالذي نَراهُ خَفـــاءُ

ودابة معها ، فقالت :

قَدْ بَدَأْتِيهِ ما ذَكَرْتِ وجَدِّي لَيتَ شِعْري فَهَلْ لِهٰذا وَفاءُ[1]

وسائلة في الباب ، فقالت :

قَدْ لَعَمْري دَعَوْتَها فأجابَتْ هِيَ داءٌ ، وأنتَ مِنه شِفاءُ

قال سليمان : « قاتلها الله هي والله أشعرهم » .

عنان جارية الناطفي ، قال السلولي : دخلت يوماً على عنان وعندها رجل اعرابي ، فقالت: « أيا عم لقد أتى الله بك » ، قلت : « وما ذاك » ؟ قالت : « هذا الاعرابي دخل علي فقال : « بلغني انك تقولين الشعر فقولي بيتاً » ، فقلت لها : « قولي » ، فقالت : « قد رتج علي ، فقل انت » ، فقلت :

لَقَدْ جَدَّ ٱلْفِراقُ وعيلَ صَبْري عَشِيَّةَ عِيرُهُمْ لِلْبَـــيْنِ زُمَّتْ

فقال الاعرابي :

نَظَرْتُ إلى أوَاخِرِها ضُحَيًّا وقَدْ بانَتْ وأرْضَ الشَّامِ أَمَّتْ

فقالت عنان :

كَتَمْتُ هَواكُمُ في الصَّدْرِ مِنِّي على أنَّ الدُّموعَ عَلَيَّ نَمَّتْ

فقال الاعرابي : « انت والله اشعرنا ، ولولا انك بحرمـــة رجل لقبلتك ، ولكني اقبل البساط » . وقال بعضهم : دخلت عليّ عنان فاذا عليها قميص يكاد يقطر صبغة وقد تناولها مولاها بضرب شديد وهي تبكي فقلت :

إنَّ عِنـــاناً أَرْسَلَتْ دَمْعَهـــا كالدُّرِّ إذْ يَنْسَلُّ مِـــنْ سَمْطِهِ

فقالت واشارت الى مولاها :

فَلَيْتَ مَنْ يَضْرِبُها ظـــالِماً تَجِفُّ يُمْنـــاهُ عَلى سَوْطِـــهِ

---

١ — والأصح « بدأتِه » أما « بدأتيه » فلا نرى لها وجهاً .

فقال مولاها : « هي حرة لوجه الله ان ضربتها ظالماً او غير ظالم » .

قال : واجتمع ابو نواس ، والفضل الرقاشي ، والحسين الخليع ، وعمرو الوراق ، ومحكم بن رزين ، والحسين الخياط في منزل عنان فتناشدوا الى وقت العصر ، فلما ارادوا الانصراف قالوا: «أين نحن الليلة» ؟ فكل قال: « عندي » ؟ فقالت عنان: « بالله قولوا شعراً وارضوا بحكمي » فقال الرقاشي :

عذراءُ ذاتُ انْحِمرارِ إني بها لا أحاشي
قوموا نَدَاماي رَوُّوا مُشاشكم من مُشاشي
وناطِحوني كئوساً نِطاحَ صُلْبِ الكِباشِ
وإنْ نَكَلْتُ فحِلٌّ لكمْ دَمي ورِياشي

فقال أبو نواس :

لا بل إليَّ ثِقاتي قوموا بنا بحَياتي
قوموا نَلَذُّ جميعاً بقولِ هاكِ وهاتِ
فإنْ أرَدْتمْ فَتاةً أَتيتُكُمْ بفتاتي
وإنْ أرَدْتم غُلاماً صادَفتُموني مُؤاتي
فبادِرُوهُ مُجوناً في وَقتِ كلِّ صلاةِ

وقال الحسين الخليع :

أنا الْخَليعُ فقوموا إلى شَرابِ الخَليعِ
إلى شَرابٍ لذيذٍ وأكل جَدْيٍ رَضيعِ
ونيكِ أحوى رَخيمٍ بالْخَنْدَريسِ صَريعِ
قوموا تَنالوا وَشيكاً مِثالَ مُلْكٍ رَفيعِ

وقال الوراق :

قوموا إلى بيتِ عَمْرِو إلى سِمــاعٍ وخَمْرِ
وساقيــاتٍ علينــا تُطاعُ في كلِّ أمرِ
وبَيْسَرِيٍّ رَخــيمٍ يَزْهُو بجيــدٍ ونَحْرِ
فَــذَاكَ بِرٌّ وإنْ شِئْتُمْ أَتَيْنــا بِبَحْرِ
هذا وليسَ عليكُمْ أولى ولا وَقت عَصْرِ

وقال محكم بن رزين :

قوموا إلى دارِ لَهْوٍ وظلٍّ بيتٍ دَفينِ
فيه منَ الوَرْدِ والمَرْ زَنْجُــوش والياسْمِينِ
وريحِ مسكٍ ذكيٍّ وجَيِّــدِ المرزُجونِ
قومو فصيرُوا جميعاً إلى الفَتى ابن رَزِينِ

فقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنانُ علينا بأنْ نزُورَ حُسَيْنا
وأنْ تقِرُّوا لدَيْهِ بالقَصْفِ واللهو عَيْنا
فما رأينا كَظَرْفِ الحُسينِ فــيما رَأَيْنا
قدْ قَرَّبَ اللهُ مِنهُ زَيناً وباعَــدَ شَيْنا
قوموا وقولوا أجزْنا ما قدْ قَضيْت علَينا

وقالت عنان :

مَهْلاً فَدَيتُكَ مَهلاً عِنانُ أَحرَى وأولى
بأنْ تنالوا لدَيها أسنَى النَّعيم وَأَحلى

فإنّ عِندِي حَراماً مِنَ الشَّرابِ وحِلّا
لا تَطْمَعوا في سَوائي مِنَ البَرِيَّةِ كَلّا
يا سادتي خبّروني أجازَ حُكْمِي أمْ لا

فقالوا جميعاً : « قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها » .
قال : وكتبت عنان الى الفضل بن الربيع :

كنْ لي هُديتَ إلى الخَليفَةِ سُلَّما بُورِكْتَ يا بْنَ وزيرِهِ مِنْ سُلَّمِ
حُثَّ الإمامَ عَلى شِرايَ وقُلْ لَهُ رَيْحانَةٌ ذُخِرَتْ لأنفِكَ فاشْمَمِ

وكانت عنان تتوقى أبا نواس ، وتخاف مجونه وسفهه ، وفيها يقول :

عِنانُ يا مَنْ تُشبِهُ العِينا أَنْتُم عَلى الْحُبِّ تَلومونا
حُسْنُكَ حُسْنٌ لا يُرَى مِثْلُهُ قَدْ تَرَكَ النّاسَ مَجانِينا

فتهيأت لأبي نواس ، وتصنعت له ، الى ان صار اليها، فرأى عندها بعض وجوه أهل بغداد، فأحب ان يخجلها ، فقال لها :

مــا تأمُرينَ لِصَبٍّ يَكْفيهِ مِنْكِ قُطَيْرَهْ

فقالت :

إيّايَ تَعني بِهــذَا عَلَيْكَ فاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فقال :

إنّي أخــافُ وربِّي عَلى يَدِي مِنْ عُبَيْرَهْ

فقالت :

عَلَيْكَ أُمَّكَ نِكْها فإنّهــا كَنْدَبيرَهْ

فأخجلته ، وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها ، وطلبها من الناطفي ، فحملت اليه

فقال لها : « يا عنان » ، قالت : « لبيك يا سيدي » ، فقال : « ما تأمرين لصب » ؟ قالت : « قد مضى الجواب في هذا يا أمير المؤمنين » ، قال : « بحياتي كيف قلت » ؟ قالت : قلت :

إيَّايَ تَعْني بِهــذا عَلَيْكَ فاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها ، فاستام فيها مالاً جزيلاً ، فردها .

عريب جارية المأمون :

وأَنْتُمْ أُناسٌ فيكُمْ ٱلغَدْرُ شيمَةٌ لَكُمْ أَوْجُهٌ شَتّى وأَلْسِنَةٌ عَشْرُ
عَجِبْتِ لِقَلْبي كَيْفَ يَصْبو إِلَيْكُمْ على عُظْمِ ما يَلْقَى ولَيْسَ لَهُ صَبْرُ

فضل الشاعرة : حدثنا القاسم بن عبدالله الحراني قال : كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد افتصد ، فأتته هدايا « فضل الشاعرة » ألف جدي ، وألف دجاجة ، وألف طبق رياحين ، وطيب وعنبر ، وغير ذلك ، فلما وصل ذلك كتب اليها: « ان هذا اليوم لا يتم سروره الا بك وبحضورك » . وكانت من احسن الناس ضرباً بالعود ، وأملحهم صوتاً ، وأجودهم شعراً، فأتته ، فضرب بينه وبينها حجاب، وأحضر قوماً ندماءه ، ووضعت المائدة ، وجيء بالشراب، فلما شربنا أقداحنا اخذت عودها فغنت بهذا الشعر ، والصوت لها والشعر والأبيات هذه :

يا مَنْ أَطَلْتُ تَفرُّسي في وَجْهِهِ وتَنفسي
أَفْديكَ مِنْ مُتَدَلِّلٍ يَزْهو بِقَتْلِ الأَنفسِ
هَبْني أَسَأْتُ وما أَسَأْ تُ بَلىٰ أَقولُ أَنا المسِي
أَحْلَفْتَني أَنْ لَا أُسا رِقُ نَظْرَةً في مَجلِسي
فَنَظَرْتُ نَظْرَةَ عاشِقٍ أَتبَعْتُهــا بِتَنَفُّسِي
ونَسيتُ أَنّي قَدْ حَلَفْتُ فَما يُقالُ لِمَنْ نَسِي

وضربت ايضاً وغنت :

عادَ الْحَبيبُ إِلى الرِّضا فَصفَحْتُ عَمّا قَدْ مَضى

مِنْ بَعْدِ ما لصُدودِهِ شَمِتَ الْحَسودُ فَعَرَّضا
تَعِسَ آلبَغيضُ فَلَمْ يَزَلْ لِصُدودِنا مُتَعَرِّضا
هَبْني أَسأتُ وما أَسأْ تُ فإنْ اسأتُ لكَ الرِّضا

قال : فما أتى عليّ يوم أسرّ من ذلك اليوم .

صاحبة الفرزدق : ذكروا ان الفرزدق كان مع أصحاب له فاذا هو بجارية مع مولاها ، فقال لاصحابه : « هل اخجل لكم هذه » ؟ قالوا : « نعم » ، فقال :

إنَّ لي إيراً خبيثاً لوْنُهُ يَحكي الكُمَيْتا
لو يَرى في السّقفِ صَدْعا لَتحوَّل عَنْكَبُوتا [1]
أو يَرى في الأرْضِ شقًّا لَنزا حتَّى يَموتا

فقالت الجارية :

زَوِّجوا هذَا بألفِ وأرَى ذلكَ قُوتا
قَبْلَ أنْ يَنقَلِبَ الدَّا ءُ فَلَا يأتي ويوتَى

فخجل الفرزدق وانصرف [2] .

صاحبة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، قالت :

عَزَمْتُ على قَلْبي بأنْ أكْتُمَ الهوى فَضَجَّ ونادى إنَّني غيرُ عاقِلِ
فإنْ حانَ مَوْتي لمْ أدَعكَ بغُصَّتي وأقْرَرْتُ قبلَ الموْتِ أنك قاتِلي

جارية البارقي : ذكروا انها أنشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يا أحسَنَ العالَمِ حتَّى متى يَرْتَفِعُ الحبُّ وانْحَطُّ

---

١ – يلاحظ تقلقل وزن العجز في هذا البيت .

٢ – ويروى ان هذه المساجلة جرت بين أبي نواس وعنان ، جارية الناطفي . والأبيات تروى ايضاً على وجه آخر .

وكيفَ مَنْجايَ وبَحرُ الهوى مُذْ حَفَّ بي ليسَ لهُ شَطُّ

فأجيبت :

يُدْرُكُكَ الوصـــلُ فتنجو بهِ أو يقَعُ البَحْرُ فَتَنْحَـــطُّ

المغنية المليحة : قال علي بن الجهم : كنت في مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة ، فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التمام ، بلون كأنه الدر في البياض ، مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت ، فقال لي محمد : « يا أبا الحسن ! هذه الجنة التي كنتم توعدون » ، فقالت :

وما الوَعْدُ يا سُؤلي وغايَةَ مُنيَتي فإنَّ فُؤادي من مَقالِكَ طائرُ

فقال لها محمد :

أمَا وإلٰهِ ٱلعَرْشِ ما قلتُ سَيِّئاً وما كانَ إلَّا أنَّني لكِ شاكِرُ

فقال ابن الجهم :

أمسِكْ فَدَيتُك عنْ عِتابِ مُحمَّدٍ فهوَ المَصونُ لوُدِّه ، المُتحاذِرُ

فأقبلت تحدثنا ، فاذا عقل كامل ، وجمال فاضل ، وحسن قاتل ، وردف مائل فقلت : « لقد أقر الله عيناً تراك » ، فقالت : « أقر الله أعينكم ، وزادكم سروراً وغبطة » . ثم اندفعت تغني بنغمة لم اسمع احسن منها :

أرُوحُ بهَمٍّ منْ هَواكَ مُبَرِّحِ أُناجي بهِ قلباً كثيرَ التّفكُّرِ
عليكَ سلامٌ لا زِيارَةَ بيننا ولا وَصْلَ إلَّا أنْ يشاء ابنُ مَعْمَرِ

فما زلنا يومنا ذلك معها في الفردوس الأعلى ، وما ذكرتهـــا ، بعد ذلك ، الا اشتقت لها ، وأسفت عليها .

محمد بن حماد قال : كنا يوماً عند اسحاق بن نجيح ، وعنده جاريـــة يقال لها « شادن » ، موصوفة بجودة ضرب العود ، وشجو صوت ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه ، وأخذت العود وغنت :

ظَبيٌ تكامَلَ في نِهايَةِ حُسنِه فَزَها ببهجَتِه وتاهَ بصَدِّهِ

فالشَّمْسُ تَطْلَعُ من فِرِنْدِ جَبينِه والبَدْرُ يَغرَقُ في شقائِقِ خدِّهِ
ملكَ الجمالَ بأسرِهِ فكأنَّما حُسْنُ ٱلبَرِيَّةِ كلِّها منْ عِنْدِهِ
يا ربِّ هَبْ لي وَصْلهُ وبقاءهُ أبداً فَلَسْتُ بعائِشٍ من بَعْدِهِ

فطارت عقولنا ، وذهلت البابنا من حسن غنائها وظرفها ، فقلت : « يا سيدتي ، من هذا الذي تكامل في الحسن والبهاء سواك » ؟ فقالت :

فإنْ بُحْتُ نالَتْني عُيونٌ كَثيرةٌ وأضْعفُ عَنْ كِتْمانِهِ حين أكْتُمُ

الاعرابيات

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل الى دمشق ، كنت عديله ، فلما صرنا بقنسرين ، قطعت بنو سليم على التجار ، فأنهى ذلك اليه ، فوجه قائداً من وجوه قواده اليهم فحاصرهم ، فلما قربنا من القوم ، إذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة ، وهي تقول :

أميرُ المؤمنينَ سَما إلَيْنا سُمُوَّ ٱلبَدْرِ مالَ بهِ ٱلغَريفُ
فإنْ نَسْلَمْ فعَفْوَ اللهِ نَرْجو وإنْ نُقْتَلْ فقاتِلُنا شَريفُ

فقال لها المتوكل : « أحسنت ، ما جزاؤها يا فتح » ، قلت : « العفو والصلة » ، فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها : « مرّي الى قومك وقولي لهم : لا تردوا المال على التجار فاني أعوضهم عنه » .

قال الاصمعي : خرجت الى بادية ، فاذا أنا بخباء فيه امرأة ، فدنوت فسلمت ، فاذا هي احسن الناس وجهاً ، واعدلهم قامة ، وافصحهم لساناً ، فحار فيها بصري ، واعترتني خجلة ، فقالت : « ما وقوفك » ؟ فقلت :

هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ مَخيضِ ٱليَوْم نَشْرَبُه أمْ هَلْ سَبيلٌ إلى تَقْبيلِ عَيْنَيْكِ
فَلَسْتُ أبْغي سِوى عَيْنَيْكِ مَنْزِلَةً أمْ هَلْ تَجودي لَنا عَضّاً بِخَدَّيْكِ
أوْ تأذَنينَ بِريقٍ مِنكِ أرْشُفُهُ أوْ لَمسِ بَطْنِكِ أوْ تَغْميزِ ثَدْيَيكِ
رُدّي الجَوابَ عَلى مَنْ زادَهُ كَلَفاً تَكْريرُهُ الطَّرْفَ في أجْدالِ ساقَيكِ

فرفعت رأسها إلي وقالت : « يا شيخ ألا تستحي ؟ ارجع الى أهلك وارغب في مثلك » .
وقال بعضهم : رأيت اعرابية بالنباح فقلت لها : « أتنشدين » ؟ قالت : « نعم في مثلك » ورب الكعبة » ، قلت : « فأنشديني » ، فانشأت تقول :

لا بارَكَ اللهُ فيمَنْ كانَ يُخبِرُني ... أنَّ المحِبَّ إذا ما شاءَ يَنْصَرِفُ
وَجْدُ المحِبِّ إذا ما بانَ صاحِبُهُ ... وَجْدُ الصَّبِيِّ بِثَدْيَيْ أُمِّهِ الكَلِفُ

قال : قلت لها : « انشديني من قولك » ، فقالت :

بِنَفْسِيَ مَنْ هَوَاهُ على التَّنائي ... وطولَ الدَّهرِ مُؤْتَنِقٌ جديدُ
ومَنْ هو في الصَّلاةَ حديثُ نفسِي ... وعَدْلُ الرُّوحِ عِنْدِي بَلْ يَزِيدُ

فقلت لهـــا : « ان هذا كلام من قد عشق » . فقالت : « وهل يعرى من ذلك من له سمع وقلب » ؟ ثم انشدتني :

ألا بأبي واللهِ مَنْ لَيْسَ نافعي ... بِشَيْءٍ ولا قَلْبي على الوَجْدِ شاكِرُه
ومَنْ كَبِدِي تَهْفو إذا ذُكِرَ اسْمُهُ ... بِشَيْءٍ ومَنْ قَلْبي على النَّأْيِ ذاكِرُه
لَهُ خفقانٌ يَرْفَعُ الجَيْبَ بالشَّجَى ... ويَقطَعُ أزْرارَ الجُرُبَّانِ ثائِرُه

قال : وكتب عمر بن ابي ربيعة الى امرأة بالمدينة :

بَرَزَ البَدْرُ في جَوارٍ تَهادَى ... مُخْطَفاتُ الخُصورِ مُعْتَجِراتِ
فَتَنفَّسْتُ ثمَّ قُلْتُ لِبِكْرٍ ... عَجِّلَتْ في الحَياةِ لي حَيْناتِ
هَلْ سَبيلٌ إلى الَّتي لا أُبالي ... بَعْدَها أنْ أموتَ قَبْلَ وَفاتي

فأجابته :

قَدْ أتانا الرَّسولُ بِالأبياتِ ... في كِتابٍ قَدْ خطَّ بالتُّرَّهاتِ
حائِرُ الطَّرْفِ إنْ نَظَرْتَ وماطَرْ ... فُكَ عِنْدِي بِصادِقِ النَّظَراتِ
غُرَّ غَيْرِي فقَدْ عَرَفْتُ لِغَيْرِي ... عَهْدَكَ الخائِنَ القَليلَ الثَّباتِ

حدث عمر بن يزيد الاسدي ، قال : مررت بخرقاء ، صاحبة ذي الرمة فقلت لها : « هل حججت قط » ؟ قالت : أما علمت أني منسك من مناسك الحج ، ما منعك ان تسلم علي ؟ أما سمعت قول عمك ذي الرمة :

تَمامُ الحَجِّ أنْ تَقِفَ المَطَايا على خَرْقــاءَ واضِعةِ اللِّثامِ

فقلت لها : « لقد أثر فيك الدهر » ، قالت أما سمعت قول المجيف العقيلي حيث يقول :

وخَرْقاءُ لا تَزْدادُ إلَّا مَلَاحَةً ولوْ عُمِّرَتْ تعميرَ نوحٍ وجلَّتِ

قال : « ورأيتها وإن فيها لمباشرة ، وإن ديباجة وجهها لطرية كأنها فتاة ، وانها لتزيـد يومئذ على المائة ، ولقد حدثت انه شبب بها ذو الرمة ، وهي ابنة ثمانين سنة » . وحدث رجل من بني أسد قال : أدركت ميا صاحبة ذي الرمة ، وكان الرجل أعور قال : ورأيتها في نسوة من قومها فقلت : « أهذه مي ؟ وأومأت اليها » ، فقلنا : فقلت : « ما أدري ما كان يعجب ذا الرمة منكِ ، وما اراك على ما كان يصف » ؟ فتنفست الصعداء وقالت : « انه كان ينظر بعينين وانت تنظر الي بعين واحدة » .

وروى الاصمعي عن رجل من اهل الشام قال : قدمت المدينة ، فقصدت منزل ابن هرمة ، فاذا بنية له تلعب ، فقلت لها : « ما فعل أبوك » ؟ قالت : « وفد الى بعض الاخوان » ، قلت: « فانحري لنا ناقة فإنـّا أضيافك » ، قالت : « يا عماه والذي خلقك ما عندنا شيء » ، قلت : « فباطل ما قال ابوك » ! قالت : « فما قال » ؟ قلت ، قال :

كمْ ناقةٍ قدْ وجأتُ مَنْحَرها بِمُستهِلِّ الشُّؤبوبِ أو جَمَلِ

قالت : « يا عماه فذلك القول من ابي أصارنا الى ان ليس عندنا شيء » ، قال : وأتى زياد الأقطع باب الفرزدق ، وكان له صديقاً ، فخرجت اليه ابنة الفرزدق، وكانت تسمى « مكية »، وأمها حبشية ، فقال لها: « ما اسمك » ؟ قالت : « مكية » قال : « ابنة من » ؟ قالت : «ابنة الفرزدق » قال : « فأمك » ؟ قالت : « حبشية » ، فأمسك عنها فقالت : « ما بال يـدك مقطوعة » ؟ قال : « قطعها الحرورية » ، قالت : « بل قطعت في اللصوصية » ، قال : « عليك وعلى أبيك لعنة الله » ، وجاء الفرزدق فأخبر بالخبر ، فقال : « أشهد انها بنتي » ، وأنشأ يقول:

حامٍ إذا ما كنتَ ذا حَمِيَّه بِدَارميٍّ بنتُــهُ صَبيَّه
صَمَحْمَحٍ مِثلِ أَبي مَكِّيَّه

وحدث سليمان ابن عباس السعدي قال : كان كثيّر يلقى حاج اهل المدينة بقديد على ست مراحل ، ففعل عاماً من الاعوام غير يومهم الذي نزلوا فيه ، فوقف حتى ارتفع النهار ، فركب جملاً في يوم صائف ، ووافى قديداً وقد كل بعيره وتعب ، فوجدهم قد ارتحلوا ، وقد بقي فتى من قريش ، فقال الفتى لكثيّر : « إجلس » . قال : فجلس كثير الى جنبي ، ولم يسلم عليَّ ، فجاءت امرأة وسيمة جميلة ، فجلست الى خيمة من خيام قديد ، واستقبلت كثيّراً فقالت : « انت كثيّر » ؟ قال : « نعم » ، قالت : « انت ابن أبي جمعة » ؟ قال : « نعم » ، قالت : أنت الذي تقول :

وكنتُ إذا ما جئْتُ أَجلَلْنَ مَجلسي وأَضمَرْنَ مني هيبةً لا تَجَهُّما

قال : « نعم » ، قالت : « فعلى هذا الوجه هيبة ، ان كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . قال : فضجر كثيّر وقال : « ومن أنت » ؟ فسكتت ، ولم تجبه بشيء ، فسأل الموالي التي في الخيام عنها ، فلم يخبرنه ، فضجر واختلط عقله ، فلما سكن قالت : أنت الذي تقول :

متَى تَنْشُرَا عنيِّ العِمامةَ تُبْصِرَا جميلَ المُحَيَّا أغفَلَتْهُ الدَّواهِنُ

أهذا الوجه جليل ؟ ان كان كاذباً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » ، فاختلط وقال : « لو عرفتك لفعلت وفعلت » . فلما سكن ، قالت له : انت الذي تقول :

يَرُوقُ العُيونَ النَّاظرَاتِ كأَنَّهُ هِرَقْليُّ وَزنٍ أَحْمَرُ التِّبْرِ راجحُ

أهـــذا الوجه الذي يروق الناظرات ؟ ان كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » . قال : فازداد ضجراً واختلط ، وقال : « لو عرفتك والله لقطعتك وقومك هجاء » . ثم قام فاتبعته طرفي حتى توارى عني ، ثم نظرت الى المرأة ، فاذا هي قد غابت عني ، فقلت لمولاة من بنات قديد : « لك الله على ان اخبرتني مَن هذه المرأة ان أطوي لك ثوبيّ هذين ، اذا قضيت حجي ، ثم أعطيكها » . فقالت : « والله لو اعطيتني زنتها ذهباً ، ما اخبرتك من هي ؟ هذا كثيّر مولاي لم اخبره» . قال القرشي : فرحت وبي اشد مما بكثيّر .

قيل : وقدم كثيّر الكوفة، وكان شيعياً من اصحاب محمد بن الحنفية ، فقال : « دلـّوني على منزلِ قطام » ، قيل له : « وما تريد منها » ؟ قال : « أريد ان أوبخها في قتل علي بن ابي طالب صلوات الله عليه » ، فقيل له : « عد عن رأيك فان عقلها ليس كمقول النساء » ، قال : « لا والله لا انتهي حتى انظر اليها وأكلمها » . فخرج يسأل عن منزلها حتى دفع اليها ، فاستأذن فأذنت له ، فرأى امرأة برزة قد تخددت ، وقد حنا الدهر من قناتها ، فقالت : «من الرجل»؟ قال : « كثيّر بن عبد الرحمن»، قالت: «التيمي الخزاعي» ؟ قال : « التيمي الخزاعي » ، ثم قال لها : « أنت قطام » ؟ قالت : « نعم » ، قال : « أنت صاحبة علي بن ابي طالب صلوات الله عليه » ؟ قالت : « بل صاحبة عبد الرحمن بن ملجم » . قال : « أليس هو قتل علياً » ؟ قالت: « بل مات بأجله » . قال : « والله اني كنت أحب ان اراك فلما رأيتك نبت عيني عنك ، وما ومقك قلبي ، ولا احلوليت في صدري » ، قالت : « أنت والله قصير القامة ، صغير الهامة ، ضعيف الدعامة » ، كما قيل : « لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فأنشأ كثيّر يقول :

رأتْ رَجُلاً أوْدَى السِّفارُ بِجِسْمِهِ   فلم يَبْقَ إلَّا مَنْطِقٌ وجَناجِنُ

قالت : « لله درك ما عرفت إلا بعزّة تقصيراً بك » ، قال : والله لقد سار لها شعري ، وطار بها ذكري ، وقرب من الخلفاء مجلسي ، وإنها لكما قلت فيها :

وإنْ خَفِيَتْ كانَتْ لعينيكَ قُرَّةَ   وإنْ تبدُ يوماً لمْ يَعُمَّكَ عارُها
منَ الخَفِرَاتِ البيضِ لمْ تَرَ شِقْوَةَ   وفي الحَسَبِ المحْضِ الرَّفيعِ نجارُها
فما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى   يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها
بأطْيَبَ منْ فيها إذَا جئْتَ طارِقاً   وقدْ أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

قالت : « والله مـــا سمعت شعراً أضعف من شعرك هذا ، والله لو فعل هذا بزنجية طاب ريحها . ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

ألَمْ تَرَ أني كُلما جِئْتُ طارِقاً   وجدْتُ بها طِيباً وإنْ لمْ تَطَيَّبِ

قال : « فلله درُّ بلادك » ، وخرج وهو يقول :

ألحقُّ أبْلجُ لا تَزيغُ سبيلهُ   والحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الألبابِ

قال : وقال المسيب راوية كثيّر : انطلق كثيّر مرة فقال لي : « هل لك في عكرمة بن عبد الرحمن بن هشام » ؟ وهو يومئذ على حنظلة بن عمرو بن تميم ، فقلت : « نعم » ، قال : فخرجنا نريده حتى اذا صدرنا عن المدينة ، اذا نحن بامرأة على راحلة تسير ، فسرت حذاءها ، فقالت : « أتروي لكثيّر شيئاً » ، قلت: « نعم » . قالت : « انشدني » ، فأنشدتها من شعره، فقالت : « أين هو » ؟ قلت : « هو ذاك الذي ترين على غير الطريق » ، فقالت بعد ان دنت منه : « قاتل الله زوج عزة حيث يقول :

لَعَمْرُكَ ما رَبُّ الرِّبابِ كُثَيِّرٌ ... بفحْلٍ ولَا آباؤُهُ بفحولِ

فغضب كثيّر وسار وتركها ، ثم نزل منزلاً ، فجاءت جارية لها تدعوه ، فأبى كثيّر ان يأتيها فقلت : « ما رأيت مثلك قط ! امرأة مثل هذه ترسل اليك ، فتأبى عليها » ؟ فلم أزل به حتى أتاها ، قال : فسفرت عن وجهها ، فاذا هي اجمل الناس وأكملهم ظرفاً وعقلاً ، واذا هي غاضرة ام ولد بشر بن مروان ، فصحبناها حتى كنا بزبالة فمالت بنا الطريق ، فقالت له : « هل لك أن تأتي الكوفة فأضمن لك على بشر الصلة والجائزة » ؟ فأبى وأمرت له بخمسة آلاف درهم ، ولي بألفين، فلما أخذنا الخمسة الآلاف قال : «ما اصنع بعكرمة، وقد اصبت ما ترى» ؟ فذلك قوله حيث يقول :

شَجا أظعانُ غاضِرَةَ ٱلغَوادِي ... بغيرِ مشُورَةٍ عِوَضاً فُؤادِي
أغاضرَ لوْ رَأيتِ غَداةَ بِنتمْ ... حُنُوَّ ٱلعائدَاتِ عَلى وِسادِي
رَثَيْتِ لعاشقٍ لمْ تَشكُميهِ ... جوَانِحُـهُ تَلذَّعُ بالزِّنَادِ

(الشكيمة : العطية ، والزناد : جمع زند وهو عود يقدح منه النار) .

قال الحكم بن صخر الثقفي: حججت فرأيت بأفرّة امرأتين لم أرَ كجمالهما وظرفهما وثيابهما، فلما حججت وصرنا بأفرّة ، اذا أنا باحدى الجاريتين قد جاءت، فسألت سؤال منكر ، فقلت : « فلانة » ؟ قالت : « فداك أبي وأمي رأيتك عاماً أول شاباً سوقة ، والعام شيخاً ملكاً ، وفي وقت دون ذلك ما تنكر المرأة صاحبها » . فقلت : « ما فعلت اختك » ؟ فتنفست الصعداء وقالت : قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها ، فخرج بها الى نجد فذاك حيث أقول :

إذا ما قَفَلْنا نَحْوَ نَجْدٍ وأهْلِهِ ... فحَسْبي مِنَ الدُّنيا ٱلقفُولُ إلى نَجْدِ

فقلت : « أما اني لو ادركتها لتزوجتها » ، قالت : « فداك أبي وأمي ، فما يمنعك من شريكتها في حسنها ، وشقيقتها في حسبها » ، قلت ، قول كثيّر :

إذا وَصَلَتْنا خُلَّةٌ كَيْ تُزيلَنا أَبَيْنا وقُلْنا الْحَاجِبِيَّةُ أَوَّلُ

قالت : وكثيّر بيني وبينك أليس هو الذي يقول :

هَلْ وَصْلُ عَزَّةَ إلَّا وَصْلُ غانِيَةٍ في وَصْلِ غانِيَةٍ مِنْ وَصْلِها خَلَفُ

قال : فتركت جوابها ، ولم يمنعني منه الا العيّ .

محاسن النساء

قيل : « أحسن النساء الرقيقة البشرة ، النقية اللون ، يضرب لونها بالغداة الى الحمرة ، وبالعشي الى الصفرة » . وقالت العرب : « المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن ، صبيحة عرسها ، وأيام نفاسها ، وفي البطن الثاني من حملها » . وقيل لأعرابي : « أتحسن صفة النساء » ؟ قال : « نعم ، اذا عذب ثناياها ، وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، وفعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها ، فتلك همُّ النفس ومناها » . ووصف أعرابي امرأة فقال : « كان وجهها السقم لمن رآها ، والبرء لمن ناجاها » . وذكر أعرابي امرأة فقال : « أرسل الحسن الى خديها صفائح نور ، ورشق السحر عن لحظها بأسهم حداد ، ولقد تأملت فوجدت للبدر نوراً من بعض نورها » . وذكر أعرابي امرأة قال : « هي شمس تباهي بها شمس سمائها ، وليس لي شفيع اليها غيرها في اقتضائها ، ولكني كتوم لفيض النفس عند امتلائها » . وذكر أعرابي امرأة فقال : « ما أحسن من حبها نعاساً ، ولا أنظر اليها الا اختلاساً ، وكل امريء منها يرى ما أحب » . وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جلد من لؤلؤ رطب مع رائحة المسك الاذفر ، في كل عضو منها شمس طالعة » .

ومما جاء في الحسن من الشعر : قال عبدالله بن المعتز : أنشدني أبو سهل إسماعيل بن علي ، لأبي الصواعق :

وَمَريضِ طَرْفٍ لَيس يَصْرِفُ طَرْفَهُ نَحْوَ المَدى إلَّا رَماهُ بِحَتْفِهِ
ظَبْيٌ لَهُ نَظَرٌ ضَعيفٌ كُلَّما قَصَدَ القَوِيَّ أتى عَلَيْهِ بِضُعْفِهِ

قَدْ قُلْتُ لَمّا مَرَّ يَخطِرُ مائِساً والرِّدْفُ يَجْذِبُ خصرَهُ مِنْ خَلْفِهِ
يا مَنْ يُسَلِّمُ خَصْرَهُ مِنْ رِدْفِهِ سَلِّمْ فُؤادَ مُحِبِّهِ مِنْ طَرْفِهِ

فقلت في هذا المعنى وعلى هذا الوزن :

وحَياةِ مَنْ جرَحَ ٱلْفُؤادَ بِطَرْفِهِ لَأُحبِّرَنَّ قَصائِدِي في وَصْفِهِ
قَمَرٌ بِهِ قَمَرُ السَّماءِ مُتَيَّمٌ كالغُصْنِ يَعْجَبُ نِصفُهُ مِنْ نِصفِهِ
إنِّي عَجِبْتُ لِخَصْرِهِ مِنْ ضُعْفِهِ ماذا تَحَمَّلَ مِنْ ثَقالَةِ رِدْفِهِ
هٰذَا وما أَدْري بِأَيَّةِ فِتْنَةٍ جَرَحَ ٱلْفُؤادُ بِلُطْفِهِ أَمْ ظَرْفِهِ
أَمْ بِالدَّلالِ أَمِ ٱلْجَمالِ أَمِ الضِّيا مِنْ وَجْهِهِ أَمْ بالقَفا مِنْ خَلْفِهِ

وأنشد أبو الحسين بن فهم لأبي نواس :

كَفاكَ ما مَرَّ على راسي مِنْ شادِنٍ قَطَّعَ أنفاسي
أَكْثَرُ ما أبلُغُ في وَصْفِهِ تَحيُّري مِنْ قَلْبِهِ ٱلقاسي
أغارُ أن أنعَتَ منهُ الذي يَنْعَتُه الناسُ منَ الناسِ
ولم أرَ ٱلعُشَّاقَ قَبلي رأوا بِوَصْفِ مَنْ يَهْوَوْنَ مِنْ باسِ
كلُّ أحاديثي نَعْتٌ لهُ مُنْكَشِفٌ منِّي لِجُلّاسي

فقلت في هذا المعنى ، وهذا الروي ، والوزن :

لوْ عُشْرُ ما مَرَّ على راسي مَرَّ بصَلْدِ حَجَرٍ قاسي
لانصَدَعَتْ فيهِ صُدوعٌ كما صَدَّعَ قلبي طولُ وَسْواسي
يا غُصْنَ آسٍ ومُحالٌ إذا قَصَّرْتُ تشبيهَكَ بالآسِ
ماذا على طَرْفِكَ لوْ أنَّهُ أعارَ لَحظاً منهُ قِرْطاسي
لَيْتَكَ علَّلتَ بمَطْلٍ ولمْ تَقْطَعْ رَجائي منكَ باليأسِ

وقال آخر :

وزائرةٍ يَحْتَثُّها الشَّوْقُ طارِقَه أَتَتْنا مِنَ ٱلْفِرْدَوْسِ لا شَكَّ آبِقَه
إذا ما تَثَنَّتْ قالَ للرِّيحِ قَدُّها كذا حَرِّكي الأغصانَ إنْ كنتِ صادِقَه

وقال آخر :

قدْ أقبَلَ البَدْرُ في قَراطِقهِ يَسْلُبُ بالدَّلِّ قلبَ عاشقهِ
يَسْطو عليهِ بسيفِ مُقلَتهِ لا بالذي شُدَّ في مناطقهِ

وقال آخر :

قلْ للمِلَاحِ الحَدَقِ وللحِسانِ الخِلَقِ
هل في فؤادي للقُوَى أوْ جَسَدِي شيءٌ بَقِي
إن لم تُرَوُّوا عَطَشي بُخْلاً فَبُلُّوا رَمَقي
يا مُقلَةً أجفانُهـــا مَحْشُوَّةٌ بالأرَقِ
بَقِيتِ في رِقِّ الهوَى شَقيَّةً فيمَنْ شَقي

وقال آخر :

يا مِلَاحَ الدَّلالِ والاغتِناجِ ما أرَى القلبَ مِنْ هوا كُنَّ ناجي
أنتَ ذَرَّفْتَ فوْقَ خَدَّيك صُدْغاً مِنْ عَبيرٍ على صَفائحِ عاجِ
أشرَقَتْ وَجْنَتاكَ بالنُّورِ حتَّى أغنتَا الخَلْقَ عَنْ ضِياءِ السِّراجِ
فعلَتْ مُقلَتاكَ بالقلبِ منِّي فَعْـــلَةَ القَرْمَطيِّ بالحُجَّاجِ
يا هِلالاً أنِسْتُ منه بضوْءِ جُنْحَ ليلٍ من الظَّلام الدَّاجي

وقال آخر :

نَشَرتْ غدائرَ فَرْعِها لِتُظلَّني حَذَرَ العُيونِ مِنَ العُيونِ الرُّمَّقِ
فكأنَّها وكأنَّـــهُ وكأنَّني صُبْحانِ باتا تحتَ ليلٍ مُطْبِقِ

وقال آخر :

يا غَزَالاً وهِلالاً ... وقَضِيبـــاً وكَثِيا
كَمْ وكَمْ أُضمِرُ وَجْداً ... بكَ مكتوماً عَجيباً
كيف يُرْجى بُرْءُ مَن قد ... كَتَمَ الدَّاءَ الطَّبيبا

وقال آخر :

شَمسٌ مُمَثَّلةٌ في خَلْقِ جارِيةٍ ... كأنَّما بطْنُها طَيُّ الطوامِيرِ
فالجِسْمُ مِنْ جوهرٍ والشعرُ من سَبَجٍ ... والثَّغرُ منْ لؤلؤٍ والوَجهُ منْ عاجِ

وقال آخر :

تَتيجُ دَلالٍ حارَ في حُسْنِهِ الطَّرْفُ ... فَفِكْرَتُهُ قَبْرٌ ومَنْطِقُهُ لُطفُ
بَديعُ جَمالٍ زانَهُ العَقلُ والظَّرْفُ ... سَماوِيُّ لَوْنٍ لا يُحيطُ بِهِ وَصْفُ
لَهُ رِيقَةٌ عُلَّتْ بماءِ قَرَنْفُلٍ ... يُمازِجُها التُّفاحُ والْخَمْرَةُ الصِّرْفُ
تَجسَّمَ في جِسْمٍ مِنَ النُّورِ ساطِعٍ ... تَمكَّنَ في دِعْصٍ يَنوءُ بِهِ رِدْفُ
عَلى صَحْنِ خَدَّيْهِ بَهارٌ مُنَوِّرٌ ... وَوَرْدٌ جَنِيٌّ لا يَليقُ بِهِ القَطْفْ
تكامَلَ فيهِ الْحُسْنُ والنُّورُ والبَها ... كَبَدْرِ الدُّجى إذ تَمَّ مِنْ شَهرِهِ النصْف
بَراهُ إلَهي لي عَذاباً وفِتْنَةً ... فما عِنْدَهُ عَدْلٌ ولا عِنْدَهُ عَطْفُ

وقال آخر :

لَكَ مِنْ قَلْبِي المَكانُ المَصونُ ... كلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فيكَ يهونُ
قَدَّرَ اللهُ أنْ أكونَ شَقِيّاً ... بِكَ والصَّبْرُ عَنْكَ ما لا يكونُ
يا غَزالاً بِلَحْظِهِ يَفتِنُ النَّا ... سَ وفي طَرْفِهِ الرَّدَى والمَنونُ
لَكَ صَبْرٌ ولَيسَ لي عَنْكَ صَبْرٌ ... فأنا اليَوْمَ هائِمٌ مَحزونُ

قَدْ خلَعْتُ ٱلعِذَارَ فيكَ حَبِيبِي ما أُبالي بِمَا رَمَتْني الظُّنونُ

وقال آخر :

يا نَظرَةً جاءَتْ عَلى ياس مِنْ ساحِرِ المُقْلَةِ مَيَّاسِ
أَطْرافُهُ تُعْقَدُ مِنْ لِينِها وقلْبُهُ كالْحَجَرِ ٱلقاسِي
يلومُني النَّاسُ عَلى حُبِّهِ أعانَني اللهُ على النَّاسِ

وقال آخر :

يا وَيْحَ جِسْمٍ يَذوبُ مِنْ قَلَقِه مِنْ حُبِّ مَنْ لمْ أَقِفْ عَلى خُلُقِه
مِنْ حُبِّ ظَبْيٍ مُهَفْهَفٍ لَبِقٍ يَهْتَزُّ مِثْلَ القَضِيبِ في وَرَقِه
لمْ تَرَ عَيْني ولَنْ تَرَى أَبَداً أَحسَنَ مِنْ نَحْرِهِ ومِنْ عُنُقِه
كَأَنَّما المِسْكُ حينَ تَسْحَقُهُ بِماءِ وَرْدٍ يَفُوحُ مِنْ عَرَقِه
أَوْ خَمْرَةٌ في الزُّجاجِ صافِيَةٌ شِيبَتْ بِماءِ السَّحابِ في نَسَقِه

وقال آخر :

أَرْبَعَـــةٌ قَرَّحَتْ فؤَادِي فطالَ وَجْدِي وعِيلَ صَبْرِي
مُقْلَةُ خَشْفٍ وقَدُّ غُصْنٍ وطِيبُ وَرْدٍ وحُسْنُ بَدْرِ
نَفْسِي ومـــالِي فِدَاءُ ظَبْيٍ أَذابَ جِسْمِي ولَيْسَ يَدْرِي
فَمَنْ لِصَبٍّ أَسيرِ شَوْقٍ قَتيلِ صَبٍّ بِسَيْفِ هَجْرِ

وقال آخر :

وماريحُ رَيْحانٍ بِمِسْكٍ وعَنبَرٍ يُعَـــلُّ بِكافورٍ ودُهْنَةِ بانِ
بِأَطْيَبَ مِنْ رَيَّا حَبيبِي لَوَ ٱنَّني وَجَدْتُ حَبيبِي خالِياً بِمَكانِ

روي أن رجلا أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، اني أريد أن أتزوج ، فادع الله أن يرزقني زوجة صالحة » ، فقال : « لو دعا جبريل وميكائيل وأنا معهما ما تزوجت الا المرأة التي كتب الله لك فانه ينادي في السماء ألا ان امرأة فلان بن فلان ، فلانة بنت فلانة » . وقال ﷺ : « عليكم بالابكار فانهن أطيب أفواهاً ، وأنتق أرحاماً » . وقال عمر رضي الله عنه : « عليكم بالابكار ، واستعيذوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر » ، قال الشاعر :

لا تَنكِحَنَّ عجوزاً إنْ دُعِيتَ لها   وإنْ حُبِيتَ على تزْوِيجها الذَّهبا
فانْ أتوْكَ وقالوا إنها نَصَفٌ   فإنَّ أطيَبَ نِصفيْها الذِي ذَهبا

وقال آخر :

عَلَيْكَ إذا ما كُنْتَ لا بُدَّ ناكِحاً   ذَواتِ الثَّنايا الغُرِّ والأعيُنِ النُّجْلِ
وكلَّ هَضيمِ الكَشْحِ خَفَّاقَةِ الحَشا   قَطوفَ الخُطا ، بَلْهاء ، وافِرَةَ العَقْلِ

وقـــال الحارث بن كلدة : « لا تنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان الا الفتى ، ولا من الفاكهة إلا النضيج » . وقال مغيرة بن شعبة : « حصنت تسعاً وتسعين امرأة ، ما أمسكت واحدة منهن على حب ، ولكني احفظها لمنصبها وولدها ، فكنت استرضيهن بالباه شاباً ، فلما ان شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية » . وقال بعضهم : « لذة المرأة على قدر شهوتها ، وغيرتها على قدر لذتها » .

وروي عن رسول الله ﷺ انه قال : « إنما النساء لعب فاذا تزوج احدكم فليستحسن » . وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال : « تزوجها سمراء ذلفاء عيناء ، فان فركتها فعلي صداقها» ، وقال الحجاج بن يوسف: «من تزوج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعلي صداقها». وروي عن علي ، صلوات الله عليه ، أن رجلا أتاه فقال: « اني تزوجت امرأة مجنونة » ، فقالت المرأة : « يا أمير المؤمنين انه يأخذني عند الجماع غشية » ، فقال للرجل : « ما انت لها بأهل » . وفي حديث رسول الله ﷺ : (إياكم وخضراء الدمن) ، وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء ، وقال بعضهم : « لا تتزوجن حنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عشبة الدار ، ولا كية القفا . فأما

الحنّانة ، فالتي قد تزوجها رجل من قبل ، فهي تحن اليه . والأنّانة ، التي تئن من غير علة . والمنّانة ، التي لها مال تمن . وعشبة الدار ، الحسناء في أصل السوء . وكية القفا ، التي اذا قام زوجها من المجلس ، قال الناس : فعلت امرأة هذا كذا .

وقال محمد بن علي رضي الله عنهما : « اللهم ارزقني امرأة تسرّني اذا نظرت ، وتطيعني اذا أمرت ، وتحفظني اذا غبت » ، وروي عن رسول الله ﷺ انه قال: « اذا خطب احدكم امرأة، فلا جناح عليه ان ينظر اليها ، وان كانت لا تعلم » . وقال بعض الشعراء في تزويج الشبه :

إذا أَرَدْتَ حُرَّةً تَبْغيها كَرِيمَةً فأَنْظُرْ إلى أخيها
يُنْبيكَ عَنْها وإلى أَبيها فإنَّ أَشْباهَ أَبيها فيها

وقال آخر :

إذا كُنْتَ مُرْتاداً لِنَفْسِكَ أَيِّماً لِنَجْلِكَ فانْظُرْ مَنْ أَبُوها وخالُها
فإنَّهما مِنْها كَمَا هِيَ مِنْهُما كَما النَّعْلُ إنْ قيسَتْ بِنَعْلٍ مِثالُها

وقال آخر :

إذا كُنْتَ عَنْ عيْنِ الصَّبِيَّةِ باحِثاً فأَبْصِرْ تَرَ عَيْنَ الصَّبِيِّ فذلِكا

قال خالد بن صفوان لدلال : « أطلب لي امرأة بكراً ، او كبكر حصاناً عند جارها ، ماجنةً عند زوجها ، قد أدبها الغنى ، وذللها الفقر ، لا ضرعةً صغيرة ، ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت في نعمة ، وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، صلة الجبين ، سهلة العرنين ، سوداء المقلتين ، خدلجة الساقين ، لفاء الفخذين ، نبيلة المقعد ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، لم يداخلها صلف ، ولم يشن وجهها كلف ، ريحها أرج ، ووجهها بهج ، لينة الاطراف ، ثقيلة الارداف ، لونها كالرق ، وثديها كالحق ، أعلاها عسيب ، وأسفلها كثيب ، لها بطن مخطف ، وخصر مرهف ، وجيد أتلع ، ولب مشبع ، تتثنى تثني الخيزران ، وتميل ميل السكران ، حسنة المآق ، في حسن البراق ، لا الطول ازرى بها ولا القصر » .

قال الدلال : « استفتح ابواب الجنان ، فانك سوف تراها » . وقال ايضاً : «لا تتزوج واحدة فتحيض اذا حاضت ، وتنفس اذا نفست ، وتعود اذا عادت ، وتمرض اذا مرضت ، ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين الجمرتين ، ولا تتزوج ثلاثاً فتقع بين أثافي ، ولا تتزوج أربعاً ، فيحقرنك

ويهرمنك ويفلسنك ». فقال له رجل : « حرمت ما أحل الله ». فقال : « طمران وكوزان ورغيفان وعبادة الرحمن ».

وعن صالح بن حسان قال : « رأيت امرأة بالمدينة يقال لها « حواء »، وهي التي علمت نساء المدينة النقع، وهو النخر والحركة والغربلة والرهز، وكانت لهـا سقيفة تتحدث اليها رجالات قريش، ولم يكن في الدنيا أهل بيت إلا وتأخذ صبيانهم، وتمصهم ثديها، او ثدي إحدى بناتها، فكان أهل المدينة يسمونها « حواء ». ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في سقيفتها الا واصل اليها في السنة ثلاثين وسقاً وأكثر من طعام وتمر، مـع الدنانير والدراهم، والخدم والكساء.

فجاءها ذات يوم مصعب بن الزبير، وعمرو بن سعيد بن العاص، وابن لعبد الرحمن ابن أبي بكر، فقالوا لها : « يا خالة قـد خطبنا نساء من قريش، ولسنا ننتفع الا بنظرك اليهن، فأرشدينا بفضل علمك فيهن »، فقالت لمصعب : « يابن أبي عبـدالله ومن خطبت »؟ قال : « عائشة بنت طلحة »؛ قالت : « فأنت يابن الصديق »، قال : « أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة »، قالت : « فأنت يابن أبي أحيحة »، قال : « زينب بنت عمرو بن عثمان »، فقالت : « يا جارية علي بمنقلي » — تعني خفيها — فأتتها بها، فخرجت ومعها خادم لها، فأتت عائشة بنت طلحة، فقالت : « مرحباً بك يا خالة »، فقالت : « يا بني انا كنا في مأدبة لقريش، فلم تبق امرأة لها جمال الا ذكرت وذكر جمالك، فلم أدرِ كيف أصفك، فتجردي لأنظرك »، فألقت درعها، ثم مشت، فارتج كل شيء منها، ثم أقبلت على مثل ذلك، فقالت : « فداك أبي وأمي، خذي ثوبيك ». وأتتهن جميعاً على مثل ذلك، ثم رجعت الى السقيفة فقالت : « يابن أبي عبدالله، ما رأيت مثل بنت طلحة عائشة قط ممتلئة الترائب، زجاء العينين، هدبة الأشفار، مخطوطة المتنين، ضخمة العجيزة، لفاء الفخذين، مسرولة الساقين، واضحة الثغر، نقية الوجه، فرعاء الشعر، الا انني رأيت خلتين هما أعيب ما رأيت فيها : اما احدهما فيواريها الخف وهي عظم القدم، والاخرى يواريها الخمار وهي عظم الاذن، واما انت يابن أحيحة فما رأيت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط، الا أن في الوجه ردة، ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس اليه، وهي ملاحة تعتز بها، وأما انت يابن الصديق، فوالله ما رأيت مثل أم القاسم ما شبهتها إلا بخوط بانة تتثنى، او خشف يتقلب على رمل، ولم أرها إلا فوق الرجل، واذا زادت على الرجل المرأة لم تحسن، لا والله، الا من يملأ المنكبين، فتزوجوهن ».

وقال أعرابي في أخت له تزوجت بغير كفؤ :

وَلَوْ رَكِبَتْ ما حَرَّمَ اللهُ لَمْ يَكُنْ   بأَقبَحَ عِنْدَ اللهِ مِمَّا ٱسْتَحَلَّتِ

قـــال : وكان بالمدينة رجل قد اعطي جودة الرأي ، ولم يكن فيها من يريد ابرام امر الا شاوره ، فأراد رجل من قريش ان يتزوج ، فأتاه فقال : «انا اريد ان اضم إلي اهلاً فأشر علي»، قال : « افعل تحصن دينك ، وتصن مؤونتك ، وإياك والجمال البارع » ، قال : « ولم نهيتني ، وانما هو نهاية ما يطلب الناس » ؟ قال : « لانه ما فاق الجمال الا لحقه قول » ، أما سمعت قول الشاعر :

وَلَنْ تُصادِفَ مَرْعًى مونِقاً أَبداً إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثارَ مَأكولِ

قيل: وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج، فاجتمع عندها نسوة فتذاكرن التزويج، وقلن لها : « ما يمنعك منه » ؟ قالت : « وما فيه من الخير » ؟ قلن : « وهل لذة العيش الا في التزويج » ؟ قالت : « فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى اسمع » ؟ فقالت احداهن : « زوجي عوني في الشدائد ، وهو عائدي دون كل عائد ، ان غضبت عطف ، وان مرضت لطف » ، قالت : « نعم الشيء هذا » ، قالت الاخرى : « زوجي لما عناني كافٍ ، ولما اسقمني شافٍ ، عَرقه المسك المعراق ، وعناقه كالخلد ، ولا يملّ طول العهد » . قالت : « هذا خير منه » ، قالت الاخرى : « زوجي الشعار حين أبرد ، وأنيسي حين أفرد » . فتزوّجت ، فقلنَ لها : « يا فلانة ، كيف رأيت » ؟ قالت : « انعم النعيم ، وسروراً لا يوصف ، ولذة ليس منها خلف » .

امثال في التزويج

قيل : ان أول من قال : « لا هنك انقيت، ولا ماءك ابقيت»، الضبّ بن أروى الكلاعي، وذاك أنـــه خرج من ارضه ، فلما سار أياماً ، حار في تلك المفاوز التي تعسّفها ، وتخلّف عن اصحابه ، وبقي فرداً يعسف فيها ثلاثة ايام ، حتى دفع الى قوم لا يدري من هم . فنزل عليهم، وحدثهم ؛ وكان جميلاً ، وإن امرأة من أفاضل أولئك ، هويَتْهُ ، فأرسلت اليه ان اخطبني ، فخطبها ، وكانو لا يزوّجون إلا شاعراً او رجلاً يزجر الطير او يعرف عيون الماء ، فسألوه ، فلم يُحسن شيئاً من ذلك ، فلم يزوجوه ؛ فلما رأت المرأة ذلك ، زوجته نفسها على كره من قومها ؛ فلبث فيهم ما لبث؛ ثم ان رجلاً من العرب أغار عليهم في خيل، فاستأصلهم، فتطيّروا بضبّ، وأخرجوه وامرأته ، وهي طامث ؛ فانطلقا ، واحتمل ضب شيئاً من ماء ، ومشيا يوماً وليلة الى الغد ، حتى اشتدّ الحر ، وأصابهما عطش شديد، فقالت له : « ادفع إليّ السقاء حتى اغتسل به ، فإنا ننتهي الى الماء ، ونستقي . فاغتسلت بما في السقاء ، ولم يقع منها موقعاً ، وأتيا العين ،

فوجداها ناضبة ، وادركهما العطش ، فقال ضب : « لا هنك أنقيت ولا م...
فذهبت مثلا . ثم استظلا تحت شجرة كبيرة ، فأنشأ ضب يقول :

تالله ما ظِلَّةٌ أصاب بهـــا سوادَ قلبي قارعُ العَطْبِ
ظَلَّ كئيبَ الفؤادِ مضطرباً وتكتسي من غدائِرٍ قُلْبِ
أنْ يَعْرِفَ المَاءَ تحتَ صُمِّ صَفاً أوْ يُخْبِرَ النّاسَ مَنْطِقَ الخُطْبِ
أخرَجَني قَوْمُها بِأنَّ رَحـــىً دارَتْ بِشُؤْمٍ لَهمْ عَلى قُطْبِ

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت : « قم فارجع الى قومي فانك شاعر » فانطلقا راجعين حتى انتهيا اليهم ، فاستقبلوهم بالسيف والعصا ، فقال لهم ضب : « اسمعوا شعري ، ثم ان بدا لكم ان تقتلوني بعد ، فافعلوا » ، فتركوه فصار فيهم عزيزاً .

وقيل ان اول من قال : « في الصيف ضيعت اللبن » ، قتول بنت عبد ، وكانت تحت رجل من قومها ، فطلقها وأنها رغبت في أن يراجعها ، فأبى عليها ، فلما يئست خطبها رجل ، يقال له عامر بن شوذب ، فتزوجها فلما بنى بها ، بدا للزوج الاول مراجعتها ، وهوى بها هوى شديداً ، فجاء يطلبها ويرنو بنظره اليها ، ففطنت به فقالت :

أتَرَكْتَنِي حَتَّى إذا عُلِّقْتُ أبيَضَ كالشَّطَنْ
أنشأتَ تَطْلُبُ وَصْلَنا في الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنْ

فذهبت مثلا ، فقال لها زوجها الاول واسمه الأشق : « فهل بقي شيء » ؟ قالت : « نعم فاصله عن جميع مالك وطلاقي ، فان فصلته ، تزوجتك » ، فرضي بذلك ؛ ثم راجع نفسه فقال لها ذلك ، فقالت : « أمـــا اذا ضننت بمالك فانطلق الى مكان اذا انت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك ، ثم اقعد كأنك لا تشعر به وقل :

لَحَا اللهُ بِنْتَ العَبْدِ إنَّ وِصالَها وصالُ مَلولٍ لا تَدومُ عَلى بَعْلِ
تُحَدِّثني أنْ سَوْفَ تَقْتُلُ عامِراً لِأنْ لَمْ يَكُنْ في مالِهِ عامِرٌ مِثْلي
فَهَيْهاتَ تَزْويجُ التي تَقْتُلُ الفَتَى إذا ما أَبَتْ يَوْماً وإن كانَ مِنْ أجْلي
فَتَقْتُلُني يَوْماً إذا هَوِيَتْ فَتَى سِوايَ وأَنِّي اليَوْمَ مِنْ وَصْلِها مُجْلي

[illegible] الأشق ففعل ما أمرته به ، فسمعه عامر ، فوقع في قلبه قوله ، وقد كان عرف [illegible] ، فصدّق ذلك ودخل عليها ، فطلقها ، وتزوجها الأشق .

وذكروا ان بطناً من قريش اشتدت عليهم السنة ، وكان فيهم جارية يقال لها « زينب » ، من أكمل نسائهم جمالاً ، وأتمهن تماماً . وأشرفت فرآها شاب يقال له « عروة » ، فوقعت في قلبه ، فجعل يطالعها ، ولا يقدر على أكثر من ذلك ، فاشتد وجده بها ، فلما انقضت السنة ، وأرادوا الرجوع الى منازلهم ، دعا بعض جواري الحي ، فقال : « يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندي شكراً » ؟ قالت : « ما أحوجني الى ذلك » ، قال : « تنطلقين الى خيمة فلانة كأنك تقتبسين ناراً ، فاذا انت جلست فقولي حيث تسمع زينب :

أَلا هَلْ لَنا قَبْلَ التَّفَرُّقِ لَيلَةٌ ... ويَوْمٌ فَتَقضِي كلُّ نَفْسٍ مُناها [1]

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك ، فلما سمعت زينب قولها وكانت تفلي رأس زوجها ، وكان عنده أخ له ، فقالت مجيبة لها :

لَعَمْري لَقَدْ طالَ الْمُقامَة هاهُنا ... لَوْ انَّ لِحِبٍّ حاجَةً لَقَضاها

فسمع أخو الزوج قول الجارية ، وجواب زينب ، فقال :

أَلَا يعلمُ الزَّوْجُ الْمُفَلِّي بأَنَّها ... رِسالةُ مَشغوفِ الفُؤادِ رَجاها

فانتبه الزوج لأمرهم ، وعرف ما أرادت ، فقال :

لَحَى اللهُ مَنْ لا يستَقيمُ بِوَدِّهِ ... ومَنْ يَمْنَحُ النَّفسَ الطَّروبَ هَواها

انطلقي يا زينب فأنت طالق . فخرجت من عنده وبعثت الى عروة فأعلمته ، وأقامت حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجته .

المرأة الناشزة

ذكروا ان الاخطل كانت عنده امرأة ، وكان بها معجباً ، فطلقها وتزوج بمطلقة رجل من بني تغلب ، وكانت بالتغلبي معجبة ، فبينا هي ذات يوم جالسة مع الاخطل ، اذ ذكرت زوجها

---

١ – وزن العجز لا يستقيم إلا بعدم تنوين لفظة « نفس » ، او بروايته على الصورة التالية : « ويوم فتقضي النفس كلّ مناها » .

الاول ، فتنفست الصعداء ، ثم ذرفت دموعها ، فعرف الاخطل ما بها ، فذكر امرأته الاولى ، وأنشأ يقول :

كِلانا على وجْدٍ يَبيتُ كأنَّما بجنبيهِ من مَسِّ الفِرَاشِ قُروحُ
على زَوجها الماضي تَنُوحُ وزَوجُها على الطَّلَّةِ الأُولى كَذَاكَ ينُوحُ

قيل : وخاصمت امرأة زوجها الى زياد فجعلت تعيبه ، وتقع فيه ، فقال الزوج : « أصلح الله الامير ، ان شر المرأة كبرها ، ان المرأة اذا كبرت عقم رحمها ، وبذأ لسانها ، وساء خلقها، والرجل اذا كبر استحكم رأيه ، وقل جهله » . قال : « صدقت » ، وحكم له بها .

وذكروا ان امرأة أتت عبيد الله بن زياد ، وكانت ذات شحم وجسم وجمال، مستعدية على زوجها ، وكان أسود دميم الخلقة ، فقال : « ما بال هذه المرأة تشكوك » ؟ قال : « أصلح الله الامير سلها عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعامي أم من طعام غيري » ؟ قالت : « من طعامك ، أفتمن علي بطعام أطعمتنيه ، والكلاب تأكل » ؟ قال : « سلها عن كسوتها من مالي هي أم من مال غيري » ؟ قالت : « من مالك ، أفتمن علي بثوب كسوتنيه » ، قال : وسلها عما في بطنها مني هو أم من غيري » ؟ قالت : « منك ووددت انه في بطني من كلب » ، قال الرجل : « أصلح الله الامير فما تريد المرأة الا أن تطعم وتكسي وتنكح » ، قال : « صدقت، فخذ بيدها » .

قال : خرج رجل مع قتيبة بن مسلم الى خراسان ، وخلّف امرأة يقال لها هند من أجمل نساء زمانها ، فلبث هناك سنين ، فاشترى جارية اسمها جمانة ، وكان له فرس يسميه الورد ، فوقعت الجارية منه موقعاً ، فأنشأ يقول :

ألا لا أبالي اليومَ ما فَعلَتْ هِنْدُ إذا بَقِيَتْ عندي الجُمانةُ والوَرْدُ
شَدِيدُ مناطِ القُصْرَيَينِ إذا جَرَى وبيضاءُ مِثلُ الرِّئمِ زَيَّنها العِقْدُ
فهذَا لِأيامِ الهِيَاجِ وهذهِ لِحَاجةِ نَفسي حين ينصَرِفُ الجُنْدُ

فبلغ ذلك هنداً فكتبت اليه :

ألا أقرهِ منّي السلَامَ وقُلْ لهُ غُنِينا بفِتْيانٍ غَطارِفَةٍ مُرْدِ
فهذَا أميرُ المُؤمنينَ أميرُهُمْ سَبانا وأغْناكُمْ أرَاذِلَةَ الجُنْدِ

إذَا شَاءَ منهُمْ ناشئٌ مَدَّ كَفَّهُ إلى كَبِدٍ مَلْسَاءَ أو كَفَلٍ نَهْدِ

فلما قرأ كتابها ، أتى به الى قتيبة ، فأعطاه إياه ، فقال له : « أبعدك الله ، هكذا يفعل بالحرة » وأذن له في الانصراف .

قال وسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد وتقول :

فمِنهُنَّ منْ تُسقَى بعَذْبٍ مُبَرَّدٍ نُقَاخٍ فتلْكُمْ عنْدَ ذلِكَ قَرَّتِ
ومنهُنّ مَنْ تُسقَى بأَخْضَرَ آجنٍ أُجاجٍ فلولَا خَشْيَةُ اللهِ فرّتِ

فأمر بإحضار زوجها ، فوجده متغير الفم ، فخيره جارية من المغنم او خمسمائة درهم على طلاقها ، فاختار الخمسمائة ، فدفعت اليه ، وخلى سبيلها .

وحكي عن الفضل بن الربيع انه كان بمكة ، ومعه الفرج الرّخجيّ ، وكان الفضل صبيحاً ظريفاً ، والفرج دميماً قبيحاً ، فخرجا الى الطواف ، ثم انصرفا الى بعض طرقات مكة ، وقعدا يتغديان ؛ فبينما هما كذلك على طعامهما ، اذ وقفت عليهما امرأة جميلة بهية ، حسنة شكلة ، وعليها برقع ، فرفعته عن وجهها ، فاذا وجه كالدينار ، وذراع كالجمار ، فسلمت وقعدت ، وجعلت تأكل معهما . قال الفضل : فأعجبني ما رأيت من جمالها وهيئتها ، فقلت : « هل لك من بعل » ؟ قالت : « لا » ، قلت : « فهل لك في بعل من أصحاب امير المؤمنين ، حسن الخلق والخُلق » ؟ قالت : « وأين هـــو » ؟ فأشار الى فرج ، فقالت : « جوابك عند فراغنا » ، فلما أكلت قالت للفضل : « تقرأ شيئاً من كتاب الله » ؟ قال : « نعم » ، قالت : « أفتؤمن به » ؟ قال : « نعم » ، قالت : فان الله يقول : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » ، فضحك الفضل ، ودخل على الرشيد فأخبره فأمر باحضارها ، فلما نظر اليها ، أعجب بها ، فتزوجها وحملها الى مدينة السلام .

قال : وحج اسماعيل بن طريح ، فوقفت عليه اعرابية جميلة . قال : فقال لها : « هل لك ان تزوجيني نفسك » ؟ فقالت من غير توقف :

بكى الَحسبُ الزَّكي بعيْنٍ غَزيرةٍ منَ الَحسبِ المَنْقوصِ أنْ يُجْمَعا معا

وانصرفت . قال العتبي : كنت كثير التزوج ، فمررت بامرأة فأعجبتني فأرسلت اليها : « ألك زوج » ؟ قالت : « لا » ، فصرت اليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرفتها موضعي فقالت : « حسبك قد عرفناك » ، فقلت لها : « زوجيني نفسك » ، فقالت : « نعم ولكن ههنا شيء تحتمله » ، قلت : « ومـــا هو » ؟ قالت : « بياض في مفرق رأسي » ، قال : فانصرفت ،

فصاحت بي : « ارجع » ، فرجعت اليها فأسفرت عن رأسها فنظرت الى وجه حسن ، وشعر أسود ، فقالت : « إنّا كرهنا منك ، عافاك الله، ما كرهت منا » وأنشدت:

أرى شيبَ الرجال منَ ٱلغَواني   بِمَوْضِعِ شَيْبِهنَّ منَ الرِّجالِ

وعن عطاء بن مصعب قال : جاءت امرأة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت : « يا أمير المؤمنين لا أنا ولا زوجي » ، فقال لها : « وما لك من زوجك » ؟ قالت : «مر باحضاره» ، فأحضر ، فاذا رجل قذر الثياب قد طال شعر جسده وأنفه ورأسه ، فأمر عمر ان يؤخذ من شعره ، ويدخل الحمام ، ويكسى ثوبين أبيضين ، ثم يؤتى به ، ففعل ذلك ، ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت : « الآن » ، فقال لها عمر : « اتقي الله، وأطيعي زوجك » ، قالت : « افعل يا امير المؤمنين » . فلما ولت قال عمر : « تصنعوا للنساء فأنهن يحببن منكم ما تحبون منهن » . ويقال : « ان المرأة تحب اربعين سنة ، وتقوى على كتمان ذلك ، وتبغض يوماً واحداً ، فيظهر ذلك بوجهها ولسانها ، والرجل يبغض اربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك ، وان احب يوماً واحداً شهدت جوارحه » .

نساء الخلفاء

قال علي بن محمد بن سليمان : أبي يقول : كان المنصور شرَط لأم موسى الحميرية ان لا يتزوج عليها ، ولا يتسرى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدته ، وأشهدت عليه بذلك، فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق ، وجهد ان يفتيه واحد منهم في التزويج ، وابتياع السراري، فكانت أم موسى اذا علمت مكانه بادرته ، وارسلت اليه بمال ، فاذا عرض عليه ابو جعفر الكتب ، لم يُفتِه ، حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد ، فأتته وفاتها وهو بحلوان ، فأهديت اليه مائة بكر ، وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بالرحبة ، فوقفتها قبل موتها على المولدات الاناث دون الذكور ، فهي وقف عليها الى هذا الوقت .

حدثنا يحيى بن الحسن عن محمـــد بن هشام قاضي مكة ، قال : كانت الخيزران لرجل من ثقيف ، فقالت لمولاها الثقفي : « اني رأيت رؤيا » ، قال : « وما هي» ؟ قالت : « رأيت كأن القمر خرج من قبلي ، وكأن الشمس خرجت من دبري » ، قال لها : « لست من جواري مثلي، أنت تلدين خليفتين » . فقدم بها مكة ، فباعها في الرقيق فاشتريت ، وعرضت على المنصور فقال : « من أين أنت » ؟ قالت : « المولد مكة والمنشأ بجرش » . قال : « فلك احد » ؟

قالت : « ما لي احد إلا الله ، وما ولدت أمي غيري » ، قال : « يا غلام اذهب بها الى المهدي وقل له : « تصلح للولد » ، فأتى بها المهدي، فوقعت منه كل موقع ، فلما ولدت موسى وهرون، قالت : « ان لي أهل بيت بجرش » ، قال : « ومن لك » ؟ قالت : « لي اختان اسمها اسماء وسلسل ، ولي أم واخوان » ، فكتب فأتي بهم ، فتزوج جعفر بن المنصور سلسل ، فولدت منه زبيدة ، واسمها سكينة ، تزوجها الرشيد ، وبقيت اسماء بكراً ، فقال المهدي للخيزران : « قد ولدت رجلين، وقد بايعت لهما، وما احب ان تبقي أمة، واحب ان اعتقك، وتخرجين الى مكة، وتقدمين فأتزوجك » . قالت : « الصواب رأيت » ، فأعتقها وخرجت الى مكة ، فتزوج المهدي اختها اسماء ، ومهرها الف الف درهم ، فلما احس بقدوم الخيزران ، استقبلها فقالت : « ما خبر اسماء ، وكم وهبت لها » ؟ قال : « من اسماء » ؟ قالت : « امرأتك » ، قال : « إن كانت اسماء امرأتي فهي طالق » ، فقالت له : « طلقتها حين علمت بقدومي » ، قال : « أما اذا علمت ، فقد مهرتها الف الف درهم ، ووهبت لها الف الف درهم » ، ثم تزوج الخيزران .

قال : كانت نخلة ، جارية الحسين الخلال ، قبل ان يتولى المتوكل الخلافة ، تقعد بين يديه وتغنيه ، فولدت للحسين ابناً ، فلما ولي المتوكل الخلافة، طرقه ليلاً ، فقال له الحسين : « زرتنا، جعلت فداك » ، قال : « اشتهيت ان اسمع غناء نخلة » . فأخرجها اليه مطمومة الشعر، فقال : « يا خلال أليس قد ولدت منك ابناً » ؟ قال : « بلى » ، قال : « فأنا احب ان تعتقها » . قال : « فانها حرة » ، قال : « فأشهد أني قد تزوجتها ، قومي يا نخلة » . فاشتد ذلك على الحسين ، فعوضه منها خمسة عشر الف دينار ، وحول اليه نخلة . قيل : ووصف للمتوكل ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي ، وعدة من الهاشميات ، فحملن اليه ، وعرضن عليه ، فاختارها من بينهن ، وصرف البواقي ، ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها وبين قبيحة في المنزلة ؛ وكانت جارية لها لباقة وملاحة ، ووصفت له ريطة بنت العباس بن علي ، فحملت اليه، فتزوجها ثم سألها ان تطم شعرها ، وتتشبه بالمماليك ، فأبت عليه ، فأعلمها إن لم تفعل فارقها . فاختارت الفرقة ، فطلقها ؛ ووصفت له عائشة بنت عمرو بن الفرج الرخجي ، فوجه في جوف الليل ، والسماء تهطل ، الى عمر ان احمل الي عائشة ، فسأله ان يصفح عنها ، فانها القيمة بأمره ، فأبى ، فانصرف عمر وهو يقول : « اللهم قني شر عبدك جعفر » ، ثم حملها بالليل فوطئها ، ثم ردها الى منزل أبيها قال : « وكان الهادي يشاور من اصحابه عبد العزيز بن موسى ، وعيسى ابن دأب ، والعزيزي ، وعبد الله بن مالك ، فخرج ذات يوم اليهم وهو مغضب ، كأنه جمل هائج ، منتفخ الأوداج ، منتقع اللون ، فأقبل حتى جلس في مجلسه ، وكان العزيزي أجرأهم عليه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، انا نرى بوجهك ما كدّر علينا عيشنا ، وبغضّ الدنيا الينا ،

فان رأى امير المؤمنين ان يخبرنا بالسبب ، فان كان عندنا حيلة أعلمناه بها ، وان تكن مشورة أشرنا بها ، وان امكن احتمال الغم عنه وقيناه بأنفسنا ، وصرفنا الغم عنه ».

قال : فأطرق طويلاً ، والعزيزي قائم ، فقال له : « أعلمني يا عزيزي ، فاني لم أرَ كصاحب الدنيا قط اكثر آفات ، واعظم نائبة ، ولا انغص عيشاً » ، قال العزيزي : « وما ذاك يا أمير المؤمنين » ؟ قال : « لبابة بنت جعفر بن ابي جعفر قد علمت موقعها مني ، زرتها عندي ، كلمتني بادلال فأغلظت ، فلم يكن لها عندي احتمال ، ولا عندها اقصار ، فحمي وثبت عليها وضربتها ضرباً موجعاً » .

قال : وسكت ، فقال ابن دأب : يا أمير المؤمنين ، انك والله ما أتيت منكراً ، ولا بديعاً، قد كان اصحاب رسول الله ﷺ يؤدبون نساءهم ، ويضربونهن . هذا الزبير بن العوام ، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ، وثب على امرأته اسماء بنت ابي بكر ، وهي افضل نساء اهل زمانها ، فضربها في شيء عتب عليها فيه ضرباً مبرحاً ، حتى كسر يدها ، وكان ذلك سبب فراقها ، وذلك انها استغاثت بولدها عبد الله ، فجاء يخلصها من أبيه فقال : « هي طالق ان حلت بيني وبينها » ، ففعل وبانت منه ، وهذا كعب بن مالك الانصاري ، عتب على امرأته ، وكانت من المهاجرات ، فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها ، فقال :

فلوْلا بنوها حوْلَها لَخبَطْتُها كخَبْطةِ فَرُّوجٍ ولَمْ أتَلَعْثَمِ

المطلّقـــات

قيل : كانت أم الحجاج بن يوسف ، الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود ، وكانت عند المغيرة بن شعبة ، فرآها يوماً تتخلل بكرة ، فقال : « أنت طالق ، والله لئن كان هذا من غذاء يومك لقد شرهت ، وان كان من عشاء امسك لقد انتنت » . فقالت : « لا يبعد الله غيرك ، والله ما هو الا من السواك » ، فخلف عليها بعده يوسف ابو الحجاج ، فأولدها الحجاج ، وفيها أشعار ، منها :

أهاجَتْكَ الظَّعائنُ يومَ بانوا بِذِي الزِّيِّ الجَميلِ مِنَ الأثاثِ
ظَعائنُ أسلكَتْ نَقْبَ المُنقَّى تُحَثُّ إذا وَنَتْ أيَّ احتِثاثِ
كأنَّ على الحَدائجِ يومَ بانوا نِعاجاً تَرْتَعي بَقْلَ البِراثِ

تُؤَمِّلُ أَنْ تُلاقي أهلَ بُصْرَى ... فيالكَ مِنْ لِقـــاءٍ مُسْتَرَاثِ
تُهَيِّجُنا الحَمامُ إذا تَدَاعى ... كما سَجَعَ النَّوائحُ بالمَراثي

وفي زينب أخت الحجاج ، يقول النميري :

ولم تَرَ عَيْني مثلَ سِرْبٍ رأَيْتُهُ ... خَرَجْنَ مِنَ التَّنعيمِ مُعتَمِراتِ
ولَمَّا رأَتْ رَكْبَ النُّميريِّ أعرضتْ ... وكُنَّ مِنَ أَنْ يَلقَيْنَهُ حَذِراتِ
تَضَوَّعَ مِسكاً بَطنُ نُعمانَ إذْ مَشَتْ ... بِهِ زَيْنَبٌ في نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ
مَرَرْنَ بفَخٍّ ثُمَّ رُحْنَ عَشِيَّةً ... يُلَبِّينَ للرَّحْمَنِ مُؤْتَجِرَاتِ
دَعتْ نِسْوَةً شُمَّ العَرانينِ بُدَّناً ... نواعمَ لا شُعثاً ولا غَبِرَاتِ
فأَدْنَيْنَ لَمَّا قُمْنَ يَحْجُبْنَ دُونَها ... حِجاباً مِنَ القَسِّيِّ والحِبِرات
أَجِلَّ الذي فوْقَ السَّمْواتِ عَرْشُهُ ... أَوانِسَ بالبَطْحاءِ مُعْتَجِراتِ
يُخَبِّئنَ أطرافَ البَنانِ مِنَ التُّقَى ... ويَخْرُجْنَ بالأسحارِ مُعْتَمِراتِ

قال عوانة عن محمد بن زياد عن شيخ من كندة : خرج الحارث بن سليل الأسدي زائراً لعلقمة بن حفصة الطائي ، فلما قدم عليه ، بصر بابنة له يقال لها « الزباء » ، وكانت من اجمل نساء أهل عصرها ، فأعجب بها فقال لأبيها : « أتيتك زائراً ، وقد ينكح الخاطب ، ويكرم الطالب ، ويفلح الراغب » فقال : « انت امرؤ كريم يقبل منك الصفو ، ويؤخذ منك العفو ، فأقم ننظر في أمرك » ثم انكفأ الى أهله فقال : « ان الحارث بن سليل سيد قومة منصباً وحسباً وبيتاً فلا ينصرفن من عندنا الا بحاجته ، فأريدي ابنتك عن نفسها » فخلت بالزباء فقالت : « يا بنية أي الرجال أحب اليك ، الكهل الجحجاح ، الفاضل المنـــاح ، أم الفتى الوضاح » قالت : « الزمور الطماح » قالت : « يا بنية ان الشيخ يميرك ، ولا يغيرك ، وليس الكهل الفاضل الكثير النائل ، كالحديث السن ، الكثير الظن » قالت : « يا اماه اخشى الشيخ ان يدنس ثيابي ، ويشمت بي أترابي ، ويبلي شبابي » .

قال : فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الابل وألف درهم وابتنى بها ثم رحل بها الى قومه ، فبينما هو جالس ذات يوم ، وهي الى

جانبه ، إذ أقبل فتية من بني أسد نشاوى يتبخترون ، فلما نظرت اليهم تنفست الصعداء ، وبكت فقال : « ما شأنك » ؟ قالت : « مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ » ؟ قال : « ثكلتك أمك ؛ تجوع الحرّة ، ولا تأكل بثدييها » فذهبت مثلاً .

أما وأبيك ، لرُبّ غارةٍ شهدتها ، وخيل وزعتها ، وسبية اردفتها ، وخمرة شربتها . إلحقي بأهلك ، فأنت طالق . وقال :

تهزّأتْ أن رأتني لابساً كبراً ... وغايةُ الناسِ بين الموتِ والكبر

فإن يكن قد علا رأسي وغيّره ... صرفُ الزّمانِ ، وتغييرٌ من الشَّعَر

فقد أروحُ للذّاتِ الفتى جَذلاً ... وقد أصيدُ بها اعيناً من البقَر

عنّي إليكِ فإنّي لا توافقني ... غورُالكلامِ ، ولاشُربٌعلى الكَدَرِ

قال : وقال الحجاج لابن القرية : « ما تقول في التزويج » ؟ قال : « وجدت اسعد الناس في الدنيا ، وأقرّهم عيناً ، وأطيبهم عيشاً ، وابقاهم سروراً ، وأرخاهم بالاً ، وأشبّهم شباباً ، من رزقه الله زوجة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة ، ان ائتمنها زوجها وجدهـا أمينة ، وان قتّر عليها وجدها قانعة ، وان غاب عنها كانت له حافظة ، تجد زوجها ابداً ناعماً ، وجارها سالماً ، ومملوكها آمناً ، وصبيّها طاهراً ، قد ستر حلمُها جهلها ، وزيّن دينُها عقلها ، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها ، وكاللؤلؤة التي لم تـثقب ، والمسكة التي لم تفتق قوّامـة صوامة ضاحكة بسّامة ، إن أيسرت شكرت ، وان اعسرت صبرت ، فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه ، وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقيل على الشيخ الضعيف ، يجرّه في الارض جراً ، فبعلها مشغول ، وجارها مقبول ، وصبيها مرذول ، وقطها مهزول» . قال : « يا ابن القرية ، قم الآن فاخطب لي هنداً بنت اسماء ، ولا تزد على ثلاث كلمات » .

فأتاهم ، فقال : « جئت من عند من تعلمون ، والأمير يعطيكم ما تسألون ، أفتـُنكحون أم تدعون » ؟ قالوا : « انكحنا وغنمنا » .

فرجع الى الحجاج ، فقال : « أصلح الله الأمير ، صلاح من رضي عمله ، ومدّ في الخيرات أجـله ، وبلغ به امله ، جمع الله شملك ، وأدام طولك ، وأقر عينك ، ووقاك حينك ، وأعلى كعبك ، وذلل صعبك ، وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات ، والتيسير والبركة ، واسعد السعود وأيمن الجدود ، وجعلها الله ودوداً ولوداً ، وجمع بينكما على الخير والبركة ، فتزوجها الحجاج ، ثم إنه دخل ذات يوم عليها ، وهي تقول :

وما هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَليلةُ أفراسٍ تَجلَّلها بَغلُ
فإنْ نُتِجَتْ مُهراً كريماً فبالْحرَى وإنْ يَكُ اقْراف فَما أنْجبَ الفَحْلُ

فخرج من عندها مغضباً ، ودعا ابن القرية ، فدفع اليه مائة الف درهم وقال : « ادخل الى هند وطلقها عني ، ولا تزد على كلمتين ، وادفع اليها المال » ، فحمل ابن القرية المال ، ودخل عليها فقال : « ان الامير يقول : (كنت فبنت) ، وهذه المائة ألف صداقك » . فقالت : « يابن القرية ما سررت به اذ كان ، ولا جزعت عليه إذ بان ، وهذا المال بشارة لك لما جئتنا به » ، فكان القول أشد على الحجاج من فراقها » .

وذكروا أن عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق رضي الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد ابن نفيل فأحبها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وان يطلقها تطليقة واحدة ، ففعل ثم ندم على فعله فقال :

فَلمْ أرَ مِثْلي طَلَّقَ اليوْمَ مِثْلها ولا مثلَها في غيْرِ جُرْمٍ تُطَلَّقُ
لها خُلُقٌ سَهْلٌ وحُسنٌ ومَنْصِبٌ وَخَلْقٌ سَويٌّ ما يُعابُ ومَنْطقُ
أعاتِكَ قلبي كلَّ يوْمٍ وليلةٍ إليكَ بما تُخفي القلوبُ مُعلَّقُ
أعاتِكَ ما أنْساكِ ماذَرَّ شارِقٌ وما لاحَ نَجْمٌ في السَّماءِ مُحلِّقُ

فسمع أبو بكر ذلك فرق له ، وامره بمراجعتها .

وعن علي بن دعبل قال « حدثني ابي قال : خرجت ومعي اعرابي ونبطي الى موضع يقال له بطياثا من امصار دجلة ، متنزهين ، فأكلنا وشربنا ، فقال الاعرابي : قل بيت شعر فقلت :

نِلْنا لذيذَ العيشِ في بَطْياثا

فقال الأعرابي :

لّما حَثَثْنا أقدُحاً ثلاثا

فقال النبطي :

وامرأتي طالـــقٌ ثلاثا

وما زال يبكي حتى الصباح فقلت له : « ما يبكيك » ؟ فقال ذهبت امرأتي بقافية .

قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي : كنت أنا والحسين بن الضحاك يوماً عند المعتصم ، وحضرت قينة تعرض عليه ، فأعجب بها فقال للمدنيين : « كيف ترونها » ؟ فقال أحدهم : « امرأته طالق ان كان رأى مثلها » ، وقال آخر : « امرأته طالق ان لم ... » ، وسكت ، فقال المعتصم : « ان لم ... » ، قال : « لا شيء » ، فضحك وقال له : « ويحك ما دعاك الى طلاق أهلك بلا سبب » ، فقال : « يا أمير المؤمنين كلنا قد طلق امرأته بلا سبب » . ومما قيل في ذلك من الشعر :

رَحَلَتْ أُمَيَّةُ بالطَّلاقِ ونَجوْتُ منْ رِقّ الوِثاقِ
بانَتْ فلَمْ يَجْزَعْ لها قلبي ولمْ تدْمَعْ مآقي
لوْ لمْ أُرحْ بِفِرَاقِها لأرَحْتُ نفسي بالاباقِ
وخَصيتُ نفسي لا أُريـــدُ حَليلةً حتَّى التَّلاقي

وقال آخر :

رَأيتَ أثاثَها فَطَمِعْتَ فيها وقدْ نَصَبَتْ لغيرِكَ بالأثاثِ
فطلِّقْها وعَدِّ النفسَ عنها سريعاً ، إنَّ نفسكَ في التواثِ
وإلَّا فالسلامُ عليكَ إنّي سآخذُ من غدٍ لكَ في المَراثي

محاسن وفاء النساء

قال الكسروي : كتب بلاش بن فيروز الى ملك الهند يخطب ابنته ، فلم ينعم له ، ورد رسوله خائباً ، فتجشّم ، وسار اليه في خيله ورجله ، فلما اصطفت الخيلان ، دعـــاه بلاش الى المبارزة ، وقال : « انه عار على الملوك ان يوردوا جنودهم الهلاك ، ويفوزوا بانفسهم » . فبرز اليـــه ملك الهند ، فاختلفت بينهما ضربتان ، فمنعت « بلاشاً » حصانة درعه ، وضرب بلاش الهندي على عاتقه ، فقطع حبله ، حتى انتهى السيف الى ثندؤته ، فخرّ ميتاً ، وانهزمت خيله ، فافتتح بلاش مدينته ، وأمر ثقاته ، فأحدقوا بقصر ابنة الملك ، فلما احتوى على أمواله ، بعث الى ابنة الملك ان تأتيه ، فقالت للرسول ، وهي تبكي : « قل للملك المزيّن بالحلم ، المحبّب في رعيته ، السعيد بالظفر ، انك قد ملكتني ، وصرتُ ممن يستحق عطفك ورأفتك ، فان رأيت ان تطيب نفساً عن النظر إليّ ، حتى ترجع الى دار مملكتك فافعل » . فانصرف الرسول الى

بلاش ، فأخبره ، فأجابها الى ما سألت ، وسار وحملها حتى قدم دار المملكة ، فهيّأ لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه ، فأنزلها فيها ، وأمر لها بعتيق الديباج ، وفاخر الجوهر ، واسفاط من الذهب ، والصِلات والجوائز والأثاث ، ما لم يأمر لغيرها من نسائه ؛ واستأذنها في الدخول عليها ، فأذنت له ؛ فدخل عليها ، وأقام عندها سبعة ايام ولياليها عجباً منه بها ، لا يحير اليها جواباً ، ولا يخفّ عن صدر مجلسها ؛ فخرج من عندها ، اليوم الثامن ، وقد وقع في قلبه ما أظهرت من خفة مجلسه عليها ، ولبث اشهراً لا يدخل عليها ، فقالت يوماً لحاضنتها : « ما اعجب أمر الملك ! بذل دمه في طلبي ، حتى اذا ظفر ، سلا عني . انطلقي حتى تسألي عن عدّة نسائه ، وأيهنّ اكرم عليه ، وأتيني بعلم ذلك » .

فانطلقت حتى عرفت ذلك ، وانصرفت فقالت : « إني وجدتُ له اربعمائة امرأة ما بين أمَة وحرّة ، وليس فيهنّ أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه ، اعجبته ، فتزوج بها » . فقالت : « انطلقي اليها ، وأقرئيها مني السلام ، وأعلميها اني اريد مؤاخاتها ، والانقطاع اليها » .

فانطلقت الحاضنة الى ابنة السائس ، فابلغتها رسالة مولاتها ، فقالت لها : « أقرئيها مني السلام ، وأعلميها أني قد أحببتها وأجبتها الى ما سألت ، فتصير اليّ » . فانصرفت ، فأخبرتها بما قالت ؛ فتهيأت بأحسن هيئة ، وأقبلت اليها ، ودخلت عليها ، فرفعت مجلسها وأقبلت عليها ، فذكرت حبها لها ، ورغبتها في مواصلتها ، فردّت عليها ابنة السائس أحسن الردّ ، وأعلمتها سرورها بذلك ، ثم تحدثتا ساعة ؛ وانصرفت ، وجعلت الهندية تأتيها غبّاً ، وتُظهر الأنس ؛ فلما أنِسَتْ بها ، قالت لها : « انك قد استلبت قلب الملك ، وقهرت جميعنا بفضلك ، وليس لواحـــدة منّا نصيب ، فأعلمينا الأمر الذي فضلتِنا به لنزداد سروراً بما أوتيت ، ومحبة لك ، والانقطاع اليك » .

قالت : « اني لما عرفت ضعف نسبي ، وقلّة جمالي ، علمتُ أنه لا يرجع الملك مني الى شيء أحظى به عنده مثل المؤاتاة في الخلوة ، وأن أبسطه إذا همّ بالحركة ، وأستميل قلبه باللطف وفضل الخدمة . فلما رآني على ذلك مستمرة ، ورأى من سائر نسائه أنفة الاكفاء ، وزهو الجمال ، وخيلاء الملك ، وعلمت أني ان أخذت ما أخذنه ، مع خمول نسبي ، وقلة جمالي ، ودقة خطري ، لا يليق بي مثل الذي يليق بهن ، ففضّلني على جميع نسائه بذلك » .

فلما سمعت ابنة الملك ذلك ، علمت ان قلوب الرجال لا تُستمال إلا بالمؤاتاة ، وسرعة الاجابة في الباه عند المشغلة ؛ فعزمت أن تجعل ذلك عدّةً لاستعطاف قلب الملك . فانصرفت الى قصرها ، وقالت لبعض جواريها : « اذهبي الى فلانة (تعني ابنة السائس) ، فان رأيت

الملك عندها فأعلميها أني عليلة من وجع عرَض لي » . فانطلقت الجارية ، فاذا الملك عندها ؛ فأخبرتها بذلك ، فرقّ الملك لها ، وذكر غربتها ، وقتله أباها ، فقال لابنة السائس : « ما ترينَ في إتيانها » ؟ فقالت : « أيها الملك ؟ إنه ليس في نسائك من لها عندي مثل منزلتها فصِرْ اليها ، فانها غريبة قد فارقت أهلها ، وهي في موضع رحمة » .

فقام الملك ، حتى دخل عليها ، وانتهى الى باب مجلسها ، فقامت اليه تمشي بأحسن هيئتها ، متكسرة في حليها ، وزينتها عبقةٌ بطيبها وعطرها ، فقبّلت بين عينيه ، وأخذت بيده حتى أجلسته في صدر فراشها ، وجعلت تقبّل يديه ورجليه ، ضاحكةً اليه ، مُظهرةً السرور به . فجذبها الى نفسه ودعاها الى المضاجعة ، فأتته ؛ ولم يُرد في الخلوة شيئاً إلا أجابته اليه ؛ فلما قضى حاجته نازعها الى المحادثة ، فقال : « أين ما ذكر رسولك من وجعك » ؟ قالت : « يا سيّدي، كنتُ متوجعة لفراقك حتى شفاني لقاؤك ، وقلت ذلك لما نالني من تباريح الشوق اليك وطول صدودك وسلوتك » .

ثم أخذ معها في المداعبة ، وأقام عندها سبعة ايام، فبينما هما يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقان، إذ دخلت جارية لابنة السائس ، فحيّت الملك بتحيّة الملوك ، ثم قالت للهندية : « ان سيّدتي (تعني ابنة السائس) تقول : قد اجتمع فيك ثلاث خصال : الاولى الغدر بمعلمتك ، والثانية فضلُ تطاولك ، والثالثة كفران النعمة للمنعم ، وإني عن قريب رادّتُك من الملك الى غصص الغيظ » .

فأفحمتها ، وهملت عيناها ، ونظرت الى الملك كالمستغيثة به فقال لها الملك : « يا حبيبتي ؟ ما تنكرين من أمتك ؟ قد وهبتها لك وجميع ما تملك » . فتجلى عنها غمّها ، فقالت لرسولتها : « إنطلقي فأعلميها ان الملك قد وهبها وما تملك لي ، وقولي لها : أرجعك فحش نفسك الى لؤم حسبك ، وإهمال أدبك . إئتيني ، الساعة ، بصَغار المذلّة ، ورقّة العبودية » .

فلما أبلغتها الرسول ذلك ، أقبلت فدخلت عليها فحيّت الملك وقامت بين يديه ؛ فقالت لها الهندية : « ما كان أعظم زهوك في رسالتك » ؟ قالت : « يا سيدتي ، أتأذنين لي في الكلام » ؟ قالت : « تكلمي » ، قالت : « أيتها السيدة ، لستُ متوجهة اليك بشيء هو أملك بك من حلمك ، ولا أعطف عليّ من فضلك ؛ ولم يظلم من رفع فوقي من هو أفضل مني ، وكل فرع يرجع الى أصله ، وكل زهر يُنسب الى سنخه » فقالت : « صدقت ، فدعي عنك كلام الأدب ، فقد ملكتك على رغم أنفك ، وأنا مزوّجتك من فلان خادمي ، فليس لك فضل عليه » . قالت ابنة السائس : « من اعتاد معالي الأمور ، لم تطب نفسه باسافلها ، ومن صاحب العظماء ،

أبت غريزته الادنياء ؛ وإنما ترقبت عطفك ، ورجوت حسن نظرك ؛ فأما إذا عزمت على هذا ؛ فقد طاب الموت ، وما الذي استبقي منك » ؟

ثم قالت : « أيها الملك ! ان جذل المسرّة منك لا يستقر ويقع موقعه إلا بعد المخالفة عندك . فاحترس من هذه الهندية ، فانها لا تؤمن عليك ، لأنها ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم ، ولا من أهل مملكتك ، فتعرف تطولك عليها . وانما هي شبيهة بموتورة قد قتلت أباها ، وهدمت عزها ، فاحترس منها ، ولا يلهينك موقعها من قلبك ، فانها متى احتالت في قتلك ، لم يكن في أيدينا من الظفر الا قتلها ، كما كان من أمز الثعلب وعظيم الطير ، فقال الملك : وما كان من حديثهما ؟ قالت : يقال إن ثعلباً جاع في ليلة ، فرقي شجرة ليأكل منها ، فسال الوادي الذي فيه تلك الشجرة بسيل شديد ، فاقتلعها والثعلب عليها ، ثم رفعها ووضعها ، حتى ألقى الثعلب الى أرض بعيدة من أرضه ؛ فأصبح ، وقد ألقاه السيل ، الى سفح جبل كثير الاشجار ، مثمر الاغصان ، وعلى تلك الاشجار جنس من الطير لا يحصى عدداً ؛ فأقعى الى شجرة قصياً ، مقشعراً ، لا يعرف أرضه ، ولا يقدر على مؤالفة الدواب . فمر به عظيم الطير ، فقال له : « ما أنت » ؟ فقال : « أنا دابة سال بي السيل ، فألقاني في جبلكم ، وقد أصبحت غريباً » . فقال له عظيم الطير : « فهل لك حرفة » ؟ قال : « نعم . أعرف الثمار إذا بلغت حد بلوغها ، وأصنع للطير أكنافاً في الارض ، تكنّ فيها فراخها من الحرّ والبرد » ، فقال له عظيم الطير : « قد أدركت عندنا بغيتك ، فأقم عندنا نواسك ، ونعرف حق مجاورتك » .

فأقام الثعلب عند ملك الطير ؛ فكان يعرّفهم الثمار المدركة ، ويحفر لهنّ بمخاليبه قبوراً في الارض يفرخن فيها ؛ وكان الثعلب ، إذا جنّ عليه الليل ، وقرم الى اللحم ، أدخل يده في جحر من تلك الاجحرة، فأخرج طيراً او فراخاً، فأكله ودفن ريشه ، وجعلت الطير تتفقد ما كان يأكل واحداً بعد واحد ، فقال بعضها لبعض : « ما فقدنا أفاضلنا إلا منذ صارت هذه الدابّة بين اظهرنا ، وكانت هذه الطير تطيل الغيبة ، وما تدري ما دهاها » . فقال عظيمها : إن هذا حسدٌ منكن لهذه الدابة ، فلا تغفلن ما أصبحتن فيه من فضل المطعم ، وما فيه أخكن من هذه الاكفان التي لا يخاف عليها برد فيها ولا حر » : فقالت الطير : « انت سيّدنا ، وأبصر بالأمور منا » . قال : « وعليّ ان اقطع هذا القول ، وأبيّن حق ذلك من باطله بنفسي » .

فلما أظلم الليل نزل من الشجرة ، فدخل بعض تلك الأكفان وأقبل الثعلب على العادة التي

اعتادها الى ذلك الكنّ ، فأدخل يده ، فقبض على رأس الملك ، فقال الملك للثعلب : « لقد نصحتني الطير لو قبلت نصحها » . قال الثعلب : « انت هو » ؟ قال : « نعم » ؛ قال : « ما ظننت أن يبلغ من حمقك كل هذا » ؟ قال ملك الطير : « دعني أردّك في منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ، ولطيف حيلتك » . قال له الثعلب : « إن أبويّ أدّباني أن لا اعلق أنيابي بشيء ، وأتركه ، إذ ليس من جهلك أن لا تتجزأ من الثار ، ومن الاكفان ، بما كان آباؤك يكتفون به ؛ ولم ترضَ حتى اختبرتَ أمري بنفسك ، ولم تجعل التغرير في ذلك بغيرك » . ثم أكله ، ودفن ريشه ، وفقدت الطير عظيمها ، فاستوحشت ، وضربت وضربت الثعلب ضرباً بمخالبها ومناقيرها حتى قتلته ، ولم يصلن في عظيم خطر ملكهن الى أكثر من قتل الثعلب » .

فاحترس من هذه الهندية .

قالت الهندية : « انما تقرعين المرأة باربعة رجال : بأبيها وأخيها وولدها وبعلها ، وأفضل النساء المختارة بعلها على جميع أهلها ، والمؤثرة له على نفسها ، فكيف بمن ذهب ابوها واخوها ، فبقي بعلهـــا ؟ أفتحبُّ ان تهلكه ؟ على ان مَثلك ، في رداءة همتك ، وخبث نيّتك ، مثَل الغراب والحمامة .

قال الملك : وما كان من حديثهما ؟ قالت : « زعموا ان غراباً ألِف مطبخاً لبعض الملوك ، فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئاً ، فظنوا ان الغراب اخذه لقلة وفائه ، ولؤم جوهره ، فطردوه عن مطبخهم ، وقالوا : ما نرجو من هذا الغراب ، وهو من الطيور التي تعاف ، ويُتطيَّرُ منها ؟؟ فأفشى ذلك الغراب أمره الى حمامة قد كان بينهما معرفة ، وفزع الى رأيها ، واخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب . فقالت له الحمامة : انطلق بي حتى تريني هذا المطبخ . فانطلق حتى اتى سطح المطبخ ، فقالت الحمامة : إني أرى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل ، فاحفر لي بمنقارك قدر ما أدخل ، فان منقاري يضعف عن ذلك . فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره ، حتى دخلت فيه الحمامة ، وتوسطت في البيت ، فأعجبهم حسن خلقها ، وصفاء لونها ، فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوي اليه ، فلبثت في ذلك البيت قريرة عينٍ ، فناداها الغراب : « ما هكذا قدرتُ فيك » . فقالت الحمامة : « لو وفيت لك ، حـــلّ بي غدرك ، وان القوم عرفوا وفائي ، وحسن جواري ، وعرفوا غدرك ، وقلة وفائك ، ونكث عهدك » .

فهذا مثَلي ومثَلُك ، يا ابنة السائس ! إني لو وفيت لكِ ، ارداني غدرك ، وقتلني مكرك » !

قالت ابنة السائس : « ايتها السيدة ! ان الذي سمعت مني ، كان لشدة الأنفة ، فأردتُ ان

انفي عن نفسي الذي اردتِ من انكاحي خادمك فلاناً » .

قالت الهندية : « لا بدّ من ذلك » . فقالت ابنة السائس : « من اعتاد معالي الأمور ، لم تطب نفسه بأسافلها ، الآن استعذبت الموت » ، فعمدت الى سمّ كان معها ، فقذفته في فيها ، فخرّت ميتة ، ووفت الهندية لزوجها ، فأفلحا .

ومنهنّ « شيرين » ، امرأة ابرويز ، فان شيرويه بن أبرويز ، لما قتَل أباه ، وتوطد له الملك ، بعث الى شيرين يدعوها الى نفسه ، فامتنعت عليه ، وأبت ان تجيبه الى ذلك ، فغصبها ضياعها ، وعقارها ، وذخائرها ، وأموالها ، وقذفها بكل فاحشة ، ورماها بكل معضلة ، فلما بلغها ذلك ، هان عليها ما اخذه من أموالها ، مع ما رماها به ، فبعثت اليه ، وقالت : « ايها الرجل ! ان لم يكن مما سألت بدٌ ، فاقض لي ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تريد » . فقال : « وما هذه الحوائج » ؟ قالت : « احداها ان تردّ عليّ ضياعي وأموالي ، والثانية ان تصعد منبرك بحضر من مرازبتك ، وأساورتك ، وعظماء اهل مملكتك ، وتتبرأ مما قذفتني به ، والثالثة ان أباك اودعني وديعة ، فتأمر ان يفتح لي باب الناووس ... ... [1] .

... لها ومعها خاتم ، وفيه سم ساعة ، فنثرته في فيها ، وعانقت قبر زوجها ، فماتت .

غدر النساء

وضده ، قيل : كان لكسرى ابرويز خال يقال له « بسطام » ، فخاف على كسرى ، وجمع جمعاً كثيراً ، وواقع ابرويز . فلما اعيت ابرويز الحيلة فيه ، دعا بكرديّ ، أخي بهرام جور ، (ويقال ان كردياً كان غلاماً له ، رباه ، وبلغ منه مبلغ الرجال ، وكان من خاصته ، والناصحين له) ، فقال له : « قد ترى ما نزل بنا من هذا العدوّ بسطام ، وقد رأيت رأياً ، ان طابقتني عليه ، رجوتُ الظفر » . قال كردي : « وما ذاك ، ايها الملك ؟ اخبرني ، فما شيء يزيدك الله به عزّاً ، ويزيد اعداءك به ذلاً ، إلا بادرتُ اليه بنصحٍ وصدقٍ ، لعظيم حقك ، ووجوب طاعتك » .

قال له كسرى : « قد عرفت حال كردية ، اختك ، امرأة بسطام ، وجراءة قلبها ، وبسطام يأوي اليها كل ليلة ، اذا انصرف عن الحرب ، وأنا جاعل لها عهد الله ، وميثاقه ، وذمة انبيائه ، ان هي أراحتني من بسطام ، واحتالت لي في قتله ، ان أتزوجها ، وأجعلها سيدة نسائي ، وأبلغ في إكرامها والسموّ بها ، افضل ما بلغ ملك بامرأته » .

---

[1] – النقص في اصل النسخة .

قال كردي : « يأيها الملك ! ما أشك في قدرتهـــا عليه ، فاكتب اليها بخطك بما رأيت ، لأوجّهه في الكتاب اليها ، مع امرأتي « أرجيّة » ، فان لها عقلاً ورفقاً وبصيرة» .

فكتب كسرى بخطه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ لكردية بنت بهرام جستاسب، كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز ، ان لك عندي عهد الله ، وذمته ، وذمة انبيائه ورسله ، ان انتِ قتلتِ بسطام ، وأرحتني منـــه ، ان أتزوّج بك ، وأجعلك سيدة نسائي ، وأبلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لأحد ، وأشهد الله على ذلك ، وكفى بالله شهيداً » .

وكتب كسرى بخطه ، وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا . فسارت «أرجيّة » ، حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكردية بالنظر اليهـــا ، وكان بينهما قرابة ، فلما جلست وسكنت ، دفعت اليها كتاب كسرى ، وقالت لها :

« يا ابنة العم ، أجيبي الملك الى ما سألك ، واغنمي بذلك الرجوع الى وطنك » . فرغبت لشدة شوقها الى أهلها ، فأجابتها الى ذلك .

وانصرفت أرجيّة الى عسكر كسرى ، وعرّفت زوجها ما كان بينها وبين كردية ، فمضى كردي الى كسرى فأعلمه .

ثم ان بسطام دخل على كردية، فأتته بعشاء، فتناول منه ، ثم أتته بشراب فسقته ، وجعلت تحدثه ، وتظهر له المحبة ، حتى مضى ثلث الليل ؛ فنام بسطام ، فلما استثقل نوماً ، قامت اليه كردية بسيفها، فوضعته على ثندوءته ، ثم اتكأت فأخرجته من ظهره فمات ؛ وعمدت من ساعتها الى دوابّها ، فحملت حشمها وأثقالها على البغال ، وخرجت نحو عسكر كسرى ؛ وقد كانت وجهت مع « أرجية » الى أخيها ان يجلس لها على الطريق ، فلما وافته ، سار معها حتى ادخلها على كسرى ، ففرح بذلك فرحاً شديداً .

فلما اصبح اصحاب بسطام ، ورأوه قتيلاً ، ولـّوا هاربين على وجوههم ؛ فانصرف كسرى الى المدائن ، فاتخذ لكردية تاجاً مكللاً بالدرر وصنوف الجوهر ، وأعدّ لها وليمة عظيمة دعـــا فيها جنوده ، فطعموا وشربوا ، ثم دعا كردياً أخاها ، فزوّجه إياها ، ومهرها ، وأعطاهـــا خاتماً ، فَصُّهُ من الكبريت الاحمر ، يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج .

فلما دخل بها كسرى ، ونظر الى جمالها وعقلها ، سُرّ بها ، واعطاها الأموال ، وأقطعها الضياع ، وأكرم أخاها كردياً ، وولاّه ارض فارس ، وبلغ بها من رفعه إياها ، وتشريفه لها ، ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها .

ثم ان كردية قالت لكسرى : « يا سيدي، اخرج بنا الى الميدان لألعب، بين يديك، بالكرة والصولجان » . فخرج معها الى الميدان، وخرجت امرأته شيرين، وخواص نسائه ، ودعا بخيل، فأسرجت ، وركبت وركب هو ، وجعلت تلاعبه بالصوالج ، وتناولت السيف ، وركضت في الميدان ، ولعبت بالسيف لعباً معجباً ، ثم اخذت الرمح فلعبت به . فقالت شيرين : « أيها الملك ! ما يؤمنك من هذه الشيطانة » ؟ قال : « هيهات ! إنها أعرف بحقنا ، وأشد حباً لنا من ان نخافها على أنفسنا » .

فلما نزلت ، قال كسرى : « لنا في كل ربع من ارباع مملكتنا قائدٌ في اثني الف رجل ؛ وفي قصري اثنا[1] عشر الف امرأة ، وقد جعلتك قائداً عليهن » . قالت : « يا سيدي ، ما للنساء والفروسية ؛ وانما علينا أن نتزين لك ، ونتطيّب ، ونسرك بأنفسنا ؛ وأردتُ ، بما كان مني ، سرورك وتسلية همومك » . فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه الى منزلها ، وبقي عندها أسبوعاً ، لم يخرج الى الناس ، ولم يأذن لأحدٍ بالدخول عليه ، ثم خرج من عندها الى منزل شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة ، فأعجب بها ، وأمر له بأربعة آلاف درهم . فقالت له شيرين : « أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم، فان أمرت بها لرجل من الوجوه» ، قال : «انما أمر لي بمثل ما امر للصياد » . فقال : « كيف أصنع ، وقد أمرت له » ؟ قالت : « اذا أتاك ، فقل له : أخبرني عن السمكة ، أذكرٌ هي ام أنثى ؟ فان قال : « أنثى » ، فقل : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر . وإن قال : « ذكر » ، فقل مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك ، قال له : « أخبرني عن السمكة ، أذكرٌ هي أم أنثى » ؟ قال : « بل أنثى » . قال : فاتني بذكرها » فقال : عمر الله الملك ؟ إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد » . قال الملك : « زه ، زه » وأمر له بأربعة آلاف درهم ؛ وأمر أن يُكتب في ديوان الحكمة : « إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم » .

وقال : وكان الموبذان[2] اذا دخل على كسرى ، قال : « عشت ، أيها الملك ، بسعادة الجدّ ، ورزقت على اعدائك الظفر ، وأعطيت الخير ، وجنبت طاعة النساء » . فغاظ ذلك شيرين، وكانت أجمل نساء عصرها ، وأتمهن عقلاً ، فقالت لكسرى : « أيها الملك ! إن هذا الموبذان قد طعن في السن ، ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته . وقد رأيت لحاجتك اليه ان أهب له « مسكدانة » ، جاريتي ؛ وقد عرفت عقلها وجمالها ، فان رأيت ان تسأله قبولها ، فافعل » .

---

١ — وفي بعض النسخ « اثني » ، ولكن لا وجه لها .

٢ — كبير القضاة .

فكلم كسرى الموبذان في ذلك ، فهشّ للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها ، فقال : « قد قبلتها أيها الملك ، لا يثارها إياي بأفضل جواريها » . فقالت شيرين لمسكدانة : « اني أريد ان تأتي هذا الشيخ ، فتبدي له محاسنك ، وتجيدي خدمته ؛ فاذا هش لمضاجعتك ، فامتنعي عليه حتى توكفيه وتركبيه ، وتعلميني الوقت الذي يتهيأ لك ذلك حتى لا يعود ان يزيد في تحية الملك : « ووقيت طاعة النساء » [1] فقالت مسكدانة : « أفعل يا سيّدتي » .

ثم انطلقت الى الشيخ ، فصارت عنده في داره التي يحتلها[2] من قصر الملك ؛ فجعلت تخدمه ، وتبرّه ، وتظهر له الكرامة ، وهي مع ذلك تبرز له محاسنها ، وتكشف له عن صدرها ونحرها، وتبدي له ساقيها وفخذيها ، فارتاح الموبذان اليها ، وشرح صدره لمضاجعتها ، فجعلت تمتنع عليه ، فيزداد في ذلك حرصاً . فلما ألحّ عليها ، قالت له : « أيها القاضي ! ما أنا بمجيبتك الى ما سألت ، حتى أوكفك وأركبك ؛ فان أجبتني الى ذلك ، صرت طوع يدك فيما تريد وتدعو اليه من مسرّتك » .

فامتنع عليها أياماً ، وبقيت تتزين له بزينتها ، وتكشف له عن محاسنها ، حتى عيل صبره ، فقال لها : « افعلي ما أحببت » . فهيأت له برذعة صغيرة ، وإكافاً صغيراً ، وحزاماً وثفراً ، وأقامته عرياناً على أربع ، ووضعت على ظهره البرذعة ، والاكاف ، وجعلت الثفر تحت خصيتيه ، وهي قائمة ، وركبته وهي تقول « خر خر » .

وأرسلت الى سيدتها شيرين تعلمها بذلك ، فقالت شيرين للملك : اصعد بنا الى ظهر بيت الموبذان ، لننظر من الروزنة ما يكون بينه وبين الجارية » . فصعدا ، ونظرا ، فاذا هي قد ركبته فوق الاكاف ، فناداه كسرى : « ويحك ! أي شيء هذا » ؟ فرفع الموبذان رأسه ، ونظر الى الروزنة ، ورأى الملك فقال : « هو ما كنت أقول لك في اجتناب طاعة النساء » . فضحك كسرى وقال : « قبّحك الله من شيخ ، وقبح مستشيرك بعد هذا » .

حديث الزباء

ومنهن الزباء ، واسمها هند ، وملكت الشام بعد عمها الصنور ، وكان جذيمة الابرش قتل عمها ، فبعث اليها جذيمة يخطبها ، فأظهرت البشر والسرور لرسوله ، وكتبت اليه بالقدوم عليها لتزوّجه نفسها ، فاستشار نصحاءه ، فقالوا : « أيها الملك ! ان تزوّجت بها ، جمعت ملك

---

١ – والملاحظ ان العبارة كما وردت قبل الآن : « وجنبت طاعة النساء » ، والمعنى واحد .

٢ – وفي بعض النسخ « يحلّها » .

الشام ، وملك الجزيرة الى ملكك » . فاستخلف ابن أخيه عمرو بن عدي ، وسار في ألف فارس من خاصته ؛ فلما انتهى الى مكان يسمى « بقة » ، وهو حدّ مملكتها ومملكته ، نزل في ذلك المكان ، واستشار أصحابه ايضاً في المصير اليها بالانصراف ، فزينوا له الالمــام بها وقالوا : « انك ، ان انصرفت من ههُنا ، أنزله الناس منك على جُبنٍ ووهن » .

فدنا منه مولى يقال له قصير بن سعد ، فقال له : « أيها الملك ، لا تقبل محورة هؤلاء ، وانصرف الى مملكتك حتى يتبين لك أمرها ، فانها امرأة موتورة ، ومن شأن النساء الغدر » .

فلم يحفل بقوله ، ومضى حتى اقتحم مملكتها ، فقال قصير : « ببقةٍ صرم الامر » ، ثم أرسلها مثلاً . فلما بلغ المرأة قدومه عليها ، أمرت جنودها ، فاستقبلوا الملك ؛ فقال قصير : « ايها الملك ! إني رأيت جنودها لم يترجلوا لك ، كما يترجّل للملوك ؛ ولست آمن عليك ، فاركب « العصا » ، وانج بنفسك» (والعصا كانت فرساً لجذيمة ، لا يُشَقّ غبارها) ؛ فلم يعبأ جذيمة بقوله ، وسار حتى دخـــل المدينة ، وأمرت هند الزباء بأصحابه أن ينزلوا فأنزلوا ، وأخذت منهم أسلحتهم ودوابهم ؛ وأذنت لجذيمة ، فدخل عليها ، وهي في قصر لها ، ولم يكن معها في قصرها الا الجواري ، فأومأت اليهن ان يأخذنه ؛ واجتمعن عليه ليكتفنه ، فامتنع عليهن ، فــلم يزلن يضربنه بالاعمدة حتى أثخنه وكتفنه . ثم دعت بنطع ، فأجلسته فيه ، وكشفت عن عورتها ؛ فنظر جذيمة ، فاذا لها شعرة وافية . فقالت : « كيف ترى عروسك ؟ أشوار عروس أم ما ترى ؟ « أرى بنظراً ناتئاً ، ونبتاً فاشياً ، ولا أعلم ما وراء ذلك » ؟ قالت : « أما إنه ليس من عدم المواسي او لقلة الاواسي ، ولكنه شمة من أناسي » .

ثم أمرت به ، فقطعت عروقه ، فجعلت دماؤه تشخب في النطع ، فقالت : « لا يحزنك ما ترى . فانه دم هراقه أهله » ، فأرسلتها مثلاً .

واحتال « قصير » للعصا حتى وصل اليها وركبها ، ثم دفعها ، فجعلت تهوي به كأنها الريح . وكان المكان الذي قصد فيه جذيمة مشرفاً على الطريق ، فنظر جذيمة اليه وقد دفع الفرس ، فقال : « لله حزم على رأس العصا » ، فلم تزل دماؤه تشخب حتى مات . ثم أمرت بأصحابه ، فقتلوا بأجمعهم .

وكان عمرو بن عديّ يركب كل يوم من الحيرة ، فيأتي طريق الشام ، يتجسس عن خــبره وحاله ، فلم يُبلغه احد خبره . فبينا هو ذات يوم في ذلك ، اذ نظر الى فرس مقبل على الطريق ، فلما دنا منه ، عرف الفرس ، وقال : « يا خير ما جاءت به العصا » ، فذهبت مثلاً . فلما دنا منه قصير ، قال له : « ما وراءك » ؟ قال : « قُتل خالك وجنوده جميعاً ، فاطلب بثأرك » . قال:

« وكيف لي بهـــا ، وهي أمنع من عقاب الجو » ؟ فذهبت مثلاً . ثم ان قصيراً أمر بأنف نفسه فجدع ، ثم ركب وسار نحو الزبّاء ، فاستأذن عليها ، فقيل لها : « ان مولى لجذيمة وقهرمانة وأكرم الناس عليه قد أتاك مجدوعاً » . فأذنت له ، فدخل عليها .

قالت : « من صنع بك هذا » ؟ قال : « ايتها الملكة ! هذا فعل عمرو بن عدي ، اتّهمني وتجنّى عليّ الذنوب ، وزعم اني أشرتُ على خاله بالمصير اليك ، حتى فعل بي ما ترين ، ولم آمنه ان يقتلني ، فخرجتُ هارباً اليـــك ، وقد أتيتك لأكون معك ، وفي خدمتك ؛ ولي جداء وعندي غناء » .

قالت : « نعم أقم ، فعندي لك ما تحب » ، وولّته نفقتها ، فخفّ لها ، ورأت منه الرشاقة فيما اسندته اليه ، فأقام عندها حولاً ، ثم قال لها : « أيتها الملكة ! إنه لي بالعراق مالاً كثيراً ، فاذا أذنت لي في الخروج لحمله ، فافعلي » . فدفعت اليه مالاً كثيراً ، وأمرته ان يشتري له ثياباً من الخزّ والوشي ولآلىء وياقوتاً ومسكاً وعنبراً وألنجوجاً . فانطلق حتى أتى عَمْراً فأخبره ، فأخذ منه ضعفي مالها ، وانصرف نحوها ، فاسترخصت ما جاء به ، وردّته الثانية والثالثة ، فكان يأخذ في كل مرة مثل أضعاف مالها ، فيشتري لها جميع ما تريد ، فتسترخصه .

ووقع قصير بقلبها ، فاستخلفته ، ثم بعثته في الدفعة الرابعة بمال عظيم ، وأمرته ان يشتري أثاثاً ومتاعاً وفرشاً وآنية ، فانطلق الى عمرو ، فقال : « قد قضيتُ ما عليّ ، وبقي ما عليك » ، فقال : « وما الذي تريد » ؟ قال : « أخرج معي في ألفي فارس من خدمك ، وكونوا في اجواف الجواليق ، على كل بعير رجلان » . فانتخب عمرو ألفي فارس من اصحابه ، فخرج ، وخرجوا معـــه في الجواليق ، كل رجل بسيف ، وكان يسير النهار ، فاذا أمسى الليل ، فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم ، حتى اذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل ، تقدم « قصير » حتى دخل عليها ، وقال: « ايتها الملكة ! اصعدي على القصر لتنظري ما اتيتك به » ، فصعدت فنظرت الى ثقل الأحمال على الجمال ، فقالت :

ما للجِمالِ مَشْيُهَا وئيدا ... أَجَنْدَلاً يحمِلْنَ أم حَديدا

أم صَرَفاناً بارداً شديدا

فأجابها قصير سراً :

« بل الرِّجالَ جُثَّمًا قعودا »

فقال : « لما عليها من المتاع الثقيل النفيس » . فأمرت بالأحمال ، فأدخِلت قصرها ، وكان زمن المساء ، فقالت : « اذا كان غداً نظرنا الى ما أتيتنا به » .

فلما جنّ عليهم الليل ، فتحوا الجواليق ، وخرجوا ، فقتلوا جميع من في القصر . وكان لها سربٌ قد أعدته للفزع والهرب ، ان حلّ بها روع ، تخرج الى الصحراء ؛ وقد كان قصير عرف ذلك المكان ، ووصفه لعمرو ، فبادر عمرو الى السرب ، فاستقبلته الزبّاء ، فولت هاربة نحو السرب ، فاستقبلها بالسيف ، فمصّت فصّها ، وكان مسموماً ، وقالت : « بيدي لا بيدك يا عمرو ، ولا بيدي العبد » ، فقال عمرو : « يدُه ويدي سواء ، وفي كليهما شفاء » ، وضربها بسيفه حتى قتلها ؛ وأقبل قصير حتى وقف عليها ، فجعل يُدخل سيفه في فرجها ويقول :

ولو رأوْني وسيفي يومَ أُدخِلُهُ في جوفِ زبّاءَ ماتُوا كُلُّهُمْ فرَحا

وغنم عمرو وأصحابه من مدينتها اموالاً جليلة ، وانصرفوا الى الحيرة ، فكان الملك ، بعد خاله جذيمة ، وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي ؛ ومنهنّ صاحبة الجعد بن الحسين أبي صخر بن الجعد ، وكان جعد قد طعن في السن ، وكان يُكنى أبا الصموت ، وكانت له وليدة سوداء ، فقالت : « يا أبا الصموت ! زعم بنوك ان يقتلوني اذا أنت متّ » ، قال : « ولِمَ ذاك » ؟ قالت : « ما لي اليهم ذنب غير حبك ، فأعتقني » ، فأعتقها ، فبقيت يسيراً ، ثم قالت : « يا أبا الصموت ! هذا عرابة من أهل عدن يخطبني » ! قال : « ما كان هذا ظني بك » ، قالت : « إنما اريد ما له لك » ، فقال : « ائتيني به » ، فجاءت به ، فزوّجها منه ، فولدت منه ، وقرّبته من مال جعد ، وكانت تأتي الجعد ، فتخضب رأسه ، ثم قطمته ، فقال الجعد :

أبلِغ لديك بني عَمْرٍ مُغلغَلَةً عوفاً وعَمْراً ، فما قولي بمردودِ
بأنَّ بيتي أمسى فوقَ داهيةٍ سوداءَ قد وعَدتني شَرَّ مَوعودِ
تُعطى عُرابةَ بالكفَّينِ مختضَباً مِن الخَلوقِ ، وتُعطيني على العودِ
أَمسَى عُرابةُ ذا مالٍ وذا ولدٍ من مالِ جعدٍ، وجَعْدٌ غيرُ محمودِ

ومنهنّ امرأة مروان بن الحكم ، وكانت أم خالد بن يزيد بن معاوية وهي ابنة هشام بن عتبة ، فأراد مروان الخروج الى مصر ، فقال لخالد : « أعرني سلاحك » ، فأعاره ، فلما رجع ، قال له خالد : « رُدّ عليّ سلاحي » ، فأبى عليه . وكان مروان فحّاشاً ، فقال له : « يابن الربوخ الرطبة » ، فجاء خالد الى أمّه ، فقال : « هذا ما صنعتِ بي . سبّني على رؤوس الملأ ،

وقال لي كيت وكيت ، قالت : «اسكت، فاني أكفيك أمره » . فجاء مروان ، فرقد عندها ، فأمرت جواريها ، فطرحن عليه الشوادكين (يمني الملاحف)، ثم غططنه حتى قتلنه ، وخرجن يصحنَ : « وا أمير المؤمنيناه » !! فدعا عبد الله بامرأة أبيه ليقتلها ، فقالت : « ان الذي يبقى عليك من العار اعظم من قتل أبيك » ؛ قال : « وما ذاك » ؟ قالت : « يقول الناس : ان أباك قتلته امرأة » فأمسك عنها .

محاسن مكر النساء

ذكروا ان الحجاج بن يوسف أرِقَ ، ذات ليلة ، فبعث الى ابن القرية ، فقال : (أرقتُ ، فحدّثني حديثاً يقصر على طول ليلي ، ولكن من مكر النساء وفعالهنّ) . فقال : أصلح الله الأمير ! ذكروا أن رجلاً يقال له عمرو بن عامر من اهل البصرة، كان معروفاً بالنسك والسخاء. وكانت له زوجةَ يقال لها (جميلة) ، وله صديق من النسّاك . فاستودعه عمرو ألف دينار ، وقال : ان حدثت بي حادثة ، ورأيت أهلي محتاجين ، فأعطهم هذا المال . فعاش ما عاش ، ثم دُعي فأجاب ، فمكثت جميلة بعده حيناً ، ثم ساءت حالها ، وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم او عشاء ليلة . فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع ، إذ لقيها الناسك صديق عمرو ، فقال : (فلانة » ؟ قالت : (نعم) . قال : (حاجتك) ؟ فأخبرته بسوء الحال، وما اضطرت اليـــه مولاتها من بيع خاتمها ، فهملت عيناه دموعاً ، ثم قال : (ان لعمرو قبلي ألف دينار ، فأعلمي بذلك صاحبتك) . فأقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة ، وهي تقول : (رزق حـــلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل) . فلما سمعت مولاتها ذلك، سألتها عن القصة، فأخبرتها ، فخرّت ساجدة ، وحمدت ربها ، وبعثت بالجارية الى الناسك ، فأقبل الناسك ومعه المال ، فلما دخل الدار ، كره ان يدفع المال الى احد سواها؛ فخرجت ، فلما نظر الى جمالها وكمالها، اخذت بمجامع قلبه ، وفارقه النُّهى ، وذهب عنه الحياء ، وأنشأ يقول :

قد سلبتِ الجسم والقلبَ معاً ... وبَرَيْت العظمَ ممّـــا تلحَظين
فاردُدي قلبَ عميدٍ واقبلي ... صلَةَ الضعفين ممّا ترتجين

فأطرقت جميلة لقوله طويلاً ، ثم قالت : (ويحك ، ألست المعروف بالنسك المنسوب الى الورع) ؟ قال : (بلى . ولكن نور وجهك سلّ جسمي ، فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي . فهذا مقام اللائذ بك) ! قالت : (أيها المرائي المخادع ! أخرج عني مذموماً مدحوراً) . فخرج

عنها ، وقد هام قلبه ، وأضحت جميلة تُعمل الحيلة في استخراج حقها ، فأتت الملك ترفع اليه ظلامتها ، فلم تصل اليه ، فأتت الحاجب ، فشكت اليه ، فأعجب بها اعجاباً شديداً ، وقالت : (ان لوجهك صورة أدفعها عن هذا ، ولا يحمل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفَي مالك في ستر ورفق) ؟ فقالت : (سوءة لامرأة حرة تميل الى ريبة) . فانصرفت الى صاحب الشرطة ، فأنهت ظلامتها اليه ، فأعجب بها وقال: (ان حجّتك على الناسك لا تُقبل إلا بشاهدين عدلين ، وأنا مشترٍ خصومتك ، إن أنت نزلت عند مسرّتي) . فانصرفت عنه الى القاضي ، فشكت اليه ، فأخذت بقلبه ، وكاد القاضي يجنُّ إعجاباً بها ، وقال : (يا قرّة العين ! انه لا يُزهد في أمثالك ، فهل لك في مواصلتي وغناء الدهر) ؟ فانصرفت ، وباتت تحتال في استخراج حقها ، فبعثت الجارية الى نجـــار ، فعمل لها تابوتاً بثلاثة أبواب ، كل منها مفرد ؛ ثم بعثت الجارية الى الحاجب ان يأتيها اذا أصبح ، والى صاحب الشرطة ان يأتيها ضَحْوة ، والى القاضي ان يأتيها اذا تعالى النهار ، والى الناسك ان يأتيها اذا انتصف النهار .

فأتاها الحاجب، فأقبلت عليه تحدثه، فما فرغت من حديثها حتى قالت لها الجارية: (صاحب الشرطة بالباب) ، فقالت للحاجب : (ليس في البيت ملجأ إلا هذا التابوت ، فأدخل أيّ بيت شئت منه . فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه . ودخل صاحب الشرطة ، فأقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه ، فما كان بأسرع من ان قالت الجارية : (القاضي بالباب) ؛ فقال صاحب الشرطة : (اين اختبيء) ؟ فقالت : (لا ملجأ إلا هذا التابوت ، وفيه بيتان ، فادخل أيهما شئت) ، فدخل ، فأقفلت عليه ، فلما دخل القاضي ، قالت : (مرحباً وأهلاً) ، واقبلت عليـــه بالترحيب والتلطيف . فبينا هي كذلك ، اذ قالت الجارية : (الناسك بالباب) ، فقال القاضي : (ماذا ترين في ردّه) ؟ فقالت : (ما لي الى ردّه سبيل) . قال : (فكيف الحيلة)؟ قالت : (إني مدخلتك هذا التابوت، ومخاصمته، فاشهد لي بما تسمع، واحكم بيني وبينه بالحق). قال : (نعم) ، فدخل البيت الثالث ، فأقفلت عليه .

ودخل الناسك ، فقالت له : « مرحباً بالزائر الجاني ، كيف بدا لك في زيارتنا » ؟ قال : « شوقاً الى رؤيتك، وحنيناً الى قربك». قالت : « فالمال ، ما تقول فيه : أشهد الله على نفسك برده ، اتبع رأيك ... قال : « اللهم إنني أشهدك الله لجميلة عندي ألف دينار وديعة زوجها » . فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها ، وخرجت مبادرة نحو باب الملك ، فأنهت ظلامتها اليه ، فأرسل الملك الى الحاجب ، وصاحب الشرطة ، والقاضي ، فلم يقدر [1] على واحد منهم ؛ فقعد

---

[1] — ولعلّها « فلم يعثر » .

لها ، وسألها البينة ، فقالت : « يشهد تابوت عندي فضحك الملـــك وقال : « يحتمل ذلك لجمالك » . فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها ، وحمل الى بين يدي الملك ، فقامت وضربت بيدها الى التابوت وقالت : « أعطي الله عهداً لتنطقن بالحق ، وتشهدن بما سمعت ، أو لأضرمنك نارا » ، فاذا ثلاثة اصوات من جوف التابوت تشهد على اقرار الناسك لجميلة بالف دينار . فكبر ذلك على الملك ، فقالت جميلة : « لم أجد في المملكة قوماً أوفى ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي » ، ثم فتحت التابوت وأخرجت ثلاثة النفر ، وسألها الملك عن قصتها فأخبرته ، وأخذت حقها من الناسك ، فقال الحجاج : « لله درها مـــا أحسن ما احتالت لاستخراج حقها » .

قال : وكان يعقوب بن يحيى المدائني ، ويحيى الكاتب ، كاتب سهل بن رستم ، يتحدثان الى مهدية ، جارية سليمان بن الساحر ، فقال يعقوب يوماً ليحيى : « أنا أشتهي ان أرى بطن مهدية » ، فقال يحيى : « ما تجعل لي ان أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه » ؟ قال : « ما شئت » قال : « برذونك هذا » قال : « نعم » . قال : فتوثق منه ، وأتى مهدية فقال لها : « كان لي برذون موافق فاره فنفق ، وأنت لو شئت لحملتني على برذون فاره » ، قالت : « انا افعل واشتريه لك بما بلغ الثمن » ، قال : « انت قادرة عليه بغير الثمن » ، قالت : « كيف ذلك » ؟ فاخبرها بالقصة فقالت : « قد حملك الله على البرذون ، وارجحك النظر الى بطن حسن ، فاذا كان غداً فتعال انت ويعقوب فاجلسا ، فان سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيراً ، فاذا فعل ذلك وجئت انا، فقل : « انت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته » ، قال : « نعم » ، فلما جاءت مهدية ، قال لها : « ان امر سليمان مع وصيفته اشنع مما تقدرينه » ، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت : « مثلك يابن الساحر يفعل هذا مرة بعد اخرى » ، وشقت جيبها الى ان جاوزت اسفل البطن وهي قائمة ، فنظر الى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتم ابن الساحر ، فقام اليها يترضاها ويسكنها ، ويعقوب يقول « وابرذوناه » فأخذه منه يحيى .

وعن المساور قال : كان عندنا بالاهواز رجل متأهل ، وكانت له أرض بالبصرة ، وكان في السنة يأتيها مرة او مرتين ، فتزوج بها امرأة ليس لها الا عم في الدار ؛ وكان يكثر الانحدار بعد ذلك الى البصرة ، فأنكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره ، ثم احتالت وبعثت من أورد خطاً لعم المرأة البصرية ، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية الى زوجها على خطه بان ابنة أخيه توفيت ، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت ، ودست الكتاب مع انسان شبيه بالملاح . فلما أتى بالكتاب خرج اليه فدفع الكتاب ، ولم يشك ان امرأته البصرية ماتت ، فقال لامرأته : « اجعلي لي سفرة » ، قالت : « ولم » ؟ قال : « اريد الخروج الى البصرة » ، قالت :

« وكم هذه البصرة ؟ قد رابني امرك ، وما اشك ان هنالك لــك امرأة » ، فأنكر ذلك ، فقالت : « ان كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري » ، فقال في نفسه : « تلك قد ماتت ، وليس علي ان احلف بطلاقها فأرضي هذه » ، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الاهوازية ، فقالت الاهوازية : « يا جارية هات السفرة ، فقد أغناه الله عــن الخروج » ، قال : « وما ذلك » ؟ قالت : « قد طلقت الفاسقة » ، وقصت عليه القصة ، فعرف مكرها ، وأقام .

مساويء مكر النساء

وذكروا أن لقمان بن عاد صاحب لبد ، خرج يجول في قبائل العرب ، فنزل بحي من العماليق ، فبينا هو كذلك اذ ظعن القوم ، فظعن معهم ، فسمع بامرأة تقول لزوجها : « فلان لو حملت سفطي هذا حتى تجاوز به الثنية ، فان فيه من متاع النساء ما لا بد لهن منه ، ولعل البعير يقع فيتكسر » وذلك من لقمان بمنظر ومسمع ، فقال : « أفعل » . فاحتمله على عاتقه ، فلما انحدر ، وجد بللاً في صدره فشمه ، فاذا هو ريح بول قد جاء من السفط الذي على رأسه ففتح السفط فاذا هو بغلام قد خرج منه يعدو ، فلما نظر لقمان قال : يا إحدى بنات طبق » ، — وبنات الطبق ان ان تأتي الحية السلحفاة، فتلتوي عليها، فتبيض بيضة واحدة ، فتخرج منها حية شبراً او نحوه ، لا تضرب شيئاً إلا أهلكته — فتبعه لقمان حتى لحقه ، فجاء به يحمله ، واجتمع الناس اليه ، وقالوا : « يا لقمان احكم فيما ترى » فقال : « ردوا الغلام في السفط يكون له مثوى حتى يرى ويعلم ان العقاب فيما أتى وتحمله المرأة بفعلها ، حملوها ما حملت زوجها ، ثم شدوا عليها ، فان ذلك جزاء مثلها » . فعمدوا الى الغلام ، فشدوه في السفط ، ثم شدوه في عنق المرأة ، ثم تركوهما حتى ماتا .

ثم فارقهم لقمان ، فأتى قبيلة أخرى فنزل بهم ، فبينا هو كذلك ، اذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها ، فسألت احداهن : (أين تذهبين) ؟ قالت : (الى الخلاء) ، ثم خرجت الى بيوت الحي فعارضها رجل فمضيا جميعاً ، ولقمان ينظر ، فوقع الرجل عليها ، وقضى حاجته منها ، فقالت المرأة : (هل لك ان أتماوت على أهلي ، فانما هو ثلاثة أيام أكون في رجمي ، ثم تجيء : فلتستخرجني فنتمتع) ، فقال الرجل : (افعلي) ؛ وكان اسمه الخلي ، وزوج المرأة اسمه الشجي فقال لقمان : (ويل للشجي من الخلي) فذهبت مثلاً ، فلم تلبث المرأة الا اياماً حتى تماوتت على أهلها ، وكان الميت منهم اذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن اذ ذاك قبور ، فلما كان اليوم الثالث ، جاءها خليلها فأخرجها ، وانطلق بها الى منزله ، وتحول الحي من ذلك المكان ، وخافت المرأة أن تعرف فجزت شعرها ، وتركت لنفسها جمة ، فبينا هم كذلك ،

[illegible]

اذ خرج [illegible] رأة جالسة ذات جمة ، فقالت الصغرى : (أمي والله) ، قالت الو [illegible] ، قالت المرأة : (كذبتما ما أنا لكما بأم) ، قالت الكبرى : (صدقت [illegible] ـير ذات جمة ، ما كان لأمنا الا لمة) قالت الصغرى : (هبك أنكرت اعلاها ، أما تعرفين أخراها) فتعلقت به ، فقالت : (صغراهن مراهن) ، فذهبت مثلاً. واجتمع الناس، وجاء زوج المرأة ، فارتفعوا الى لقمان فقالوا : (احكم بيننا) ، فقال لقمان : (عند جهينة الخبر اليقين) فذهبت مثلاً .

وكان يلقب بجهينة ، فقال لقمان للمرأة : (أخبرك ام تخبريني) ؟ قالت : (بل قل) ، قال : (انك قلت لهذا اني متاورة على اهلي ، فاذا دفنوني في رجمي ، جئت فاستخرجتني ، وأتنكر لهم فلا يعرفونني ، فنتنعم ما بقينا) ، فاعترفت المرأة فقيل للقمان : (احكم بيننا) ، قال : (ارجموها كما رجمت نفسها) ، فحفر لها حفرة وألقوها ، فيها ورجموها ، وكانت اول مرجومة في العرب ، ثم ان زوجها تعلق بالحلي فقال : (يا لقمان هذا فراق بيني وبين أهلي) ، فقال لقمان : (لكل ذكر أنثى ، ولكل اول آخر ، فرّق بينك وبين أنثاك ، ونفرق بين ذكره وبين أنثييه ، فقطع ذكره ، فمات .

محاسن الغـــيرة

روي انه إذا أغير الرجل في أهله ، او في بعض مناكحه ، او مملوكته فلم يغر ، بعث الله ، جلّ اسمه ، اليه طيراً يقال له : (القرقفنة) حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم يمهله أربعين صباحاً يهتف به : (إن الله غيور يحب كل غيور) ، فان هو تغير وأنكر ذلك ، والا طار حتى يسقط على رأسه ، فيخفق بجناحيه على عينيه ، ثم يطير عنه ، فينزع الله منه روح الايمان ، وتسميه الملائكة : الديوث .

وقال النبي ﷺ : (باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فان كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي لا دواء له) . وروي ان امرأة ذات عقل ورأي حملت من فاجر ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : (قرب الوساد وطول السهاد) ، تريد قرب مضجعه منها وطول مسارّته اياها . وقال ﷺ : (النساء حبائل الشيطان) ، وقال سعيد بن مسلم : « لأن يرى حرمتي ألف رجل على حال تكشف وهي لا تراهم ، أحب إلي من ان ترى حرمتي رجلاً مواجهة) وقيل لعقيل بن علفة : (ألا تزوج بناتك) ؟ فقال : (اجيعهن فلا يأشرن ، واعريهن فلا يظهرن) ، فوافق احدى كلمتيه قول النبي ﷺ : (الصوم وجاء السيئة) ، والاخرى قول عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : (استعينوا عليهن بالعري) . وغاية امـــوال الرجال وكسبهم وهمهم وما

يملكون ، إنما هو مصروف الى النساء ، فلو لم يكن الا ما يعدّ لهن من الطيب والحلى ، والكساء والفرش والآنية ، كان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن الا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهن ، والجناية عليهن ، لكان في ذلك المئونة العظيمة ، والمشقة الشديدة ، غير ان اولى الاشياء بالرجال حفظهن وحراستهن ، فليس شيء لهن أصلح من مباعدتهن عن الرجال ، وقمعهن بالعري والجوع ، ومن حق الملوك أن لا يرفع احد من خاصتها وبطانتها ، رأسه الى حرمة لها ، صغرت ام كبرت ، فكم من فيل وطيء هامة عظيم ، وبطنه حتى بدت أمعاؤه ؟ وكم من شريف وعزيز قوم ، قد مزقته السباع ونهشته ؟ وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة في أهلها، وقد أكلها حيتان البحر وطير الماء ؟ وكم من جمجمة كانت تصان ، وتعل بالمسك والبان قد ألقيت بالعراء ، وغيبت جثتها في الثرى ، بسبب الحرم والخدم والغلمان ، ولم يأت الشيطان أحداً قط من باب حتى يراه بحيث ان من يهوى مستقيم اللحم والاعضاء ، هو أبلـــغ من مكيدته ، وأخرى ان يرى فيه أمنية من هذا الباب اذ كان من ألطف مكايده ، وأدق وساوسه ، وأجل تزايينه .

وقيل لابنة الخس : (لم زنيت بعبدك ولم تزن بحر ؟ قالت : (طول السهاد وقرب الوساد) . وقيل : (لو ان أقبح الناس وجهاً ، وأنتنهم رائحة ، وأظهرهم فقراً ، وأسقطهم نفساً ، وأوضعهم حسباً قال لامرأة تمكن من كلامها ، ومكنته من سمعها : والله يا مولاتي قد اسهرت ليلي ، وأرقت عيني ، وشغلتني عن مهم أمري ، فما اعقل أهلاً ولا ولداً ، ولو كانت ابرع الناس جمالاً ، واكملهم كمالاً ، واملحهم ملاحة ، وان كانت عينه تدمع بذلك ، ثم كانت تكون مثل أم الدرداء ، أو معاذة العدوية ، او رابعة القيسية لمالت اليه وأحبته) . ومنها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (إضربوهن بالعري ، فان النساء يخرجن الى الاعراس ، ويقمن في المناحات ، ويظهرن في الاعياد ، ومتى كثر خروجهن لم يعد بد أن يرين من هو شكلهن ، ولو كان بعلهن أتم حسناً ، وأحسن وجهاً ، والذي رأت أنقص حسناً ، ولكان ما لا تملكه أظرف عندها مما تملكه ، ولكان ما لم تملكه او تستكثر منه أشد لهـــا اشتغالاً واجتذاباً) . قال الشاعر :

وَلِلعيْنِ ملْهى بالنِّساء وَلَمْ يَقُدْ هَوَى النَّفْسِ شَيْءٌ كَاْقتِيَادِ الطَّرَائِفِ

وكانت الاكاسرة اذا امتحنت الخاصة من اصحابها ، وخف الواحد عنهم على قلب الملك ، وكان الرجل عالماً بالحكمة ، موضعاً للامانة في الدماء والفروج والأموال على ظاهره ، فيأمره ان يتحول الى منزله ، وان تفرغ اليه حجرة، وان لا يتحول اليه بامرأة ولا جارية، ولا حرمة،

ويقول له : (أريد بك الانس في ليلي ونهاري ، وان كان معك بعض حرمك قطمك عني فاجعل منصرفك الى منزلك في كل خمس ليال) ، فاذا تحول الرجل أنس به ، وخلا معه ، وكان آخر من ينصرف من عنده ، فيتركه على هذه الحالة أشهراً .

امتحن ابرويز رجلا من خاصته بهذه المحنة ، ثم دس اليه جارية من بعض جواريه ، ووجه معها اليه بألطاف وهدايا ، وأمرها ان لا تقعد عنده في اول مرة ، فأتته بألطاف الملك ، وقامت بين يديه ، ولم تلبث ان انصرفت حتى اذا كانت المرة الثانية ، أمرها ان تقعد هنيهة ، وان تبدي عن محاسنها حتى يتأملها ففعلت ، ولاحظها الرجل وتأملها ، وجعل الرجل يحد النظر اليها ، ويسر بمحادثتها ، ومن شأن النفس ان تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة ، فلما أبدى ما عنده ، قالت : (اخاف ان يعثر علينا ولكن دعني حتى أدبر في هذا ما يتم به الأمر بيننا) ، ثم انصرفت فأخبرت الملك بذلك ، وبكل شيء جرى بينهما ، فلما كانت المرة الثالثة امرها ان تطيل القعود عنده ، وان تحدثه ، وان أرادها على الزيادة في المحادثة أجابته اليه ففعلت ، ووجه اليه أخرى من خواص جواريه ، وثقافتهن بألطافه وهداياه ، فلما جاءت قال لها : (ما فعلت فلانة) ؟ قالت : (اعتلت فاربدّ لون الرجل) ، ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الاولى ، ثم عاودته فقعدت اكثر من المقدار الاول ، وأبدت بعض محاسنها ، حتى تأملها ، وعاودته في المرة الثالثة ، وأطالت القعود والمضاحكة والمهازلة ، فدعاها الى ما في تركيب النفس من الشهوة ، فقالت : (أنا من الملك على خطىً يسيرة ، ومعه في دار واحدة ، ولكن الملك يمضي بعد ثلاث الى بستانه الذي بموضع كـــذا ، فيقيم هناك ، فان ارادك على الذهاب معه ، فأظهر انك عليل وتمارض ، فان خيّرك بين الانصراف الى نسائك او المقام هنا ، فاختر المقام ، وأخبره انك لا تقدر على الحركة ، فان أجابك الى ذلك ، جئت من أول الليل ، فأكون معك الى آخره) .

فسكن الرقيع الى قولها ، وانصرفت الجارية ، فأخبرت الملك بكل ما دار بينهما ؛ فلمـــا كان الوقت الذي وعدته أن يخرج الملك فيه ، دعاه الملك فقال الرسول : « أخبره أني عليل » ، فلما جاءه الرسول وأخبره ، تبسّم وقال : « هذا أول الشرّ » . فوجّه اليه محفّة يُحمل فيها ، فأتاه وهو معصب ، فلمـــا بصر به ، قال : « والمحفّة الشرّ الثاني » ، فتبيّن العصابة فقال : « والعصابة الشر الثالث » . فلما دنا من الملك ، سجد ، فقال له : « متى حدثت بـــك هذه العلة » ؟ قال : « هـــذه الليلة » . قال : « فأي الأمرين أحبّ اليك : الانصراف الى نسائك لتمريضك ، أم المقام هنا لوقت رجوعي » ؟ قال : « المقام هنا ، أيها الملك ، أوفـــق لقلّة الحركة » . فتبسّم أبرويز وقال : « حركتك هنا ، ان تركت ، أكثر من حركتك في منزلك » . ثم أمر له بعصا الزناة التي كان يوسم بها من زنى ، فأيقن الرجل بالشر ، وأمر أن

يكتب ما كان من أمره حرفاً حرفاً ، فيقرأ على الناس اذا حضروا ، وأن يُنفى الى أقصى مملكته ، وتجعل العصا في رأس رمح يكون معه حيث كان ، ليحذر من يعرفه منه .

فلما خرج الرجل من المدائن ، متوجّهاً به نحو فارس ، أخذ مدية كانت مع بعض الموكلين به ، فجبّ بها ذكره ، وقال : «من أطاع عضواً صغيراً من أعضائه أفسد عليه جميع أعضائه»، فمات من ساعته .

وفيما يذكر عن أنوشروان أنه اتّهم رجلاً من خاصته في بعض حرمه ، فلم يدرِ كيف يقتله ؟ لا هو وجد أمراً ظاهراً يحكم بمثله الحاكم فيسفك به دمه ، ولا قدر على كشف ذنبه لما في ذلك من الهوان على الملك والمملكة ، ولا وجد عذراً لنفسه في قتله غيلة ، اذ لم يكن في شرائع دينهم، ووراثة سلفهم ، فدعا الرجل بعد جنايته بسنة في خلوة ، فقال : « قد حزبني أمر من أسرار ملك الروم ، وبي حاجة الى علمها . وما أجدني اسكن الى أحد سكوني اليك ، اذ حلَلْتَ من قلبي المحل الذي أنت به ، وقد رأيت ان تحمل لي مالاً الى هناك للتجارة ، وتدخل بلاد الروم فتقيم بها ، فاذا بعت ما معك ، حملت مما في بلادهم من تجاراتهم ، وأقبلت إليّ ، وفي خلال ذلك تصغي الى اخبارهم ، وتطلع الي ما بنا الحاجة الى معرفته من أمورهم وأسرارهم » . فقال : « أفعل ايها الملك ، وأرجو ان أبلغ في ذلك محبة الملك ورضاه » .

فأمر له بمال ، وتجهز الرجل وخرج بتجارته، فأقام في بلاد الروم حتى باع واشترى ، وفهم من كلامهم ولغاتهم ما عرف به مخاطباتهم ، وبعض أسرار ملكهم .

وانصرف الى أنوشروان بذلك ، فأراه الايثار به ، وزاد في بره ، ورده الى بلادهم ، وأمره بالمقام والتربص بتجارته ، ففعل حتى عرف ، واستفاض ذكره ، فلم تزل تلك حاله ست سنين ، حتى اذا كانت السنة السابعة أمر الملك ان تصور صورة الرجل في جام من جاماته التي يشرب فيها ، وتجعل صورته بإزاء صورة أنوشروان ، ويجعل مخاطباً لأنوشروان ، ومشيراً عليه واليه ، ويدني رأسه من رأس الملك في تلك الصورة ، كأنه يساره ، ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه ، وقال : « ان الملوك يرغبون في مثل هذا الجام ، فاذا أردت بيعه فادفعه الى فلان اذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له ، يبيعه من الملك نفسه فانه ينفعك ، فان لم يمكنه بيعه من الملك ، باعه من وزيره او بعض خاصته » .

فجاء غلام الملك بالجام ، وقد وضع الرجل رجله في الركاب ، فسأله ان يبيع جامه من الملك ، وان يتخذ عنده بذلك يداً . وكان الملك يعز ذلك الغلام ، وكان من خاصة غلمانه ،

وصاحب شرابه ، فأجابه الى ذلك ، وأمر بدفع الجام الى صاحب خزانته ، وقال : « احفظه ، فاذا صرت الى باب الملك فليكن مما أعرضه عليه » .

فلما صار الى باب الملك ، دفع صاحب الخزانة اليه الجام ، فعرضه على الملك فيما عرض عليه ، فلما وقع الجام في يد الملك ، نظر اليه ، ونظر الى صورة أنوشروان فيه ، والى صورة الرجل وتركيبه عضواً عضواً ، وجارحة وجارحة ، فقال للرجل : « أخبرني هل يصور مع صورة الملك رجل خسيس » ؟ قال : « لا » ، قال : « فهل تصور في آنية الملك صورة لا أصل لها ولا علة » ؟ قال : « لا » ، قال : « فهل في دار الملك اثنان يتشابهان في صورة واحدة حتى يكون هذا كأنه ذاك في الصورة وكلاهما نديما الملك » ؟ قال : « لا أعرفه » ، قال له : « قم قائماً » ، فقام ، فوجد صورته في الجام ، فقال له : « أدبر » ، فأدبر ، فتامل صورته في الجام فوجدهما بحكاية واحدة ، فضحك ، ولم يجسر الرجل ان يسأله عن سبب ضحكه ، إجلالاً له واعظاماً ، فقال ملك الروم : « الشاة أعقل من الانسان اذ كانت تخفي مديتها وتدفنها ، وإنما أهديت الينا مديتك بيدك » . فقال للرجل : « تغديت » ؟ قال : « لا » ، قال : « قربوا له طعاماً » ، قال : « أيها الملك أنا عبد ، والعبد لا يأكل بحضرة الملك » ، قال الملك : « انت عبد ما دمت عند ملك الروم ، مطلعاً على أموره ، متتبعاً لأسراره ، وملك اذا قدمت بلاد فارس ، ونديم ملكها. أطعموه » ، فأطعم وسقى الخمر حتى اذا ثمل ، قال : « من سير ملوكنا ان لا نقتل الجاسوس الا في أعلى موضع نقدر عليه ، ولا نقتله جائعاً ، ولا عطشاناً .

فأمر به ، فأصعد الى سطح كان يشرف منه على كل من كان في المدينة إذا صعد ، فضربت عنقه هناك ، وألقيت جثته من ذلك السطح ، ونصب رأسه للناس ؛ فلما بلغ ذلك كسرى ، أمر صاحب الجرس ان يضرب بأجراس الذهب ، ويمر على دور نساء الملك وجـواريه ، ويقول : « كل نفس ذائقة الموت ، كل احد اذا وجب عليه القتل ففي الارض يقتل ، الا من تعرض لحرمة الملك ، فانه يقتل في السماء » ، فلم يدر أحد من أهل المملكة ما أراد به حتى مات .

ومثله من أخبار العرب : ذكروا انه كان لطسم وجديس ملك يقال له « عمليق » ظلوم غشوم ، وكانت لا تزف جارية الى زوجها إلا بدءوه بها ، فافترعها ، وردها الى بعلها ، ثم ان رجلاً من جديس تزوج غفيرة بنت غفار ، عظيم جديس ورئيسها ، فلما أرادوا أن يهدوها اليه، بدأوا بها عمليق فادخلوها عليه والقيان معها يتغنين ويضربن بالدفوف ويقلن :

إبدِي بعمْليقَ ومعَهُ فارْكَبِي ... وبادِرِي الصُّبحَ بأمرٍ مُعجِبِ
فسوفَ تَلْقَيْنَ الذِي لم تَطلبِي ... ولمْ يَكنْ مِنْ دونِهِ مِنْ مَذْهَبِ

فجعلت تقول وهي تزف :

ما أحدٌ أذلُّ مِن جَدِيسِ أَهكَذَا يُفْعَلُ بالعَرُوسِ

يَرْضى بهذَا يا لقَوْمِي حُرٌّ مِنْ بَعْدِ ما أهدَى وَسِيقَ المَهْرُ

لَأَن يُلَاقِي المَرْءُ موتَ نفسِهِ خيْرٌ لهُ مِن فِعْلِ ذَا بِعِرْسِهِ

فلما دخلت عليه افترعها ، ثم خلى سبيلها ، فخرجت ووقفت على أخيها الاسود بن غفار ، وهو قاعد في نادي قومه ، وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت تقول :

أيصلُحُ ما يُؤْتي إلى فَتَياتِكمْ وأنتُمْ رجالٌ كَثرَةً عَدَدَ الرَّمْلِ

وتَرْضوْنَ هَذَا يا لَقوْمي لأُختِكُمْ عَشيَّةَ زُفتْ في النِّساءِ إلى البَعلِ

فإنْ أنتمُ لمْ تَغْضَبوا بَعْدَ هَذِهِ فكونوا نساءً في المنازِلِ والحَجْلِ

ودونكُمُ طِيبَ النِّساء وإنَّما خُلقتُمْ جميعاً لِلتَّزَين والكُحْلِ

فلوْ أنَّنا كنَّا رِجالاً وكنتُمُ نِساءً لكُنَّا لا نُقيمُ على ذُحلِ

فقُبْحاً لبعلٍ ليس فيهِ حَمِيَّةٌ ويَخْتالُ يَمْشي بيننا مشيةَ الفحْلِ

فموتوا كِراماً أو أصيبوا عدُوَّكمْ بداهيةٍ تُورِي ضِراماً من الجَزْلِ

وإلَّا فخَلُّوا دارَكمْ وتَرَحَّلوا إلى بَلدٍ قَفْرٍ خَلَاءٍ منَ الأهلِ

ولا تَخرُجوا للحَرْبِ يا قوْمِ إنَّها تَقُومُ بأقوامٍ شِدَادٍ على رِجلِ

فيهلِكُ فيها كلُّ وَغْدٍ مُواكِلٍ ويسلَمُ فيها ذُو الطِّعانِ وذو القَتْلِ

فلما سمعت جديس شعرها ، أنفت انفاً شديداً ، وأخذتهم الحمية ، فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملك ، وجنوده فقالوا : «ان نحن بادهناهم بالحرب لم نقوَ عليهم لكثرة جندهم وانصارهم» ، فاتفقوا على ذلك ، ثم ان الاسود أتى الملك فقال : « إني احب ان تجعل غداءك عندي انت وجنودك » ، فقال عمليق : « ان عدد القوم كثير ، وأحسب ان البيوت لا تسعهم » ، فقال الاسود : « فنخرج لهم الطعام الى بطن الوادي » ، فقال لقومه : « اذا اشتغل القوم بالأكل فسلوها سيوفكم ، واعملوا على ان تحملوا حملة رجل واحد واقتلوهم عن آخرهم » ، وهيأ الاسود ما احتاج

اليه من الطعام ، وجاء الملك ، فلما أكب القوم على الأكل ، بادرت جديس الى سيوفهم ، ثم حملت على الملك وعلى جنوده والاسود يرتجز ويقول :

يا صُبحةً يا صُبحةَ العَرُوسِ حتّى تَمَشَّتْ بدَمٍ جميسِ

يا طَسْمُ مالقيتِ مِنْ جَدِيسِ هَلَكْتِ يا طَسْمُ فهيسي هِيسي

فقتلوه وجنوده جميعاً .

ومثله الفطيون ملك تهامة والحجاز ، فانه سلك مسلك عمليق في ملك طسم وجديس في أمر النساء ، فأمر ان لا تزف من اليهود في مملكته امرأة الا بدءوه بها ، فلبث على ذلك عدة أحوال حتى زوجت امرأة من اليهود من ابن عم لها ، وكانت ذات جمال رائع ، وكانت اخت مالك بن عجلان من الرضاعة ، فلما أراد ان يهدوها الى زوجها ، خرجت الى نادي الأوس والخزرج ، رافعة ثوبها الى سرتها ، فقام اليها مالك بن العجلان فقال : « ويحك وما دهاك » ؟ فقالت : « وما يكون من الداهية اعظم من ان ينطلق بي الى غير بعلي بعد ساعة » ؟ فأنف من ذلك أنفاً شديداً ، فدعا ببزة امرأة فلبسها ، فلما انطلقوا بالمرأة الى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللواتي ينطلقن بها متشبهاً بامرأة ، وقد أعد سكيناً في خفه ، فلما دخلت المرأة على الفطيون ، مال مالك الى خزانة في ذلك البيت ، فدخلها ، فلما خرج النساء ودخلت المرأة قام اليها ليفترعها ، فخرج اليه مالك بالسكين فوجأه فقتله ، ثم قال لليهود : « دونكم جنوده فاقتلوهم » ، فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم .

ومنه اخبار وامثال : ذكروا ان أول من قال (العجب كل العجب بين جمادى ورجب) عاصم بن المقشعر الضبي ، وذلك الخنيفس بن خشرم كان أغير اهل زمانه وأشجعهم ، وكان لعاصم أخ يقال له عبيدة ، عزيز في قومه ، فهوي امرأة كانت تأتي الخنيفس ، فبلغ الخنيفس ذلك ، فتواعده عبيدة وركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يتربص عبيدة ، حتى وقف على ممره فأقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً ، وهو يقول :

ألا انَّ الخُنَيفِسَ فاعْلَمُوهُ كما سمَّاهُ والِدُه لعِينُ

بَهِيمُ اللّونِ مُحتَقَرٌ ضَئيلٌ لَئِماتٌ خَلائقُهُ ضَنينُ

أيُوعِدُني الخُنَيْفِسُ مِنْ بعيدٍ ولما يَلْقَ مَأْبَضَهُ الوَتينُ

لَهَوْتُ بجارَتيهِ وحادَ عنّي ويَزْعُمُ أنّهُ أَنِفٌ شَفُونُ

فعارضه الخنيفس وهو يقول :

أيا بنَ المقْشعِرِّ لقيتَ لَيثاً ... لهُ في جوفِ أيكتهِ عرينُ
تقولُ لهُ صَدَدْتَ حِذَارَ حَينٍ ... وأنَّكَ نَشْوَ أبطالٍ مُبينُ
وأنَّكَ قدْ لَهوْتَ بجارَتِنا ... فهاكَ عُبيدَ لاقاكَ القَرينُ
ستَعلَمُ أيُّنا أحْمَى ذِماراً ... إذا قَصُرَتْ شَمالكَ واليَمينُ
لَهوْتَ بها لقدْ أبدلتَ قَبْراً ... وباكيةً عليكَ لهـــا رنينُ

فقال عبيدة : « أذكرك الله وحرمة خشرم » ، فقال : « والله لأقتلنك » ، فقتله ، فلما بلغ أخاه عاصماً ، خرج اليه ، ولبس أطماراً ، وركب فرسه ، وكان في آخر يوم من جمادى ، فأقبل يبادر دخول رجب ، لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب احداً ، فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلاً ، وقال : « أجب المرهوق » ، قال : « وما ذاك » ؟ قال : « العجب كل العجب بين جمادى ورجب ، واني رجل من ضبة غصب أخ لي امرأة فخرج يستنقذها ، فقتل ، وقـــد عجزت عن قاتله » ، فخرج الخنيفس مغضباً ، وأخذ رمحه ، وركب معه ، فلما نحا به عن قومه ، دنا منه ، فقنعه بالسيف ، فأبان رأسه .

ويقال ان اول من قال : « سبق السيف العذل » ضمضم ابن عمرو اللخمي ، كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة ، فأبت عليه ، وطلبها عزيز بن عبيد بن ضمضمة ، فأتته وتأبت على ضمضم ، وكان ضمضم من أشد قومه بأساً ، فاغتاظ لذلك ليلة ، وهو متقلد سيفه حتى صار بمكان يراهما اذا اجتمعا ولا يريانه ، فلما نام الناس ، وطال هدو ضمضم اذا العزيز قد أقبل على فرسه ، وهو يقول :

أمامَ تولّيني وتأبى بنفسِها ... على ضَمْضَمٍ تَعساً ورَغماً لضَمْضَمِ

وضمضم يسمع ، فنزل وربط فرسه ، ومشى الى ناحية خبائها ، فصدح صدوح الهام ، وكان آية ما بينهما ، فخرجت اليه ، فعانقها وضمضم ينظر ثم واقعها ، فلما رآها مشى اليهما بالسيف وهو يقول :

ستعلمُ أني لستُ أعشَقُ مُبغِضاً ... فكان بنا عنها وعنكَ عَزَاءُ

وقتله ، فعلم القوم بضمضم فأخذوه . فلما أصبح ، أبرز الى النادي ليقتل ، فجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال : « سبق السيف العذل » .

ويقال ان أول من قال : « خير قليل وفضحت نفسي » فائرة امرأة مرة الأسدي ، وكانت من أجمل النساء في زمانها ، وكان زوجها غاب عنها أعواماً ، فهويت عبداً له حبشياً يرعى ابلها ، فأمرته ان يحضر مضجعها ، وكان زوجها منصرفاً قد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم ، فبينما هو يطعم ومعه أصحابه ، اذ نعق غراب ، فأخبره ان امرأته لم تعهر قط ، ولا تعهر الا تلك الليلة ، فركب فرسه ومر مسرعاً ، وهو يرجو إن هو منعها تلك الليلة أمنها فيما بقي ، فانتهى اليها حين قام العبد عنها ، وندمت وهي تقول : « خير قليل وفضحت نفسي » ، فسمعها زوجها وهو يرعد لما به من الغيظ ، فقالت له : « ما يرعدك » ، فقال يعلمها انه قد علم : « خير قليل وفضحت نفسي » ، فشهقت شهقة خرت ميتة ، فقتل زوجها العبد ، وجعل يقول :

لَعَمْرُكِ ما تعتادُني مِنكِ لوْعةٌ ولا أنا مِنْ وَجدٍ بذِكراكِ أُسهدُ

قيل : وكانت هند بنت عتبة تحت الفاكه بن المغيرة المخزومي ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذلك البيت يوماً ، فضجع الفاكه ، وهند فيه ، فخرج الفاكه لبعض حوائجه ، وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هارباً ، فرآه الفاكه وهو خارج من البيت ، فأقبل الى هند فضربها برجله ، وقال : « من هذا الرجل الذي خرج من عندك » ؟ قالت : « ما رأيت احداً ولا انتبهت حتى نبهتني » فقال لها : « الحقي بأهلك » ، فتكلم الناس فيها ، فقال لها ابوها : « يا بنية ان الناس قد أكثروا فيك فاصدقيني ، فان كان الرجل في قوله صادقاً ، سببت له من يقتله فتنقطع عنك القالة ، وان كان كاذباً حاكمته الى بعض كهان اليمن » ، فحلفت له بما يحلفون به في الجاهلية انه لكاذب ، فقال عتبة للفاكه : « يا هذا انك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن » ، فخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ، وخرج فاكه في جماعة من بني مخزوم . وأخرجوا معهم هنداً ونسوة معها ، فلما شارفوا البلاد قالوا : « غداً نرد على الكاهن » فتغير لون هند ، فقال لها أبوها : « اني أرى ما بك ، فهلا كان هذا قبل خروجنا » ، قالت : « لا والله يا أبتاه ما ذلك لمكروه ، ولكن سنأتي بشراً يخطىء ويصيب فلا نأمن أن يسومني مما يكون فيه سبة على باقي عمري » ، قال : « اني سوف اختبره قبل ان ينظر في أمرك » ، فأخذ حبة من حنطة ، فأدخلها في إحليل فرسه ، وأوكى عليها بسير ، فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة : « ما كان مني في طريقي » ؟ قال : « ثمرة في كمرة » ، قال : « احتجـاج الى أبين من

هذا » ، قال : « حبة بر في احليل مهر » ، قال : « صدقت ، فما بال هؤلاء النسوة » ؟ فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بمنكبها ، حتى أتى الى هند فضرب بمنكبها ، وقال : « انهضي غير رسحاء ، ولا فاحشة ، ولتلدين ملكاً يقال له معاوية » ، فوثب اليها الفاكه ، فاخذ بيدها ، فنزعت يدها من يده ، وقالت : « اليـــك عني ! والله لأجهدن أن يكون ذلك من غيرك » . فتزوجها ابو سفيان بن حرب فجاءت بمعاوية .

قيل : وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعس بنفسه ، فسمع امرأة تقول :

أَلَا سبيلٌ إلى خمرٍ فأشرَبها ... أم هل سبيلٌ إلى نصر بنِ حجّاجِ
إلى فتى ماجدِ الأَخلَاقِ ذِي كَرمٍ ... سَهْلِ الُمحيَّا كَرِيمٍ غيرِ مِلجاجِ

فقال عمر : « أما ما دام عمر إماماً فلا » ، فلما أصبح قال : « علي بنصر بن الحجاج » ، فأتي به ، فاذا هو رجل جميل ، فقال : « اخرج من المدينة » قال : « ولمَ وما ذنبي » ؟ قال : « اخرج فوالله ما تساكنني » ، فخرج حتى أتى البصرة وكتب الى عمر رضي الله عنه :

لعَمْرِي لئنْ سَيَّرْتني وحرمتَني ... ولمْ آتِ اثماً إنَّ ذا الحَرَامُ
ومالِيَ ذنبٌ غيرَ ظَنٍّ ظَننْتُه ... وبعضُ تَصادِيقِ الظُّنونِ إثامُ
وإنْ غَنَّتِ الذَّلفاءُ يوْماً بُمنْيَةٍ ... فبعضُ أمانِيِّ النِّساءِ غَرامُ
فظَنَّ بِيَ الظنَّ الذِي لوْ أتيْتُهُ ... لَما كانَ لي في الصَّالِحينَ مُقامُ
ويَمْنعُني مِمّا تَمَنَّتْ حَفيظَتي ... وآباءُ صِدْقٍ سالفونَ كِرَامُ
ويَمْنعُها مِمّا تَمَنَّتْ صَلاتُها ... وبيتٌ لها في قوْمِها وصِيامُ
فهذَان حالَانا فَهلْ أنتَ مُرْجِعي ... فقدْ جُبَّ مِنِّي غارِبٌ وسنامُ

قال : فرده عمر بعد ذلك لما وصف من عفته . ويروى ايضاً ان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان يعس بالمدينة ذات ليلة ، اذ سمع امرأة تهتف وتقول :

تطاوَلَ هذَا اللَّيلُ واسودَّ جانبُهْ ... وأرَّقَني إذْ لا خَليلَ أُلَاعِبُه
فواللهِ لوْلا اللهُ لا رَبَّ غيرُهُ ... لزُعزِعَ منْ هذَا السَّرِيرِ جوَانِبُه

وَلكِنَّ رَبّي والحَياءُ يَكُفُّني وأُكْرِمُ بعلي إن تُوَطّا مَراكِبُه

قال : فرجع عمر الى منزله ، فسأل عن المرأة ، فاذا زوجها غائب ، فسأل ابنته حفصة : « كم تصبر المرأة عن الرجل » ؟ فسكتت ، واستحيت ، وأطرقت فقال : « أربعـــة اشهر ، خمسة أشهر ، ستة أشهر » ؟ فرفعت طرفها تعلم انها لا تصبر أكثر من ستة أشهر ، فكتب الى صاحب الجيش ان يقفل من الغزو الرجال اذا أتت ستة اشهر الى أهاليهم .

وغزا رجل من الانصار وله جار يهودي ، فأتى امرأته ، واستلقى ذات ليلة على ظهره ، وأنشا يقول :

وأشعَثَ غَرَّهُ الإسلامُ منّي خلوْتُ بعِرْسِهِ ليـــلَ التَّمامِ
أبيتُ على تَرَائِبِها ويُضحي على جَرْدَاءَ لَاحِقَةِ الحِزَامِ

فسمع ذلك جار له ، فضربه بالسيف حتى قطعه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : «أنشد الله رجلاً كان عنده من هذا علم الا قام» . فقام الرجل فحدثه، فقال : « أحسنت أحسنت » ، وتمام الابيات :

كأَنَّ مَجامِـــعَ الرَّبَلاتِ منها فِئَامٌ قَدْ جُمِعْنَ إلى فِئامِ

ومنه اخبار العرب، قيل: لما خرج امرؤ القيس بن حجر[1] الى قيصر ملك الروم ليسأله النصرة على بني اسد لقتلهم اباه حجر بن الحارث راسل بنت قيصر ، وأراد ان يختدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصر ، وأراد ان يقتله ، فتندمم من ذلك ، وأمر بقميص فغمس في السم ، وقال لامريء القيس : « البس هذا القميص فاني أحببت ان اوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه » ، فعمل السم في جسمه ، وكثرت فيه القروح ، فمات منها ، فسمي ذا القروح ، وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك انه هجاه فعندها يقول :

ظَلَمْتُ لهُ نَفسي بأنْ جِئْتُ راغباً إليهِ وقدْ سيَّرْتُ فيهِ القَوافيا
فإنْ أكُ مَظلوماً فقِدْماً ظَلَمْتُهُ وبالصاعِ يُجْزَى مِثْلَ ماقدْ جزانِيا

---

١ – وفي نسخة ثانية : « جحدر » .

قيل : « وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر » ، وكانت أكمل اهل عصرها جمالاً ، فبلغ ذلك النعمان ، فهم بقتل النابغة فهرب منه ، وسار حتى أتى الشام ، والملك بهـا جبلة بن الأيهم الغساني ، فنزل عليه وأقام عنده ، وكتب الى النعمان :

خَلفْتُ فلم أَتْرُكْ لنفسِكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

لئنْ كنتَ قدْ بُلِّغْتَ عنّي خِيانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكْذَبُ[1]

قيل : وكانت امرأة شداد ابي عنترة ذكرت له ان عنترة ارادها عن نفسها ، فأخذه أبوه فضربه ضرب التلف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به من الجراحات ، وبكته ، وكان اسمها سمية ، فقال عنترة :

أمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العَيْنِ مَذْرُوفُ ... لو كانَ ذا مِنْكِ قبلَ اليوْم معْرُوفُ

كأنَّها يوْمَ صَدَّتْ ما تُكَلِّمُنا ... ظبيٌ بعُسْفانَ ساجي العينِ مطرُوفُ

قامَتْ تُجَلِّلني لَمَّا هَوَى قَبلي ... كأنَّها صَنَمٌ يعتادُ معْكُوفُ

المالُ مالكُمُ والعَبْدُ عَبْدُكُمُ ... فهَلْ عَذابُكِ عنّي اليوْمَ مَصْرُوفُ[2]

قيل : ولما أنشد عبد الحسحاس عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قصيدته التي يقول فيها :

تُوَسِّدُني كَفاً وتَمْضي بِمِعْصَمٍ ... عليَّ وتَنحو رِجْلها منْ وَرائِيا

فما زالَ بُرْدِي طَيِّباً منْ ثِيابها ... إلى الحوْلِ حتَّى أَنْهجَ البُرْدُ بالِيا

وَهَبَّتْ لنَا ريحُ الشَّمالِ بقوَّةٍ ... ولا بُرْدَ إلا دِرْعها ورِدائيا

أَميلُ بها مَيلَ الرَّدِيفِ وأَتَّقي ... بها الرِّيحَ والشفَّانَ منْ عن شِمالِيا

رأتْ قَتباً رَثّا وأخلَاقَ شَمْلَةٍ ... وأسوَدَ مِمّا يَلبِسُ النَّاسُ عارِيا

---

١ - لمزيد من اخباره ، يراجع ديوان « النابغة الذبياني » ، تحقيق فوزي عطوي ، ١٩٦٩ ، الشركة اللبنانية للكتاب .

٢ – لمزيد من اخباره ، يراجع ديوان « عنترة بن شداد » ، تحقيق فوزي عطوي ، ١٩٦٨ ، الشركة اللبنانية للكتاب .

تَجَمَّعْنَ شَتَّى مِنْ ثَلاثٍ وأربَعٍ ووَاحِدَةٍ حتى كَمَلْنَ ثَمانيا

سُلَيْمَى وسَلْمَى والرَّبابُ وتِرْبُها وأرْوَى ورَيَّا والْمنَى وقَطَامِيا

وأقْبَلْنَ منْ أقْصَى البِلَادِ يعُدْنَني ألَا إنَّمَا بعضُ العَوَائِدِ دائيا

قال عمر رضي الله عنه : « أنت مقتول » ، فلما قال :

ولقدْ تَحَدَّرَ منْ كَرِيمَةِ مَعشَرٍ عرَقٌ على مَتْنِ الفِراشِ وطِيبُ

وجدوه شارباً ثملا ، فعرضوا عليه نسوة حتى مرت به التي يطلبونها ، فأهوى اليها، فقتلوه.

شدة الغيرة والعقوبة عليها

حكي عن سليمان بن عبد الملك انه كان في بعض أسفاره، فسمر معه قوم ، فلما تفرقوا عنه، دعا بوضوء ، فجاءت به جارية ، فبينا هي تصب الماء على يده ، إذ استمدها ، وأشار اليها مرتين او ثلاثاً فلم تصب عليه ، فانكر ذلك ، ورفع رأسه ، فاذا هي مصغية بسمعها ، مائلة بجسدها الى صوت غناء من ناحية العسكر ، فامرها فتنحت ، فسمع الصوت فاذا رجل يغني ، فانصت له حتى فهم ما غنى ، فدعا بجارية غيرها فتوضأ ، فلما أصبح ، أذن للناس ، فأجرى ذكر الغناء، فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم انه يشتهيه ؛ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء، والتسهيل لمن سمعه ، وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس ، فقال : « هل بقي احد يسمع منه » ؟ فقال رجل من القوم : « عندي رجلان من أهل الأبلة محكمان » ، قال : « فاين منزلك من العسكر » ؟ فأومأ الى ناحية الغناء ، فقال سليمان : « ابعث اليهما » ، ففعل ، فوجد الرسول أحدهما وأقبل به ، وكان اسمه سمير ، فسأله عن الغناء ، وكيف هو فيه ، قال : « محكم » ، قال : « متى عهدك به » ؟ قال : « البارحة » ، قال : « وفي أي النواحي كنت » ؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال : « وما اسم صاحبك » ؟ قال : « سنان » .

قال : فأقبل سليمان على القوم فقال : « هدر الفحل فضبعت الناقة ، ونب التيس فشكرت الشاة ، وهدل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة » ، ثم أمر بــــه فخصي ، وسأل عن الغناء أين أصله ؟ قالوا : « بالمدينة وهم المخنثون » ، فكتب الى عامله ان أخص من قبلك من المخنثين .

وحدث الاصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى به هو :

مَحْجُوبةٌ سَمِعَتْ صَوتي فأرَّقَها ... مِنْ آخرِ اللَّيلِ لما بَلها السَّحَرُ
تُدْني على الخَدِّ منها منْ مُعَصْفَرَةٍ ... والحَلْيُ بَادٍ على لبَّاتِها خَصِرُ
في ليلةِ البَدْرِ ما يَدْرِي مُضاجِعُها ... أوجهُها عندَهُ أبْهى أم القَمَرُ
لَمْ يَمْنَع الصوتَ أبوابٌ ولا حَرَسٌ ... فدَمعُها لِطُرُوقِ اللَّحْن يَنْحَدِرُ
لو تستَطيعُ مَشَتْ نَحوي على قدمٍ ... تَكَادُ منْ رِقَّةٍ لِلْمَشي تنفطرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم ، فوجد جارية على هذه الصفة ، قاعدة تبكي ، فوجه الى سنان فأحضره ، ووجهت الجارية رسولاً الى سنان يحذره ، وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم ان سبق رسول سليمان ، فلما حضر أنشأ يقول :

اسْتَبْقني إلى الصَّباحِ أعتذِرْ ... إنَّ لساني بالشَّرابِ مُنكَسِرْ
فأرْسِل المَعْروفَ في قَوْمٍ نُكُرْ

فأمر به فخصي ، وكان بعد ذلك يسمى الخصي .

وعن علي بن يقطين ، قال : كنت عند موسى الهادي ، ذات ليلة ، مع جماعة من أصحابه ، إذ أتاه خادم فساره بشيء ، فنهض سريعاً فقال : « لا تبرحوا » ؛ فمضى فأبطأ ، ثم جاء وهو يتنفس ساعة ، حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل ، فقام بين يده ، فأقبل يرعد ، وعجبنا من ذلك ، ثم جلس ، وقال للخادم : « ضع ما معك » فوضع الطبق ، وقال : « ارفع المنديل » فرفعه فاذا على الطبق رأسا جاريتين لم أرَ ، والله ، أحسن من وجهيهما قط ، ولا من شعورهما ، فاذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر ، واذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك ، فقال : « أتدرون ما شأنهما » ؟ قلنا : « لا » ، قال : « بلغني انهما تحابا ، فوكلت هذا الخادم بهما لينهي اليّ أخبارهما ، فجاءني وأخبرني انهما قد اجتمعا ، فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف ، فقتلتهما » ثم قال : « يا غلام ! ارفع » ورجع في حديثه ، كأنه لم يصنع شيئاً .

وحدثنا ابراهيم بن اسمعيل عن ابن القداح ، قال : كانت للربيع جارية يقال لها « أمة العزيز » ، فأهداها للمهدي ، فلما رأى حسنها وجمالها وهيئتها قال : « هذه لموسى أصلح » ، فوهبها له ، فكانت أحب الخلق اليه ، وولدت له بنيه الأكابر . ثم ان بعض أعداء الربيع قال لموسى انه سمع الربيع يقول : « ما وضعت بيني وبين الارض مثل أمة العزيز » فغار موسى ،

فدعا الربيع ، فتغدى معه ، وناوله كأساً فيه شراب ؛ فقال الربيع : « فعلمت ان نفسي فيها وإني أن رددتها من يـــدي ضرب عنقي ، فشربتها وانصرفت » ، فجمع ولده وقال : « اني ميت » ، فقال الفضل ابنه : « ولم تقول ذلك ، جعلت فداك » ؟ قال : « ان موسى سقـــاني شربة فأنا أجد عملها في بدني » ، ثم أوصى بماله ومات في يومه .

قيل : وطرب الرشيد الى الغناء متنكراً ، ومعه خـــادمه مسرور ، حتى انتهى الى باب اسحق بن ابراهيم الموصلي ، فقال : « يا مسرور ! اقرع الباب » ، فخرج اسحق ، فلما رأى الرشيد انكب على رجله ، فقبلها ، ثم قال : « ان رأى أمير المؤمنين ان يدخل منزل عبده » ، فنزل الرشيد . فدخل فرأى أثر الدعوة ، فقال : « يا اسحق اني أرى موضع الشرب من كان عندك » ؟ قال : « ما كان عندي يا أمير المؤمنين سوى جـــاريتَي كنت أطارحهما » ، قال : « فهما حاضرتان » ؟ قال : « نعم » ، قال : « فأحضرهما » ، فدعا الجاريتين ، فخرجتا ، مع احداهما عود ، حتى جلستا ، فأمر الرشيد صاحبة العود ان تغني فغنت :

بُنِيَ الحُبُّ على الجورِ فلو ... أنصفَ المعشوقُ فيهِ لَسَمُجْ
ليس يُستحْسَنُ في وصفِ الهَوى ... عاشقٌ يُكثِرُ تأليفَ الحُجَج
فقليلُ الحُبِّ صرْفاً خالصاً ... هو خيرٌ مِنْ كثيرٍ قد مُزِج

فقال الرشيد : « يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه » ؟ قال : « لا علم لي به يا أمير المؤمنين » ، فنكس رأسه ساعة ، ينكث في الارض ، ثم رفع رأسه ، وأخذ العود من حجر هذه فوضعه في حجر الاخرى ، ثم قال لها : « غني » ، فغنت :

إنْ يُمسِ حَبْلُكَ بعدَ طولِ تواصُلٍ ... خَلَقاً ، وأصبحَ بيتُكُم مَهْجوراً
فلقدْ أراني والجديدُ إلى بِلىً ... زَمنا بوصْلكَ راضياً مَسْرُوراً
كنتَ الهوَى وأعزَّ منْ وَطيءَ الحَصى ... عندي وكنتُ بذاكَ منكَ جديراً

فقال : « يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه » ؟ قال : « لا علم لي يا سيدي » ، فرد المسألة على الجارية ، فقالت : « لستي » ، قال : « ومن ستك » ؟ قالت : « علية ، أخت امير المؤمنين » ، فنكس رأسه ساعة ، ثم وثب وقال لمسرور خادمه : « امض بنا الى منزل علية » ، فلما وقف بالباب ، قال : « استأذن يا مسرور » ، فخرجت جارية ، فلما رأت الخليفة ، رجعت تبادر تعلم

ستها ، فخرجت تستقبله وتفديه ، فقال : « يا علية هل عندك ما نأكل » ؟ قالت : « نعم يا سيدي » ، قال : « وما نشرب » ؟ قالت : « نعم » ، فدخل وجلس ، فقدمت اليه الطعام ، فأكل حـــاراً ، وبارداً ، ورطباً ، ويابساً ، ثم رفع الطعام ، ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ، ودعت جواريها وكان عندها ثلاثون جارية يغنين ، فألبستهن انواع الثياب ، وصفتهن في الايوان ، وتناول الرشيد الشراب ، فأمر الجواري ان يغنين ، ثم سقى اخته حتى اخـــذ الشرابَ منها ، واحمرت وجنتاها ، وفترت اجفانها ، وكانت من اجمل النساء . فضرب الرشيد الى حجر بعض الجواري في اخذ العود وقال : يا علية بحياتي غني :

بُنيَ الحُبُّ على الجَورِ فلو

فعلمت انها داهية ، فبكت ، فصاح الرشيد، فخرج الجواري وبقي هو وهي ، فدفعها واخذ وسادة فجعلها على وجهها ، وجلس عليها فاضطربت اضطراباً شديداً ، ثم بردت فنحى الوسادة عنها ، وقد قضت نحبها ، فخرج وقال للخادم: «اذا كان غداً فادخل وعزني» ، وركب متوجهاً الى قصره ، فلما كان الغد ، عزاه مسرور فبكى ، فقال :

قبرٌ عزيزٌ علينـــا لو أنَّ منْ فيهِ يُفْدَى
أسكَنْتُ قُرَّةَ عيني ومُهْجةَ النَّفْسِ لَحَدا
ما إنْ أرى لي عليها مِنَ التوجُّعِ بُدَّا

ومنه مـــا حكي عن البهائم : قال شيخ من بني قشير : كنا في نتاج ، فامتنع فرس من حجرة ، فشددنا عينه ، فنزا عليها ،فلما فرغ فتحنا المصلة فرأى الحجرة وكانت أمه ، فعمد الى ذكره باسنانه فقطعه .

ومنه في خفة الغيرة ، قال سليان بن داود الهاشمي لابنه : « لا تكثر الغيرة على اهلك فترمى بالشر من اجلك ، وان كانت بريئة ، ولا تكثر الضحك، فيستخفك فؤاد الرجل الحليم ، وعليك بخشية الله ، فانها غلبت كل شيء » .

وقال عبد الله بن جعفر لابنته : « اياك والغيرة ، فانها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب ، فانه يورث البغضاء ، وعليك بالكحل فانه أزين الزينة ، وأطيب الطيب الماء » .

قيل : وكان كسرى ابرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبته ، يقال له البارجان ، وكانت تأتيه سراً ، فبلغ زوجها ذلك فأمسك عن امرأته ، واجتنبها ، ودخل الى كسرى ذات

يوم ، فقال كسرى : « بلغني ان لك عين ماء عذبة ، وانك قد اجتنبتها فلا تقربها » ، ففطن ، فقال له : « ايها الملك بلغني ان الاسد ينتاب تلك العين، فاجتنبها خوفاً منه » ، فأعجب كسرى بمقالته وأمر ان يتخذ له تاج لا قيمة له ، ثم دخل كسرى دار نسائه فقاسمهن نصف حليهن ، فاجتمع من الجوهر ما لا يحصى فبعث به الى امرأة البارجان بالقادسية ، ووقع ذلك الجوهر الى السائب بن الاقرع ، وكان على المقسم ، فباعه وجعل للمسلمين بكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال بعضهم : « كنت اغار على امرأتي فأشرفت علي يوماً وانا مع جارية لي ، فلقيت منها أذى حتى حلفت ان أبيع الجارية ، فخرجت أريد شراء حوائج لي ومعي الجارية ، فأتيت دكان خلّال اشري الخل ، فوجدته خالياً فقلت له : « يا هذا تأذن لي في ملامسة جاريتي هـــذه في دكانك فاني أريد بيعها » . قال : « نعم ! جعلت فداك ادخل حيث شئت » ، فأصبت من الجارية، فلما خرجت اذا الخلاّل قد كمن ناحية وهو في قميص قد أنعظ فقال: « فرغت »، قلت: « نعم » ، قـــال : « بسم الله ، أتأذن لي جعلت فداك » ، قلت : « ويلك ما تريد » ! قال : « اقضي وطري منها» ، قلت : « يابن الفاعلة حرمتي » ، قال : « لا يضرك شيئاً ، فاني اسرع». ثم وثب كأنه السبع ، فضاربته حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد .

قال : ودخل رجل من بني زهرة من أهل المدينة على قينة ، فسمع غناءها عند مولاها ، فخرج مولاها في حاجة ثم رجع ، فاذا جاريته على بطن الزهري ، فقامت مذعورة ، فقعدت تبكي ، فقال : « ما يبكيك » ؟ قالت : « لانك لا تقبل لأجله عذراً » ، قال : « يا زانية لو رأيتك على قفاك لقلت : صريع مغلوب ، ولو رأيتك على وجهك لقلت : وعاء مكبوب ، انما رأيتك فارساً مصلوباً » .

وحكي عن ثمامة انه قال للمهـــدي : ان النساء شققن شقاً ، وان هشيمة نقبت نقباً » ، وكانت هشيمة امرأة ثمامة ، فسأله المهدي ان ينزل عنها ففعل ، وأقام المهدي حتى انقضت عدتها ثم تزوجها ، وبنى بها ثم طلقها ، وخرج الى بيت المقدس ، فلما انقضت عدتها راجعها زوجها .

وقال ابو طاهر أنشدني بعض الشعراء يهجو بني القعقاع :

بني القَعقاعِ أكرَمُكُمْ لئيمٌ … وأعظَمُ مجدِكُمْ رَكَبٌ حَليقُ
وأنتُم في نِسائِكُمُ اتّساعٌ … وفي أخلاقِكُمْ نَكَدٌ وضِيقُ

وعن عبدالله بن ياسين قال : كان في المهدي غزل ، وشدة حب للخلوة بالنساء ، فبلغه عن ابنة لأبي عبيدالله كاتبه ، جمال ، فقال للخيزران : « استزيريها » ، فزارتها ، وجاءت اليها ، فقالت لها : « هل لك في الحمام » ؟ قالت : « نعم » ، فلما دخلت الحمام ، وافاها المهدي ، فبرزت له ، ولم تستتر عنه ، فقال لها المهدي : « انا وليك فزوجيني نفسك » ، فقالت « أنا أمتك » ، فتزوجها ونال منها ، فلما انصرفت اخبرت اخوتها بما كان، فقالوا : « أمسكي عنه» ، فلما كان بعد مدة ، قالوا لها : « استزيري الخيزران » ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : « هل لك في الحمام » ؟ قالت : « نعم » ، فلما دخلتا معاً ما شعرت الخيزران الا ببني أبي عبيدالله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم ، فقالوا : « لو أردنا ان نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ، ولكنا لا نستحل » فقالت لهم : « والله لو رمتم ذلك لأمرت الخدم بقتلكم » ، فانصرفوا ، فلما رجعت الخيزران ، أخبرت المهدي بذلك ، فكان السبب في قتل المهدي محمد بن أبي عبيدالله على الزندقة .

وبلغه ايضاً عن عونة بنت أبي عون ، جمال وهيئة ، فقال للخيزران : « استزيريها » فاستزارتها ، فقالت لها الخيزران : « هل لك في الحمام » ؟ قالت : « نعم » ، فلما دخلتا ما شعرت الا بالمهدي قد وافاها، فاستترت بالخيزان وقالت: والله لئن دنوت مني لأضربن بالكرنيب وجهك » ، فقال : « ويلك إنما أردت ان أتزوجك »، قالت : « لا سبيل الى ذلك »، فانصرف عنها ، فاخبرت اباها ، فقال : « أحسنت في فعلك » .

محاسن القيادة

قال الحسن الجرجاني : حدثني سهم بن عبد الحميد الحنفي قال : خرجت من الكوفة أريد بغداد ، فلما نزلت ، بسط غلماننا وهيأوا غداءنا ، فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة ، على برذون فاره ، فصحت بالغلمان فأخذوا دابته ، فدعوت بالغداء ، فبسط يده غير محتشم ، وما أكرمته بشيء الا قبله ، وكنا كذلك اذ جاء غلمانه بثقل كثير ، وهيئة جميلة ، فتناسبنا فاذا هو طريح بن اسماعيل الثقفي ، فارتحلنا في قافلة منا لا يدرك طرفاها ، فقال طريح : « ما حاجتنا الى هذا الزحام ، وليست بنا اليهم وحشة ، ولا علينا خوف ، فاذا خلونا بالخانات والطرق كان أروح لأبداننا » ، قلت : « ذلك اليك » ، فنزلنا من الغد الخان ، وتغدينا وإلى جانبنا نهر ظليل بالشجر ، فقال : « هل لك ان تستنقع فيه » ؟ فمررنا اليه ، فلما نزع ثيابه اذا بين جنبيه آثار ضرب كثير ، فوقع في نفسي منه شر ، فنظر إليّ ففطن وتبسم ، وقال : « قد رأينا ذعرك بما ترى، وحديث ذلك يجري اذا سرنا بالعشية» فلما سرنا قلت له : «الحديث»

قال : « نعم . قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار ، وكتب الى يوسف بن عمر ، فلما أتيته ملأ يدي خيراً ، فخرجت مبادراً الى الطائف ، فلما امتد بي الطريق وليس يصحبني فيه أحد ، عنّ لي اعرابي على قعود له ، فحدث أحسن الحديث ، وروى الشعر ، فاذا هو راوية ، فأنشد فاذا هو شاعر، فقلت : « من أين أقبلت » ؟ قال: « لا أدري » ، قلت : « وما القصة »؟ قال : « أنا عاشق لامرأة قد أفسدت علي عيشي ، وقد حذرني أهلها ، وجفاني لها أهلي ، وانما استريح بأن انحدر الى الطريق مع منحدر ، وأصعد مع مصعد » ، قلت : « فأين هي » ؟ قال : « تنزل غداً بازائها » ، فلما نزلنا أراني طريقاً عن يسار الطريق ، فقال : « ترى ذلك الطريق »؟ فقلت : « أراه » ، قال : « فترى الخيم التي هناك » ؟ قلت : « نعم » ! قال : « فانها في الخيمة الحمراء » ، فأدركتني أريحية الحدث ، فقلت : « والله اني آتيها برسالتك » ، فمضيت حتى انتهيت الى الخيم ، فاذا امرأة ظريفة جميلة كأنها مهرة عربية ، فذكرته لها ، فزفرت زفرة كادت تنتقض اضلاعها ، وقالت : « أو حي هو » ! قلت : « نعم ، تركته في رحلي وراء هذا الطريق» ! قالت : «بأبي انت وأمي ، ارى لك وجهاً حسناً يدل على الخير ، فهل لك في امر»؟ قلت : « فقير اليه » ! قالت : « البس ثيابي ، فأقم مكاني، ودعني حتى آتيه وذلك عند مغيربان الشمس ، فانك اذا اظلم الليل أتاك زوجي » ، فقال لك : « يا فاجرة ، ويا هنة ابنة الهنة » ، فيوسعك شتماً فأوسعه صمتاً . ثم يقول في آخر كلامه : « اقمعي سقاءك ، يا عدوة الله ، فضع القمع في هذا السقاء ، وإياك وهذا السقاء الآخر فانه واه » ! قلت : « نعم » ، فأجبتها الى ما سألت ، فجاء الزوج على ما وصفت ، وقال : «اقمعي سقاءك» فحيرني الله ان تركت الصحيح ، وقمعت الواهي ، فما شعر الا باللبن يتسبب بين رجليه ، فعمد الى كسر الخيمة ، وحل متاعه ، وتناول رشاء من قد مدبوغ ثم ثناه باثنتين ، فجعل لا يتقي رأساً ولا وجهاً ولا رجلاً ، حتى خشيت ان يبدو له وجهي ، فتكون الاخرى، فألزمت وجهي الارض ، فعمل بظهري ما ترى، فلما تغيب عني، جاءت المرأة باكية، فرأت ما بي من الشر، واعتذرت واخذت ثيابي وانصرفت».

قال وحدث بهذا الحديث محمد بن صالح بن عبدالله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه « بسر من رأى » ، سنة أربعين ومائتين ، وكان حمل من البادية الى المتوكل فأطلقه ، وكان اعرابياً فصيحاً ، فعجب منه ، وكان حسن الوجه نجيباً ، قلما رأيت في الفتيان مثله ، قال : كان منا فتى يقال له الأشتر بن عبدالله ، وكان سيد بني هلال ، وأحسنهم وجهاً ، وأسخاهم كفاً ، وكان معجباً بجارية يقال لها « جيداء » ، بارعة الجمال ، فلما اشتهر أمرهما ، وظهر خبرهما ، وقع الشر بين أهل بيتيهما ، حتى قتل بينهما القتلى ، فافترقوا فريقين ، فلما طال على الأشتر البلاء ، جاءني يوماً وقال : « يا نمير ، هل فيك خير » ؟ قلت : «عندي ما احببت» ،

قال : « تساعدني على زيارة جيداء » قلت : « بالحب والكرامة » ، فانهض اذا شئت » .

قال : فركبنا وسرنا يوماً وليلة والغداة حتى المساء ، فنظرنا الى أدني سرب لهم ، فأنخنا رواحلنا في شعب وقعدنا هناك ، وقال : « يا نمير ، اذهب وأنشد واذكر لمن يلقاك انك طالب ضالة ، ولا تعرض بذكرى بشفة ولا لسان ، الى ان تلقى جاريتها فلانة ، راعية الضأن ، فتقرئها مني السلام ، وتسألها عن الخبر ، وتعلمها بمكاني » .

قال : فخرجت لا أتعدى ما أمرني به ، حتى لقيت الجارية ، فأبلغتها الرسالة ، وأعلمتها بمكانة وسألتها عن الخبر ، فقالت : « هي مشدّد عليها ، محتفظ بها ، وعلى ذلك فموعدكما عند الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت ، مع صلاة العشاء » ، فانصرفت فأخبرته ، ثم قدنا رواحلنا حتى أتينا الموعد في الوقت الذي وعدتنا فيه ، فلم نلبث الا قليلاً حتى اذا جيداء تمشي ، فدنت منا ، فوثب اليها الأشتر ، فتصافحا وسلم عليها ، ووثبت مولياً عنهما فقالا : « أقسمنا عليك الا رجعت ، فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح نخلو به دونك » ، فانصرفت اليهما ، وجلست معهما ، فقال الاشتر : « ما فيك حيلة يا جيداء فنتزود منك الليلة » ؟ قالت : « لا ، والله ، ما الى ذلك سبيل الا ان أرجع الى الذي تعلم من البلاء والشر » ! فقال : « لا بد من ذلك ولو وقعت السماء على الارض » ، قالت : « فهل بصاحبك خير » ؟ قلت : « بلى ، وهل الخير الا عندي؟ فاسألي ما بدا لك ، فاني منته اليه ، ولو كان في ذلك كله ذهاب نفسي » ، فألبستني ثيابها ، وأخذت ثيابي ثم قالت : « اذهب الى خبائي فادخل في ستري ، فان زوجي يأتيك مع العتمة ، فيطلب منك القدح ليحلب فيه ، فلا تعطه من يدك فكذلك كنت أفعل ، فيحلب ثم يأتيك بالقدح ملآنا لبناً فيقول : هاك ! فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك ، ثم خذه أو ذره حتى يضعه ثم يستبد برداءه ، ولست تراه حتى يصبح » ، فذهبت ففعلت ما أمرتني به حتى جاء بالقدح فيه اللبن فأطلت نكدي عليه ، ثم أهويت لآخذه فاختلفت يدي ويده ، وانكفأ القدح ، فاندفق منه اللبن ، فقال : « ان هذا الطماح مفرط » ، وضرب يده الى جانب الخباء فاستخرج سوطاً ، فضربني مقدار ثلاثين سوطاً حتى جاءت أمه وأخواته فانتزعوني منه ، ولا والله ما فعلوا ذلك حتى زايلتني روحي ، وهممت أن أوجره بالسكين ، فلما خرجوا عني وهو معهم ، قعدت كما كتب الله ، فما لبثت ان جاءت أم جيداء ، فحدثتني وهي تحسبني ابنتها فألقيتها بالسكوت ، وتغطيت بثوبي دونها ، فقالت : « يا بنية اتقي الله ، ولا تتعرضي للمكروه من زوجك، فذلك أولى بك »، ثم خرجت من عندي فقالت : «سأرسل اليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك ، فلم ألبث أن جاءت الجارية تبكي ، وتدعو على من ضربني ، وانا لا أكلمها ثم اضطجعت الى جانبي فلما استمكنت منها ، شددت يدي على فمها ،

وقلت : « يا هذه تلك أختك مع الاشتر ، وقد قطع ظهري بسببها ، وأنت أولى من ستر عليها فاختاري لنفسك ولها فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة ، ثم رفعت يدي عن فيها ، فاهتزت مثل القصبة من الروع ، وباتت معي ونلت منها الشهوة التامة ، ورافقتني أصلح رفيق رافقته ، ولم أذق شيئاً ألذ مما ذقت منها قط ، فلم نزل نتحدث وتضحك مني ومما بليت به ، حتى برق النور ، وجاءت جيداء فلما رأتنا ارتاعت وقالت : « من هذا عندك » ؟ قلت : « أختك » ، قالت : « وما ، السبب » ؟ قلت : « هي تخبرك فانها عالمة به » ، وأخذت ثيابي ، وأتيت صاحبي فأخبرته بمـــا أصابني ، وكشفت له عن ظهري ، فاذا فيه ما الله به عليم » ، فقال : « لقد عظمت منتك عندي ، ووجب شكرك ، وخاطرت بنفسك ، فلا حرمني الله مكافأتك » .

وعن رجل من بني عامر أنه خرج وهو غلام ما بقل وجهه ، وكان ذا جمال وهيئة ، صاحب غزل ، فهجم على قوم يتحملون ، وقد شدوا أثقالهم وبرزوا ، واذا امرأة جميلة قد تخلفت على جمل لها لإصلاح شأنها ، قال : فوقفت عليها ، فاذا هي أحسن خلق الله وجهاً ، وأغزله وأملحه ، فتلاقينا كلاماً غير كثير ، فقالت : « أسألك شيئاً فهل لك به علم » ؟ قلت : « سلي » ، قالت : « ايهما أحسن جردة الرجل أم المرأة » ، قلت : « الرجل » ، قالت : « بل المرأة ، فان أحببت ان تعلم ذلك علمته » ، قلت : « وكيف أعلمه » ؟ قالت : « أتجرد لك من ثيابي وأرميها عني ثم أمشي حتى أبلغ الأكمة ، ثم أقبل حتى آتيك فتعطيني عهـــد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت » ، فقلت : « لك عهد الله إن فعلت لأفعلنه » ، قال : فألقت ثيابها عن أحسن ما نظرت اليه قط ، بياضاً ونظافة وحسناً ، فلما انتهت إليّ قالت : « الوفاء » ، قلت : « الوفاء ، ونعمة عيني » ، فخلعت ثيابي وأنا كأبهى الفتيان وأهيأهم حتى مضيت بعد الغاية ، فلما انتصف بي المدى سمعت خرخرة جملي ، فاذا هي قد جالت على ظهره لابسة ثيابي ، متنكبة قوسي ، قد لزمت المحجة ، فناديتها فلم تعرج عليّ ، ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها ، وركبت بعيرهـــا وزجرته ، فانبعث بي أثر الحي وأخذت شق الوحشي ، حتى مـــا أراها وجعلت أكف عن الجمل ، إذ خشيت ان الحق الظعن حتى رأوني من بعيد ، وجعلوا ينادون : « ويحك اقبلي » ! وأنا صامت لا أتكلم ولا أتقدم ، فلما طال عليهم أمري ، بعثوا بجارية لهم مولدة، فأقبلت تعدو حتى أتتني ونشطت خطام الجمل من يدي ، وأنا متبرقع أحسن الناس وجهاً وعيناً . فنظرت الجارية في وجهي ساعة ، ثم قالت : « لقد أمسيت حديدة الطرف » ، وقادت الجمل حتى أتت الحي ، فقالت أم الجارية : « يا بنية لقد استحيت من الناس مما دعوتك العشية » ، ثم تأملت ونظرت وسائر النساء . وقالت إحداهن : « والله انه لرجـــل فطن » ، وأنزلتني العجوز

وأدخلتني الستر ؛ وقالت : « من أنت لا أفلحت »؟ قلت : « بـــل ابنتك لا أفلحت ، ولا أنجحت » ، وقصصت عليها قصتها ، فقالت : « نشدتك الله الا اعرتني نفسك هزيعاً من الليل فإنا كنا على ان نبني بابنتي صاحبة الجمل الليلة وما في الحي رجل غير زوجها ، وهو انسان فيه لوثة ولا بد من ان أدخلك عليه فانك غلام أمرد ، فلا ينكرك ولا أراه أقوى منك ان اعتركتما فلك عندي يد بيضاء » .

وأقبلت وأخت لابنتها وخالتها فألبسنني ثوب العروس وطيّنني ، ثم دلفن بي نحو الرجل، بعيد العتمة ، وقالت أمها : « أنا لك الفداء ، تجلد ساعة بالامتناع ، فانه منصرف عنـــك . وستأتيك الكافرة » . فأدخلتني على مثل الأسد الا ان به لوثة كما قالت فاعتركنا حتى أعيا ، وكف عني ، وطال بي الليل حتى سمعت خرخرة جملي ، فلم ألبث الا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهي معها ، فجعلتها مكاني ، وفتشت عن سرها فاذا هي قد ظلت مع انسان كانت تهواه . وأتيت ثيابي ، فنهضت مبادراً لا ألوي على شيء حذراً مما لقيت .

قال : وملك النعمان بن المنذر أربعين سنة ، فـــلم تر منه سقطة غير هذه ، وهو أنه ركب يوماً فبصر بجارية قد خرجت من الكنيسة ، فأعجبته لجمالها ، فدعا بعدي بن زيد ، وكان نديمه ووزيره ، فقال له : « يا عدي ! لقد رأيت جارية لئن لم أظفر بها انه الموت ، ولا بد من ان أتلطف او تتلطف لي حتى تجمع بيني وبينها » ، قال : « ومن هي » ؟ قال : « سألت عنها فقيل : هي امرأة حكم بن عمرو رجل من أشراف الحيرة » . قال : « فهل أعلمت أحداً » ! قال : « لا » ، قال : « فاكتمه فاذا أصبحت ، فجدد الحكم كرامة وبراً » .

فلما أذن للناس بدأ به فأجلسه معه على سريره وكساه ، فاستعظم الناس ذلك ، فلما أصبح بدأ أيضاً بالاذن له وحمله فأنكر الناس ذلك . فقالوا : « ما هذا إلا لأمر » . فصنـــع به ذلك أياماً، ثم قال له عدي : «ايها الملك، عندك عشر نسوة، فطلق إحداهن، ثم قل له فليتزوجها » ففعل ، فلما دخل عليه ، قال : « يا حكم ما كانت نفسي تسمح بهذا لولد فتزوج فلانة ، فقد طلقتها » ، فخرج حكم الى عدي فقال : « يا أبا عويمر ، ما صنع الملك بأحد ما صنع بي ، وما أدري بما أكافيه » . قال له عدي : « طلق امرأتك كما طلق لك امرأته » ، ففعل وحظي بها عدي عنده ، وعلم حكم أنه قد مكر به في امرأته . وفيه يقول الشاعر :

ما في البريَّةِ مِن أُنثى تعادِلُها إلّا الذي أخذَ النُّعمانُ مِنْ حَكَمِ

وحدث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار ، عن محمد بن بشير الخارجي قال : « قدم علينا رجلان من أهل المدينة يصيدان ومعهما نسوة ، والفساطيط مضروبة . وكان سليمان بن عبدالله الاسلمي وابن أخ له مقيمين بناحية الروحاء . فأرسل النسوة الى سليمان وابن أخيه : « أما لكما حاجة في الحديث »؟ فرد الرسول: «إن يكن لنا فيه حاجة، فكيف لنا بذلك مع ازواجكن»؟ فقلن : « انما خرج ازواجنا للصيد وقد بلغنا ان لكم صاحباً يعرف من طلب الصيد ما لا يعرفه غيره فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لاسرعوا اليه ، وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم » ، يعنين به محمداً بن بشير ، فمضى اليـــه سليمان وابن اخيه فقال : « يا أبا محمد ! أرسل الينا النسوة بكذا وكذا ، وسألنني[1] ان اخرجك الى الصيد» فقلت : «لا والله لا أفعل ولا أتعب ولا انصب وانتم تتلهّون وتتحدثون انا لذا أشد حباً ، واكثر صبابة وشوقاً فأرسلا الى النسوة بمقالتي ، فأرسلن الي رسول وعاهدنني لئن اخرجتهم ليحتلن لي حتى أخلو معهن ليلة حتى الصبح » ، فصرت اليهم، وذكرت لهم الصيد فخرجوا معي ، فما زلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت في الكذب بما يضارع الصدق حتى أفنيته ، فأقمت معهم ثلاثة أيام ولياليها ، ثم انصرفوا من غير ان اصطدنا شيئاً ، فقلت في ذلك :

إني انطَلَقْتُ معِي قومٌ ذَوو حَسَبٍ ... ما في خَلاَئِقِهِمْ زَهْوٌ ولا حَمَقُ

اني لأَعجَبُ مُنهمُ كيفَ أخدَعُهُمْ ... أَمْ كيفَ آفِكُ قوْماً مابِهِمْ رهَقُ

أَظَلُّ في الأَرْضِ أُلهيهِمْ وأُخبِرُهمْ ... أخبارَ قوْمٍ وما كانوا ولا خُلِقوا

ولوْ صدَقتُ لقلتُ القومُ قدْ دَخلوا ... حينَ انطَلَقْنا وإني ساعةَ انْطَلَقوا

فلو أجاهِدُ ما جاهَدْتُ دونَكُمُ ... في المُشرِكينَ لأدرَكتُ الأُولى سبَقوا

إنْ كنتُ أبدَاً جاري مِن حلاَئِلكم ... والدَّهرُ ذو عَنَفٍ إيَّامُهُ طُرُقُ

فإنَّ كلَّ جديدٍ عائـــدٌ خلقاً ... فلَنْ يعودَ جديداً ذلكَ الخَلَقُ

قال : فظفر أصحابي بالحديث والمغازلة ، وأنا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والتعب وكذب المحادثة . وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قـــال : خرج محمد بن عبد الملك الزيات من عنـــد الواثق ومزيد بن محمد بن أبي الفرج الهاروني وكيل عبد الله بن طاهر ، فاذا بجارية حسناء في منظرة لها ، فلما بصرت به ورأت موكبه ، وكان جميلاً ظريفاً ، أومأت اليه

---

١ – وفي نسخة أخرى : وسألوني .

السلام وأومأت بيدها الى صدرها ، فأعجب بها فلما صار الى منزله ، دخلت اليه ، فرأيته بخلاف ما عهدت ، وكان لا يكتمني شيئاً فقلت : « ما لي أراك مدلهاً يا أبا الحسن » ؟ قال : « رأيت شيئاً انا فيه مفكر » ، ثم أنشأ يقول :

وابِـــأبي مُخَضبٌ أومَى إلينا بيدِه
أومى بها يُخبرُني راحتُهُ في كَبِدِه
أنَّ الضَّنى في جَسدي يُخْبِرُني عن جَسَدِه
فليس للحاسدِ إلَّا خَصلَةٌ من حَسَدِه

ثم شرح لي القصة ، ثم انصرفت من عنده، ووافيتُ مولى الجارية ، فسألته ان يبيعها، فقال: « اشتريتها للأمير عبدالله بن طاهر ، وليس الى بيعها من سبيل » ، فلم أزل به حتى اشتريتها بخمسين الف درهم ، ووجهت بها اليه ، وكتبت اليه :

هٰذا مُحِبُّكَ مطويٌّ على كَمدِه عَبرى مَدامِعُهُ تجري على جسدِه
له يَدٌ تسألُ الرَّحمٰنَ راحَتَها مِمَّا به ، ويدٌ أخرى على كبدِه

فقبِلها ، وحَسُنَ موقعها عنده ، فولّاني خراج ديار ربيعة ، فأصبتُ فيها الف درهم .

قال السجستاني: أرق الرشيد ذات ليلة، فوجه الى عبد الملك الاصمعي، والى الحسين الخليع، فأحضرهما ، وشكا اليهما مدافعة نومه ، وشدة أرقه ، وقال لهما : « عللاني بأحاديثكما ، وابدأ انت يا حسين » . قال : « نعم يا امير المؤمنين ! خرجت في بعض السنين منحدراً الى البصرة ، وممتدحاً لآل سليمان ، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي ، فقبلها وأمرني بالمقام ، فخرجت ذات يوم الى المربـــد ، وجعلت المهالبة طريقي ، فأصابني حرٌّ وعطش ، فدنوت من باب دار كبير لأستسقي، فاذا انا بجارية احسن ما يكون كأنها قضيب يتثنّى، وسناء العينين، زجّاء الحاجبين، مهفهفة الخصر ، حاسرة الرأس ، مفتوحة الجربان ، عليها قميص لاذ جلناري ، ورداء عدني ، قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها ، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمّانتين، وبطن كطي القباطي ، وعكن مثل القراطيس ، لها جمة جعدة ، بالمسك محشوة ، وهي ، يا أمير المؤمنين ، متقلدة خرزاً من ذهب ، والجوهر يزهر بين ترائبها ، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج، وحاجبان

مقرونان ، وعينان كحلاوان ، وخدان اسيلان ، وأنف اقنى ، تحته ثغر كاللؤلؤ واسنان كالدر، وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي ، على لبتها عبق الخلوق وهي والهة حيرى ، واقفة في الدهليز ، وجائية تخطر في مشيتها ، قد خالط صرير نعلها اصوات خلخالها كأنها تخطر على اكباد محبيها ، فهي كما قال الأفوه الأودي :

ليس منها ما يُقالُ لها   كَمُلَت لو أنَّ ذا كَمَلا
كُلُّ جزءٍ من محاسنِها   كائنٌ من حُسنِها مَثَلا
لو تمنَّتْ في براعتِهـــا   لم تَجِدْ في حُسنِها بَدلا

فهِبْتُها ، والله ، يا أمير المؤمنين ؛ ثم دنوت منها لأسلّم عليها ، فاذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك . فسلّمت عليها ، فردت السلام بلسان منكسر ، وقلب حزين محرقٍ ، فقلت لها : « يا سيّدتي ! إني شيخ غريب أصابني عطش ، فأمري لي بشربةٍ من ماءٍ ، تؤجَري » . قالت : « اليك عني ، يا شيخ ، فاني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر » ! فقلت لها : « يا سيّدتي ، لأية علة » ؟ قالت : « لأني عاشقة من لا ينصفني ، وأريد من لا يريدني ، ومع ذلك فاني ممتحنة برقباء فوق رقباء » . قلت لها : « يا سيدتي ، هل على بسيط الارض من تريدينه ولا يريدك » ؟ قالت : « انه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال » . قلت لها : « يا سيدتي ، فما وقوفك في الدهليز » ؟ قالت : « هو طريقه ، وهذا أوان اجتيازه » . قلت لها : « يا سيدتي ، هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الاوقات ، أم حب مستحدث » ! فتنفست الصعداء ، وأرخت دموعها على خديها كطلّ على ورد ، وأنشأت تقول :

وكنّا كغُصنَيْ بانَةٍ وسطَ ورِدَةٍ   نَشمُّ جنى اللّذاتِ في عيشةٍ رغدِ
فأفرد هذا الغصنَ من ذاكَ قاطِعٌ   فيا مَن رأى فَرداً يَحِنُّ الى فردِ

قلت لها : « يا هذه ، ما بلغ من عشقك هذا الفتى » ؟ قالت : « أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم ؛ وربما أراه بغتة ، فأبهت وتهرب الروح عن جسدي ، وأبقى الاسبوع والاسبوعين بغير عقل » ؛ قلت لها : « عزيز عليّ ، وأنت على ما بك من الضنى وشغل القلب بالهوى ، وانحلال الجسم وضعف القوى ، ما أرى من صفاء اللون ، ورقة البشر ،

فكيف لو لم يكن بـــك من الهوى شيء ، أراكِ كنت مفتتنة في أرض البصرة » . قالت : « كنت ، والله ، يا شيخ ، قبل محبتي لهذا الغلام ، تحفه الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة ، وفتنني هذا الغلام » . فقلت : « يا هذه ، ما الذي فرّق بينكما » قالت : « نوائب الدهر ، وأوابد الحدثان ، ولحديثي وحديثه شأنٌ من الشان ، وأنبيك أمري :

إني كنت أفصدت ، في بعض أيام النيروز ، فأمرت ، فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش ، وأواني الذهب ؛ ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار ، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة ، فيهن من الجواري ، جارية « شهرأن » ، وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ؛ وكانت الجارية ولعت بي ، وكانت أول من أجابت الدعوة ، وجاءتني منهنّ ؛ فلما حصلت عندي ، رمت بنفسها عليّ ، تقطعني عضاً وقرصاً . ثم خلونا نتمزز القهوة الى ان يدرك طعامنا ، ويجتمع من دعونا ، فتارة هي فوقي ، وتارةً أنا فوقها ، فحملها السكر على ان ضربت يدها على تكتي فحلّتها ، ونزعت هي سراويلها ، وصارت بين فخذيّ كمصير الرجال من النساء . فبينا نحن كذلك ، اذ دخل عليّ حبيبي ، وقد التزق قرطي بخلخالي ؛ فلما نظر الينا ، اشمأز لذلك ، وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل اللجم ، وعضّ على أنامله ، وولى خارجاً .

فأنا ، يا شيخ ، منـــذ ثلاث سنين ، أسلّ سخيمته ، واستعطفه فلا ينظر إليّ بعين ، ولا يكتب إليّ بحرف ، ولا يكلم لي رسولاً .

قلت لها : « يا هذه ، افمن العرب هو ام من العجم » ؟ قالت : « هو من جلّة ملوك البصرة » . قلت : « من أولاد نبّابهـــا او من اولاد تجارها » . قالت : « من عظيم ملوكها » . قلت لها : « أشيخ هو ام شاب » ؟ فنظرت اليّ شزراً وقالت : « انك لأحمق . اقول : هو مثل القمر ليلة البدر ، أمرد اجرد ، وطرة رقعاء كحنك الغراب ، تعلوه شقرة في بياض ، عطر لباس ، ضارب بالسيف ، طاعن بالرمح ، لاعب بالنرد والشطرنج ، ضارب بالعود والطنبور ، يغنّي وينقر على أعدل وزن ، لا يعيبه شيء إلا انحرافه عني ، لا نقصاً لي منه بل حقداً لما رآني عليه » . قلت : « يا هذه ، وكيف صبرك عنه » ؟ فأنشأت تقول :

أمّا النهارُ ، فمُستهامٌ والهٌ ... وجفونُ عيني ساجفاتٌ تدمَعُ
والليلَ ، قد أرعى النجومَ مفكّراً ... حتى الصّباحِ ، ومُقلَتي لا تهجَعُ

كيف اصطباري عن غزالٍ شادنٍ في لحظِ عينيهِ سِهامٌ تصدَعُ
وَجهٌ يُضيءُ ، وحاجبانِ تقوَّسا وكأَنَّ جبهتَهُ سِراجٌ يَلمَعُ
وبَياضُ وَجهٍ قد أُشِيبَ بحُمرَةٍ في وجنَتَيْهِ كأَنَّهُ مُستجمعُ
والقَدُّ منهُ كالقضيبِ إذا زهَا والغصنُ في قنوائهِ يترعرَعُ
تَمَّتْ خلائقهُ ، وأُكمِلَ حُسنُه كمثالِ بدرٍ ، بعد عشرٍ ، أربَعُ

قلت لها : « يا سيدتي ، ما اسمُه ، وأين يكون » ؟ قالت : « تصنع به مــــاذا » ؟ قلت : « أجهد في لقائه ، وأتعرف الفضل بينكما في الحال » ، قالت : « على شريطة » قلت : « وما هي » ؟ قالت : « تلقانا إذا لقيته ، وتحمل لنا اليه رقعة » . قلت : « لا أكره ذاك » . قالت : « هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة ، يُكنى بأبي شجاع ، وقصره في المربد الأعلى ، وهو أشهر من أن يخفى » . ثم صاحت في الدار : « يا جواري ، دواةً وقرطاساً » ! وشمّرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة ، ثم حملت القلم وكتبت :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، سيدي : تركي الدعاء في صدر رقعتي ، يُنبيء عن تقصيري ، ودعائي ، إن دعوت ، يكون هجنة . فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حدّ التقصير ، لما كان لِما تكلفتْه خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى ، مع إياسها منك ، وعلمها بتركك الجواب .

سيدي ، فجُد بنظرة ، وقت اجتيازك في الشارع الى الدهليز ، تُحيِ بها أنفساً ميتةً أسرى ؛ واخطط بخطّ يدك ، بسطها الله بكل فضيلة ، رقعة فأجعلها عوضاً من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي انا ذاكرتها .

سيدي ، ألست لك محبة ، وبك مدنفة ؟ فان رجعت ، مولاي ، الى الأشبه بك ، وأنقذتني من عوارض التلف ، كنت لك خادمة ، ولك شاكرة » .

فلما فرغت من الكتاب ، يا أمير المؤمنين ، ناولتني إياه [1] ، فقلت لها : « يا سيدتي ، قد وجب حقك عليّ ، ولزمتك حرمتي لطــــول وقوفي عليك . وكنت قد سألت شربة ماء » . قالت : « استغفر الله ، ما فهمنا عنك » . ثم صاحت في الدار : « أخرجن إلينا شراباً من ماء وغير ماء » . فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة ، بأيديهن الطاسات والجامات والأقداح ،

---

[1] — وفي نسخة « ناولته إياي » ، ولكن ما ذهبنا اليه هو الاصح .

مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً وشراباً ، فشربت الماء ثم قلت : « يا سيدتي ، مع قدرتك على هذا من استواء الحال ، وكثرة الخدم والعبيد والجواري ، فلِمَ لا تأمرين احدى الجواري ان تقف مراعية للغلام ، حتى إذا مرّ أعلمتك ، فتخرجين اليه » ؟ قالت : « لا تغلط يا شيخ » ، فتمثلت :

عَبَالَةَ عُنقِ اللّيثِ من أجلِ أنّهُ إذا رامَ أمراً قامَ فيهِ بنفسِه

ثم انصرفت عنها ، يا أمير المؤمنين ؛ فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلاً بالملوك وأبناء الملوك ، ورأيت غلاماً قد زان المجلس ، وفاق من فيه حسناً وجمالاً ، قد رفعه الأمير فوقه ، فسألت عنه ، فقيل : « ضمرة بن المغيرة » ، فقلت في نفسي : « بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل ، هو ، والله ، قاتلها فيما أرى » . ثم قمت فقصدت المربد ، ووقفت على باب داره ، فاذا هو قد ورد في موكب جليل ، فوثبت اليه ، وبالغت في الدعاء والثناء ؛ ثم دنوت منه ، وفاوضته في الذي بيني وبينها ، وناولته الرقعة ، فلما قرأها ضحك ، ثم قال : « يا شيخ قد استبدلنا بها ، فهل لك في أن تنظر الى البديل » ؟ قلت : « نعم » . فصاح في الدار : « يا جواري ، أخرجن إلينا لذيذاً » . فما كان إلا أن طلعت جارية وضيئة الكمين ، ناهدة الثديين ، تمشي مشية مستوحل ، ترتج من دقة خصرها على كبر عجزها ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس اختطافاً ، على رأسها بطيخة من الكافور ، مكتوب على جبينها :

آهُ من الحُبّ آهُ ما أقتلَ الحُبّ وأضناهَ

ودون ذلك مكتوب :

عيّارَةٌ قياسةٌ في الخُطى رخيمَةُ الدّلّ، صيودٌ للرجالِ

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة اسطر ، وهي :

إذا غَضِبَتْ رأيتَ الناس قتلَى وإن رَضِيَتْ فأرواحٌ تعودُ
لها في عينها لحظاتُ سحرٍ ، تُميتُ بها ، وتحيي من تُريدُ
وتسبي العـــالِمين بِمُقْلَتَيْها فكُلُّ العالمينَ لها عبيدُ !!

فناولها الرقعة ، وقال : « اقرئي واجيبي صاحبتك » . فلما قرأت الرقعة ، اصفرّت ، وعرقت ، ومزّقتها ، وضربت بها في وجه الغلام ، وغابت في الستر . فقال لي : « اما انت ، يا شيخ ، فاستغفر الله مما مشيت فيه » . قلت : « بل انت استغفر الله من هجرانك إياها ، وتركك اتيانها . والله ما أرى لها في البشر نظيراً » . قال : « لا أفعل ، ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء » .

فخرجت ، يا امير المؤمنين ، وأنا أجرّ ذيلي حتى وردتُ عليها ؛ فاستأذنت ودخلت ، فبدأت بي ، فقالت : « ما وراء الشيخ » ؟ قلت : « البؤس واليأس » . قالت : « لا عليك . فأين الله والقـــدر » ؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ، وعشرة اثواب ، وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان . فلم يكن لي ، والله ، إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه الى البصرة ، فوردتُ عليها ، فوجدت على بابها أمراً ، ونهياً ، وأسباباً لا تكون إلا على باب الخلفاء .

فاستأذنت ، فدخلت ، فاذا فوق رأسها ثلاثون رجلاً من شيوخ وشبان وخدم ، وقوف بسيوفهم ، فلما نظرتْ إليّ ، عرفتني ، ووثبت إليّ ، وقبّلت رأسي ، وقالت : « يا شيخ ! الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكاً ، وجعل الملوك بالتيه عبيداً ، ان الذين تراهم وقوفاً ، اصحاب « ضمرة » ، يسلون سخيمتي ، ويسألونني الرجوع له ، والله ، لا نظرت اليه في وجه ولو أنه في حسن يوسف وكمال حواء » . فسجدتُ ، يا امير المؤمنين ، شماتة بضمرة ، وتقرّباً الى الجارية . فقال بعض حجّاب ضمرة : « مهلاً يا شيخ ، فمن طاب محضره ، طاب مولده » . ثم انصرفوا .

فناولتني خريطة فيها اوراق ، فقالت : « هذا أول ما ورد علينا منه » ، فاذا ثوب خزّ أبيض يقق ، مكتوب فيه بماء الذهب : « بسم الله الرحمن الرحيم . لولا تغاضي عليك ، أدام الله حيائك ، لوصفت شطراً من غدرك ، ولبسطتُ سوط عتبي عليك ، وحكمت سيف ظلامتي فيك ، اذ كنتِ الجانية على نفسك ، والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء ، المؤثرة علينا غيرنا ، فخالفت هواي ، وفرشت نفسك لها ، على حالتي جدّ وهزل ، وصحو وسكر ، والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك . وقد ضمّنت رقعتي هذه ، أبيات شعر ، انت المتفضّلة بالنظر اليها ، وهي :

قطَّعَ قلبي فِراقكُمُ قِطَعا وكِدتُ أقضي بَيْنكُم جزَعا
ما تُكحَلُ العين بالرُّقادِ ولا ينامُ جنبي في اللَّيلِ مضطَجِعا

لا عيشَ لي مُذْ نأتْ ولا وَجَدَتْ   عينايَ في الأرضِ قطُّ متَّسَعَا

قلت لها : « افلا تحدثيني كيف سليتِ عنه ، وابتلى » ؟ قالت : « كيف لا احدثك » ؟ افتصدت « تفاحة » ، جارية محمد بن سليمان ، فدُعينا الى خورنق لمحمد بن سليمان ، فلما طعمنا ، دعت لنا بالشراب ، فبينا نحن كذلك ، اذا بحراقة سلطانية قد وردت ، وفيها عدة من ابناء الملوك ، وفيهم هذا العيار ، ولا علم لي بمكانه ، وكنت حملت العود وغنّيت :

أبلَى فؤادي وشَفَّنِي الأَرَقُ   والدَّمعُ من مُقلَتَيَّ يستَبِقُ
من حُبِّ ظَبيٍ أغنّ ذي دَعجٍ   وقلبُـــهُ للشَفاء مُنطَبِقُ

فلما وجبت العتمة انصرفنا ، وأبطأت الجارية ، وأتاني هؤلاء القوم من عنده يسلون سخيمتي ، ويستعطفونني عليه .

ثم انصرفت عنها ، يا امير المؤمنين ، ودخلت الحمام من ساعتي ، فما كان الا ان دخلت ، حتى أتاني غلامي ، فقـــال : « جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك » . فلبست ثيابي ، وخرجت مسرعاً ، فاذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء ، فقال : « والله ، لا برحنا ، حتى تنفق علينا الخمسائة دينار التي اخذتها من الجارية ، سيدتي » . قلت : « أي والله ، بالسمع والطاعة » .

ثم جذبني الى نفسه ، فلم يزل يناظرني في أمرها حتى اقبل المساء ، ثم انصرف الى رحله . فلما كان من الغد ، وردت له رقعة مع خادم ، وكيس فيه ألف دينار ، واستزارني ، فقبلت ذلك ، وصرت معه اليه . فلما نظر إليّ ، تنحّى عن مقعده ، وأقعدني ، ثم قال : « هذا قد أعددته ، للنيروز ، لسيدتي هدية ، وأنت أولى من تجشم مع الخادم اليها » . قلت : « السمع والطاعة » . ثم صاح في الدار : «هاتوا الهدية» . فاذا مائة تخت من ثياب ، وصندوق من ذهب مقفل عليه ، فقال لي : « في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين الف دينار ، وأنت أولى من تفضل بالايصال » .

فصرنا اليها ، واستأذنا ، فلما مثلنا بين يديها ، أنكرتني وقالت : « مَن الشيخ » ؟ قلت : « الخليع ، شاعر العراق ؛ ومعي هدية عبدك ضمرة » . فصاحت في الدار : « تملك » ! فاذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة ، قالت لها : « خذي هذه الهدايا ، وفرّقيها على جواري

الدار » ، ثم قالت : « أيطمع الخنوص ان يجتمع معي » بعد قبولي الهدية ، في ثلاثين سنة » ؟ قلت لها : «العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة» ، قالت : « ففي خمس عشرة سنة » ؟ قلت لها : « أنقصيها » أولى بك » . قالت : « ففي ثلاث سنين » ، قلت لها : « حطة أخرى » وقـد اجتمعنا » ، قالت : « لا » والله » لا آكل ولا أشرب حتى آتيه » .

وأمرت ان يُسرج ؛ وبادرت الى باب ضمرة مبشراً ، فما وصلت او سمعت صلاصل اللجم ، فاذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها . فدخلت ، فاذا هما يتعانقان ويتعاتبان ، فقلت : (يا سيدتي ، ما أنتما الى شيء أحوج منكما الى خلوة) . قالا : (هو ذاك) ! فانصرفت عنهما ، ثم بكرت عليهما ، فاذا هي في المرقد الاول جالسة ، عليها جبّة وشيء مطير ، وهي تعصر الماء عن ذوائبها ، وتصلح قرونها ، فاستحيتني وقالت : (لا تفكرنْ في ريبة ، فوالله ما صلّينا البارحة ، حتى بعثت الى عبـد الرحمن بن أبي ليلى القاضي ، فزوجت نفسي سيدي . ولكن صِرْ اليه في المرقد الثاني) .

فصمدت اليه ، فلما نظر اليّ ، وثب اليّ ، وقبّل بين عينيّ وقال : (يا شيخ ، قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك) . ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب الى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار ؛ فرجعت اليها ، فقالت : (بماذا برّك سيدي) ؟ فأقرأتها الرقعة ، فقالت : (نعجّل اليك مثلها ، فدعت بمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ، ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر ، وقالت : (هذه وظيفتك علينا كل عام) ، فخرجت من عندي ، وأخذت مرفوعي من آل سليمان ، وانصرفت الى العراق) .

وكان الرشيد متكئاً ، فاستوى جالساً وقال : (أوه يا حسين ! لولا ان ضمرة سبقني اليها ، لكان لي ولها شأن من الشأن) .

مع الشعراء : ومنه مع الشعراء ، قال : (استأذنت بنت لعبد الملك بن مروان في الحج فأذن لها ، وكتب الى الحجاج يأمره بالتقدم الى عمر بن أبي ربيعة ان لا يذكرها في شعره ، فلما بلغ عمر مقدمها ، لم يكن له همة إلا أن يتهيأ بأجمل ما يقدر عليه من الحلل والثياب . وضربت لها قبة في المسجد الحرام ، فكانت تكون فيها نهاراً ، فاذا أمسَت ، تحولت الى منزلها لتنظر اليه وتجلس بإزاء القبة ، وقـد خبر عمر بشأنها ، فاذا أرادت الطواف ، أمرت جواريها فيستـُرْنَها بالمطاريف ، فكانت تتطلع الى عمر كثيراً ، وكانت تسأل من دخل عليها عنه ، رجاء أن يكون قد قال شيئاً ، فلم يفعل ، حتى قضت الحجّ ، ورحلت ، ونزلت من مكة على

أميال ، فأقبل راكب من مكة ، فسألته : (من أين أقبلت) ؟ قال : (من مكة) ، قالت : (عليك وعلي فرقة انت منها ، لعنة الله) . قال : (ولِمَ يا ابنة عبد الملك) ؟ قالت : (قدمنا مكة فأقمنا أشهراً ، فما استطاع الفاسق عمر بن أبي ربيعة أن يزوّدنا من شعره أبياتاً ، كنا نلهو بها في سفرنا هذا) . قال : (فلعله قد فعل) ، قالت : (فاذهب اليه واسأله ، ولك في كل بيت يأتيني به منه عشرة دنانير) .

فأقبل الرجل ، وأتى عمر بن أبي ربيعة ، فأخبره الخبر ، فقال له : (قد فعلت ، ولكن أحبّ أن تكتم عليّ) . قال : (أفعل) ، ثم أنشده :

راعَ الفؤادَ تفرُّقُ الأحبابِ ... يومَ الرَّحيلِ فهاجَ لي أطرابي
فظَلِلتُ مكتئباً أكفكِفُ عَبْرَةً ... سَحّاً يَفيضُ كَوابِلِ الأسرابِ
لّما تنادَوا للرَّحيلِ وقرَّبوا ... بُزْلَ الجِمالِ لطيَّةٍ وذَهابِ
كادَ الأسى يقضي عليك صبابَةً ... والوجهُ منكَ لِبَيْنِ إلفِكَ كابي
قالت سُعَيْدَةُ ، والدُّموعُ ذوارفٌ ... منها على الخَدَّيْنِ والجلبابِ
ليتَ المُغيريَّ الَّذي لم نَجْزِهِ ... فيا أطالَ تَصيُّدي وطِلابي
كانَتْ تَرُدُّ لنا المُنى أيّامُنا ... إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابي
أيّامُ نكتُمُ وُدَّنا ونودُّهُ ... سرّاً ، مَخافَةَ مَنطِقِ المُغْتابِ
أخبِرْتُ ما قالت ، فبِتُّ كأنَّما ... يُرمى الحَشا بنوافذِ النُشّابِ
فَبَعَثْتُ جاريتي وقلتُ لها : اذهبي ... قولي لها في خفيةٍ وتَقرابِ
أسُعَيْدُ ، ما ماءُ الفُراتِ وطيبُه ... منّي على ظمأ وطيبِ شَرابِ
بألَذَّ منكِ ، وإن نأيتِ وقلَّما ... ترعَى النّساءُ أمانَةَ الغُيّابِ
إن تَبذُلي لي نائلاً أشفي به ... سقَمَ الفؤادِ ، فقد أطلت عَذابي
وعَصَيْتُ فيك أقاربي ، فتقطَّعت ... بيني وبينَهُمُ عُرى الأسبابِ
فبَقَيْتُ كالمُهريقِ فضلةَ مائهِ ... في حَرّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سَرابِ

ثم أتى اليها بالأبيات ، فاعجبت بها ، وأمرت جواريها بحفظها ؛ ثم وفت له بما وعدت ، وسلمت اليه في كل بيت عشرة دنانير » .

وقال : أخبرنا محمد بن خلف ، قال : أخبرني أبو بكر العامري ، قال : حدثني موسى بن أفلح ، مولى فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، قال : حدثني بلال ، مولى ابن أبي عتيق ، قال : « قام الحارث بن عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة من الحجّ ، فأتاه ابن أبي عتيق ، فقال : « كيف تركت ابا الخطاب » ؟ فقال : هجرت الثرّيا عمر ، فقال :

من رسولي الى الثريّا ، فإنّي ضِقْتُ ذرعاً بهجرِها ، والكتابِ
سَلَبتني مُجّاجَةُ المسكِ عقلي فَسلُوها بمـا يَحِلُّ اغتصابي
أبرَزُوها مثل المَهاةِ ، تهادى بين خَمسٍ كواعبٍ أترابِ
وهي مكورَةٌ ، تحيَّر منها في أديمِ الخَدَّيْنِ ماءُ الشّبابِ
وتكنَّفنَها كواعبُ بيضٌ واضحاتُ الخدودِ والأقرابِ
في سخابٍ من القَرَنْفُلِ والدُّرِّ نفيسٍ ، واهاً لهُ من سِخابِ
قلتُ لِما ضَرَبْنَ بالسَّجْفِ دوني ليس هـذا لِودِّنا بثوابِ
فتبدَّتْ ، حتى إذا جُنَّ قلبي حالَ دوني ولائِدٌ بالثّيابِ
حينَ شَبَّ القَتولَ والعُنْقَ مِنْها حُسنُ لونٍ يرِفُّ كالزّريابِ
ذكَّرَتْني ببهجَةِ الشمسِ لَمَّا طَلَعتْ في دُجُنَّةٍ وسَحابِ
دُميَةٌ عند راهبٍ وَقَسِيسٍ صوّروها في مَذبَحِ المِحرابِ
فارجحنَّتْ في حُسْنِ خَلقٍ عَميمٍ تتهادى في مَشْيِها كالحُبابِ
ثُمَّ قالوا : تحبُها ؟ قلتُ ، بَهْراً عدد الرَّمل ، والحصى، والتُّرابِ

وقال لغلامه : « انطلق بكتابي هذا الى ابن أبي عتيق بالمدينة ، فادفعه اليه ، فأقبل الغلام

بالكتاب ، حتى دفعه اليه » . فلما قرأه ، قال : « والله ، أنا رسوله اليها » . فسار ، حتى قدم مكة لا يعلم به أهله ؛ فأتى منزله ، فوجده غائباً ، فانطلق غلام عمر الى عمر ، فقال : « إن رجلاً قدم وهو يطلبك ، من شأنه وهيئته كذا » قال : « ويحك ، ذاك ابن أبي عتيق ، اذهب اليه فقل له : إن مولاي يأتيك الآن » .

وكان عمر على فرسخين ، بل على رأس ثلاثة أميال من مكة ، فأتاه الغلام فأخبره ، فقال : « امرج لي أنت برذون عمر ، فان دابتي قد تعبت وكلّت » . فأسرجه له ، فركب وأتى الحمى ، فصهل البرذون ، وسمعت الثريا صهيله ، فقالت لجواريها : « هذا هو برذون الخبيث عمر » . ثم دعت ببغلةٍ لها ، فوضعت عليها رحلها ، فخرجت ، فاذا هي بابن عتيق ، فقالت : « مرحباً بعمي . ما جاء بك يا عم » قال : « أنت والفاسق جئتما بي » قالت : « أما والله لو بغيرك تحمل علينا ، ما أجبناه ؛ ولكن ليس لك مدفع أمر ربنا نحوه » ؛ فأقبل حتى انتهى الى عمر ، فخرج عمر اليه ، وقبّل يده ، ثم قال : « انزل ، جعلني الله فداك » . فقال : « ماء مكة حرام عليّ حتى أخرج منها » . ثم دعـــا ببغلته فركبها ، وانصرف الى المدينة ، وخَلا عمر بالثريا » .

وحدّث الزبير بن بكار عن أبي محرم عن ابراهيم بن قدامة ، قال : قال عمر بن ابي ربيعة : « ألا أحدثك حديثاً حلواً » ؟ قال : قلت : « نعم » قال [1] : « بينا أنا جالسٌ ، اذ جاءني خالد الخريت ، فقال : يا أبا الخطاب ! هل لك في هند وصواحبها ، فقد خرجن الى نزهة » ؟ قلت : « وكيف لي بذلك » ؟ قال : « تلبس لبسة أعرابي ، وتعتمّ عمامة ، وتركب مركبة كأنك ناشدٌ ضالةً » .

قال : ففعلت وجئت ، حتى وقفت عليهن أنشد ضالتي ، فقلن : « انزل » ، فنزلت ، وقعدت أحادثهن وأغازلهن ؛ فلما رمتُ النهوض ، قالت لي هند : « اجلس ، لاجلست أنت . ألا ترى أنك وقفت علينا غريباً ؛ ونحن ، والله ، وقفنا على غربتك . نحن بعثنا خالداً وخدعناه وأطمعناه في أنفسنا ، حتى جاء بك » . فقال خالد : « صدقن والله خدعنَني وخدعنك » .

فجلستُ وتحدثنا ، فأنشدتهن فقالت هند : (يا سيّدي، لقد رأيتني منذ أيام، وقد أصبحت

---

١ — هذه الرواية مذكورة في مقدمتنا لديوان « عمر بن أبي ربيعة » طبعة ١٩٦٨ — الشركة اللبنانية للكتاب ، ولكن مع بعض التبديل ، فلتراجع هناك . (المحقق)

عند أهلي ، فأدخلت رأسي في حبيبي ، ونظرت الى هني ، فاذا هو ملء الكف ومنية المتمني فناديت : (يا عمراه ، يا عمراه) !

قال عمر : فقلت : (يا لبيك ، يا لبيك ، يا لبيك) ، ثلاثاً ، ومددت في الثالثة صوتي ، فضحكت ؛ وحادثتهن ساعة ، ثم ودعتهن وانصرفت ، فذلك قولي :

عرفتَ مصيفَ الحيِّ والمُتَرَبَّعا ... بِبَطْنِ حُليَّاتٍ دوارِسَ بلقَعَا
الى السَّفح من وادي المُغمَّسِ بُدِّلَتْ ... معالِمُهُ وَبْلاً ، ونكباءَ زعزَعا
لهندٍ وأترابٍ لهندٍ إذِ الهوى ... جميعٌ ، وإذ لم نخشَ أن يتصَّدعا
وإذ نحنُ مثلُ الماءِ كان مِزاجُهُ ... إذا صفَّقَ السَّاقي الرَّحيقَ المُشعشَعا
وإذ لا نُطيع الكاشِحينَ ولا نرى ... لِوَاشٍ لَدَيْنا يَطلُبُ الصَّرْمَ مَطمَعا

وقال عمر : ما رأيت يوماً غابت عواذله ، وحضرت عواذره ، بأحسنَ من يومنا ، ولا صبوة كصبوتنا ، ولا قيادة كقيادة خالد ، ولا أملح ؛ ولقد وصفت ذلك في شعر ، فقلت في تمام ما تقدم :

أتاني رسولٌ من ثلاثِ حرائرٍ ... ورابعةٍ يَزْكُو لَها الحُسْنُ أجمعا
فقلتُ لِمُطْرِيهِنَّ في الحُسْنِ إنَّما ... ضَرَرْتَ ، فَهَلْ تسطيعُ نفعاً فتنفَعا
لئِن كانَ ما حدَّثْتَ حقّاً لما أرى ... كمِثلِ الأُلى أطْرَيْتَ في الناسِ أربَعا
وهيَّجْتَ قلباً كان قد ودَّع الصِّبا ... وأشياعَه ، فاشفَعْ عسى أن تُشَفَّعا
فقالَ: تعالَ انظرْ فقلتُ: فكيف لي ... أخافُ مقاماً أن يشيعَ ويشنَعَا
فقال: اكتَفِلْ ، ثم التَثِمْ وَأْتِ باغياً ... فسلِّمْ ولا تُكثِرْ بأن تتورَّعا
فإنِّي سأخفي العَينَ عنكَ ولا تَرى ... مخافَةَ أن يَفشو الحديثُ فيُسْمَعَا
فأقبَلْتُ أهوِي مثل ما قالَ صاحبي ... لِموْعِده أزجي قَعوداً موقَّعا
فلَّما توافَقْنَا ، وسَلَّمتُ ، أشرَقَتْ ... وُجوهٌ زهاها الحُسنُ أن تتقنَّعا

تَبالَهْنَ بالعِرفانِ لّما عَرَفْنَني فقُلْنَ امروءٌ باغٍ أَضَلَّ وأوضَعا
فلّما تنازَعنَ الاحاديثَ قُلنَ لي : أَخِفْتَ علينا أن نُغرَّ ونُخْدَعا
فما جِئْتَنا إلّا على وفقِ موعِدٍ على مَلَإٍ مِنّا خَرجنا له معا
رأينا خلاءً من عيونٍ ومجلِساً دميثَ الثَّرى سهلَ المَحَلَّةِ مُمرِعا
وقلنَ : كريمٌ نالَ وصلَ كرائمٍ وحَقٌّ له في اليومِ أن يتمتّعا
وفيهنَّ هندٌ تُكمِلُ الهَمَّ والمُنى وإخداعَ عيني كُلّما رمتُ مهجَعا

قال : ولما أنشد عمر بن أبي ربيعة ، ابن أبي عتيق ، قصيدته التي فيها يقول :

فأَتَتْها طَبَّةٌ عالِمَةٌ تخلِطُ الجِدَّ مِراراً باللَّعِبْ
ترفَعُ الصَّوتَ إذا لانَتْ لها وتُراخي عندَ سَوراتِ الغَضَبْ

قال ابن أبي عتيق : (امرأتي طالقٌ ان لم يكن الناس في طلب مثل هذه ، منذ قتل عثمان ، يحملونها خليفة ، فلم يقدروا عليها ، وأنت تريدها قوادة) . قال : ولما هجا كثيرٌ بنيٌ ضمرة ، فقال :

ويُحشَرُ نورُ المُسلمينَ أمامَهُم ويُحشَرُ في أستاهِ ضمرةَ نورُها

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة ، وأرادوا قتله ، ووضعوا له العيون ، فمكث شهراً لا يصل اليها ؛ فالتقى جميل وكثير ، فشكى أحدهما الى صاحبه ما يلقى ، فقال جميل : (أنا رسولك الى عزّة ، فأخبرني بما كان بينكما) . قال : (آخر ما لقيتها بالطلحة ، مع أتراب لها) .

قال : فأتاها جميل ، وهو ينشد ذوداً له ، ففطنت عزة ، فقالت : (تحت الظلحة التمس ذوداً هناك) . فانصرف جميل ، فأخبر كثيراً ؛ فلما كان في بعض الليل ، أتيا الطلحة ، وأقبلت عزة وصاحبة لها ، فتحدثا ملياً ، وجعل كثير يرى عزة تنظر الى جميل ، وكان جميلاً ، وكثير دميماً ، فغضب كثير ، وغار عليها ، وقال لجميل : (انطلق بنا قبل ان يصبح علينا الصبح) فانطلق ، فعند ذلك يقول :

رأيتُ ابنةَ الشُّبليِّ عزَّةَ أصبحَتْ كمُحتَطِبٍ ما يلقَ بالليلِ يَحطِبِ
وكانت تُمَنّينا ، وتزعَمُ أنّنا كبيضِ الأنوقِ في الصَّفا المُتغيِّبِ

ثم قال كثير لجميل : (متى عهدك ببثينة) ؟ قال : (في أول الصف بوادي الدم ، ومعها جواريها يغسلن ثياباً) . فخرج كثيّر حتى أناخ بهم ، وهو يقول :

وقلتُ لها يا عَزَّ أرسلَ صاحبي ... على بُعدِ دارٍ ، والرسولُ مُوَكَّلُ

بأن تجعلي بيني وبينَكِ موعِداً ... وان تأمُريني بالذي فيه أفعَلُ

أما تذكُرينَ العهدَ يومَ لقيتكُمُ ... بأسفَلِ وادي الدوْمِ ، والثوبُ يُغسَلُ

فعلمت بثينة ما أراد ، فصاحت : (اخسأ ، اخسأ) ، فقال عمُّها : (ما دهاك ، يا بثينة) ؟ قالت : (إن كلباً يأتينا من وراء هذا التلّ ، فيأكل ما يجد ، ثم يرجع) .

فرجع كثيّر ، وقال لجميل : (قد وعدتك التلّ ، فدونك) . فخرج جميل وكثيّر حتى انتهيا الى الدومات ، وقد جاءت بثينة ، فلم تزل معه حتى برق الصبح ، وكان كثيّر يقول : « ما رأيت مجلساً قط احسن منه » .

قال عمر بن شبة عن اسحق بن ابراهيم الموصلي : حدثني شيخ من خزاعة ، قال : ذكرنا ذا الرمّة ، وعندنا عصمة بن مالك الفزاري ، وهو يومئذ ابن عشرين ومائة سنة ، فقال : إياي فاسألوا عنه . كان من اظرف الناس ، خفيف العارضين ، آدم حلو المضحك ، اذا أنشد اختصر ، وأتاني يوماً فقال : « إن ميّة منقريّة ، وان بني منقر اخبث حيّ ، وأعلمه بأثر ، فهل عندك من ناقـــة نزورها عليها » ؟ فقلت : « اي والله ، عندي اثنتان » ، قال : فسرنا ، فخرجنا حتى اشرفنا على الحيّ وهم خلوف ، فعرف النساء ذا الرمّة ، فعدلنَ بنا الى بيت ميّ ، وأنخنـــا عندها ، فقلن لذي الرمة : « انشدنا يا أبا الحارث » ، فقال : « أنشدهنّ » ، فأنشدتهنّ قوله :

نظرتُ الى أظعانِ ميٍّ كأنَّها ... ذُرى النَّخلِ أو أثْلٌ تميدُ ذوائِبُه

فأُشعِلَت النّيرانُ والصّدرُ كاتِمٌ ... بِمُغرَورِقٍ تمَّت عليه سواكِبُه

بكى وامِقٌ جاء الفِراقُ ولم تَجُل ... جوائلَهـــا أسرارُه ومعاتِبُه

فقالت ظريفة منهن : « إبكي اليوم » ، فمررتُ فيها حتى انتهيتُ الى قوله :

إذا سرَحَت من حُبِّ ميٍّ سوارِحٌ ... على القلبِ ، آبَتْهُ جميعاً عوازِبُه

فقالت الظريفة : « قتلته ، قتلك الله » ! فقالت : « ما أصحّه ، وهنيئاً له » . فتنفس ذو الرمة تنفساً كادت حرارته تساقط لحمي ، ثم مررت فيها حتى انتهيت الى قوله :

وقد حَلَفَتْ بالله ميَّةُ ، ما الذي   أقولُ لها إلّا الذي أنا كاذِبُه
إذاً ، فرماني اللهُ من حيث لا أرى   ولا زال في أرضي عدوٌّ أحارِبُه

فالتفتت مي الى ذي الرمة ، فقالت : « ويحك ! خف عواقب الله » ، ثم أنشدتُ الى ان انتهيت الى قوله :

أذا نازعتكَ القولَ ميَّةُ ، أو بدا   لكَ الوجهُ منها ، أوْ نَضا الدِّرعَ سالبُه
فيا لك من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ   رخيمٍ ، ومن خَلْقٍ يعلّلُ جاذِبُه

فقالت تلك الظريفة : « أما القول ، فقد نازعتك ، والوجه فقد بدا لك. فمن لنا بأن ينضو الدرع سالبه » ؟ فقالت لها مي : « قاتلك الله ! ما انكر ما تجيئين به اليوم ». فتحادثنا ساعة، ثم قالت تلك الظريفة : « ما احوج هذين الى الخلوة ، فنهضت وسائر النساء ، فصرتُ الى بيت قريب منها حيث أراهما ، فما ارتبت بشيء ، ولا رأيت امرأً كرهته ، فلبث ساعة ، ثم أتاني ، ومعه قارورة وثلاث قلائد، فقال: «هذا طيب زوّدتناه مي، وقلائد اتحفتك بها ابنة الجودي».

فكنا نختلف اليها حتى انقضى المربع ، ودعانا الصيف ، فرحلوا قبلنا ، وأتاني ذو الرمّة فقال : « قد ظعنت مي ، فلم يبق إلا الديار ، والنظر الى الآثار ، فاخرج بنا الى (دارها) » ، فخرجتُ معه ، حتى اذا وقفنا عليها ، أنشأ يقول :

ألا فاسلمي يا دار مَيٍّ على البِلى   ولا زال مُنْهَلّاً بجرعائكِ القَطْرُ

حتى اتى على آخرها ، ثم انهملت عيناه بصبره . فقلت له : « ما هذا » ؟ فقال : « إني لجليد ، وان كان مني ما ترى » . فما رأيت احداً احسن شوقاً وصبابة وعزاء منه .

وعن سليمان ، راوية ابي نواس ، قال : كنت مع ابي نواس اسير حتى انتهينا الى درب القراطيس ، فخرج من الدرب شيخ نصراني ، وخلفَه غلامٌ كأنه غصن بانٍ يتثنى كأحسن ما رأيت ، فقال : « يا سليمان ، أما ترى الدرة خلف البصرة » ؟ ثم قال : « هل لك ان تأخذ مني رقعة فتوصلها اليه » ؟ قلت : « بلى » . فكتبها ، ودفعها إليّ ، فأوصلتها اليه ، فاذا املح غلام وأخفّه روحاً ، فقال : « من صاحب الرقعة » ؟ قلت : « ابو نواس » ، قال : « أين هو » ؟ قلت : « على باب درب القراطيس » . قال : « فليقف مكانه حتى أروح » ، وكان في الرقعة :

تَمُرُّ فأستحييك أن أتكلّما   ويُثنيكَ زَهوُ الحُسنِ عن أن تَسَلّما

ويهتزُّ في ثَوْبيكَ كُلُّ عشيَّةٍ قضيبٌ من الريحانِ أضحى مُنَعَّما !

فحسبُكَ أنَّ الجسمَ قد شفَّه الهوى وأنَّ جفوني فيك قد ذرفَتْ دَما

أليسَ عجيباً عند كلِّ مُوَحِّدٍ غزالٌ مسيحيٌّ يعذِّبُ مُسلِما

فلولا دخولُ النارِ بعد تنصُّرٍ عبدتُ مكان اللهِ عيسى بن مَرْيَما

وحدثنا الجماز ، قال : كنت يوماً على باب عدي الدراع ، فمرّ بي ابو نواس شبيهاً بالمجنون ، فاذا خلفه غلام كأنه مهر عربي ، فقلت له : « مالك » ؟ فقال :

إنَّ الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مثلُها عَوَزُ المكان وقد تهيّا المركَبُ

فعدلت به وبالغلام ، فأقاما سائر يومهما . قال : « وكان عبيد الله بن يحي يتعشق غلاماً من دار المتوكل ، يقال له (رشيق) ، فلا يصل اليه حتى طال ذلك عليه ، وكان ابو الاخطل يخلفه في المركب ، وينبسط اليه ، فقال له ابو عبيد الله يوماً : « يا أبا الاخطل من لي برشيق » ؟ فقال : « الصفر الصفار ، والبيض الصحاح » . وجعل عبيد الله يلقى رشيقاً في الدار ، فيخلو به ويسارّه ، ويعطيه مائـــة دينار في كل لقية ، الى ان علم رشيق بما في نفس عبيد الله ، وكان يتعذّر عليهما الاجتماع لقضاء الوطر واللذة ، فركب امير المؤمنين يوماً ، ومعه ابو الاخطل ، فطلب عبيد الله ، وتعمّد ابو الاخطل رشيقاً ، فردّه اليه ؛ فلما ظفر به في منزله خالياً ، قضى حاجته منه ، وركب يريد امير المؤمنين مسرعاً ، فوصل الى الموكب ، وقد تصبّب عرقاً ، فقال ابو الاخطل :

لا خـــيرَ عندي في الخليـ ـلِ ، ينامُ عن سهر الخليلِ

قولوا لأكـفرَ من رأيـ ـتُ لكلِّ معروفٍ جليلِ

هل تشكُرَنَّ لي الغـــدا ةَ تلطّفي لك في الرسولِ

إذ نحنُ في صيْدِ الجبــا لِ ، وأنتَ في صَيْدِ السُّهولِ

ما قيل فيه من الشعر :

وتمشَّيْتَ في الجميل فأسرعتَ وإن كُنتَ لستَ تأتي جميلا

إنَّ مَن مَدّ للقيادة رِجلاً لَحَريٌّ بأن يكونَ نبيلا

وقال آخر :

لَهــواهُ لإِتلافِ وَمَلاهُ لاختلافِ
ليسَ يقرا من كتاب الله إلَّا لإِيلافِ

وقال آخر :

إنَّ الرقاشيّ من تكرُّمِهِ بَلَغَهُ الله مُنتَهى هِمَمِه
يبلغ من برِّهِ ورأفتهِ حُملانُ أَضيافهِ على حُرَمِه

ومن محاسن ذلك ، حدثنا علي بن الحسين بن علي بن عثمان بن علي بن الحسن ، قال : كانت « ضمير » جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن علي بن زيد ؛ فأدّبتها ، وعلمتها الغناء فبرعت فيه ؛ وكانت من أحسن الناس وجهاً وبدناً ، وأبرعهم غناء وضرباً ، فأعطيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار ؛ فلما ارادت ان تبيعها ، وأحضر المال ، بكت وقالت : « يا سيدتي ، ربيتِني واتخذتني ولداً ، ثم تريدين بيعي ، فأتغرب عنك ولا ارى وجهك » ، قالت : « أشهد الله ومن حضر انك حرّة لوجه الله » ! فلما ماتت ميمونة ، خطبها آل أبي طالب وغيرهم ، فغلب عليها جعفر ابن حسن بن حسين ، فتزوجها وأحبها حباً شديداً ، فقدم بها البصرة ، فقال علي بن الحسين ، وكان يجالسها ويسمع غناءها ؛ فأردت الخروج الى الرضي بخراسان ، فودّعت جعفراً وخرجت ، فأقمت بالأهواز أياماً اتهيأ للخروج على طريق فارس ، فورد عليّ كتاب جعفر انه قد وقع بينه وبين « ضمير » شرّ ، وانها قد اغلظت له حتى تناولها ضرباً ، وانها على مفارقته ، وسألني القدوم لأصلح بينهما . فقال علي بن الحسين : وكانت لي حاجة بالرضيّ ، وكنت ارجو لذلك في وجهي منــه ومن المأمون الغنى ؛ فلما قرأت كتابه ، لم أعطَ صبراً حتى انصرفت راجعاً الى البصرة ، فجئت الى جعفر ، فأوقعت به شتماً وعذلاً ، ثم أرسلت اليها : أقسمت عليك بحقي ألا رجعت ؛ فخرجت مرهاء ، شعثة ، وسخة الثياب ، حتى جلست بينهما ، فأقبل جعفر يعطيني من نفسها لها كل ما اريد وهي ساكتة ، ثم قلت : «يا جارية ، هاتي العود» ؛ فأخذته ، فأصلحتُ منه حتى تغنّت وهي تبكي ، ودموعها تكف :

أَرتجي خالقي وأَعــلمُ حقاً أَنَّه ما يشاءُ ربِّي كفاني
لا تلُمني ، وارفق خليلي بشأني إنَّه ما عناكَ يوماً عناني

قال علي بن الحسين : فوالله ما رأيت احسن منها ، ولا أرقّ من غنائها بهذا الصوت ، فما برحت حتى اصطلحا ، وألهتني ، والله ، عن الغنى ؛ فأقمتُ بالبصرة .

وعن الكلبي ، قال : بينا عمر بن ابي ربيعة يطوف بالبيت في حال نسكه ، فاذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال، فألقى اليها كلاماً، فقال له عمر: « يا عدوّ الله، في بلد الله الحرام، وعند بيته تصنع هذا » ؟ فقال : « يا عماه ، انها ابنة عمي ، وأحبُّ الناس إليّ ، واني عندها لكذلك ، وما كان بيني وبينها من سوء قط اكثر مما رأيت » . قال : « ومن انت » ؟ قال : « أنا فلان بن فلان » ، قال : « أفلا تتزوجها » ؟ قال : « أبى عليّ ابوها » ، قال : « ولِمَ » ؟ قال : « يقول ليس لك مال » ، فقال : « انصرف ، والقَني » ، فلقيه بعد ذلك ، فدعا ببغلته فركبها ، ثم أتى عمّ الفتى في منزله ، فخرج اليه فرِحاً بمجيئه ، ورحب وقرب ، فقال : « ما حاجتك ، يا ابا الخطاب » ؟ قال : لم ارك منذ ايام فاشتقت اليك » ، قال : « فانزل » ، فأنزله وألطفه ، فقال له عمر في بعض حديثه : « اني رأيت ابن اخيك ، فأعجبني تحركه ، وما رأيت من جماله وشبابه » ، قال له : « اجل ! ما يغيب عنك افضل مما رأيت » ، قال : « فهل لك من ولد » ؟ قال : « لا ، إلا فلانة » . قال : « فما يمنعك ان تزوّجه إياها» ؟ قال : « انه لا مال له » قال : « فان لم يكن له مال ، فلك مال » ، قال : (فاني أضنّ به عنه) ، قال : (لكني لا أضنّ به عنه ، فزوجه واحتكم) ، قال : (مائة دينار) ، قال : (نعم) . فدفعها عنه ، وتزوجها الفتى ، وانصرف عمر الى منزله ، فقامت اليه جارية من جواريه ، فأخذت رداءه ، وألقى نفسه على فراشها وجعل يتقلب ؛ فأتته بطعام ، فلم يتعرّض له ، فقالت : (أظنك ، والله ، قد وجدت بعض ما كان يعرض لك من حكم النساء ، فلا تكتمها) ، فقال : (هاتي الدواة) ، فكتب :

تقولُ وليدتي لّمـــا رأتني طرِبتُ ، وكنت قد أقصرتُ حينا
أَراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً وهاجَ لكَ الهوى داءٌ دفينا
وكنتَ زعمتَ أنّك ذو عزاءٍ إذا ما شئتَ فارقتَ القرينا
بعيشِكَ هل أتاكَ لها رسولٌ يَسُرُّكَ أم لقيتَ لها خدينا
فقُلْت شَكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ كبعضِ زمانِنا إذ تعلمينا
وذو القلب المصابِ ولو تَعَزّى مَشوقٌ حين يلقى العاشقينا

فقَصَّ عليَّ ما يلقَى بهندٍ وأشبه ذاكَ ما كُنَّا لقينا
فكم من خُلَّةٍ أعرضتُ عنها وكنتُ بودِّها دهراً ضنينا
أردتُ فراقَها ، فصبرتُ عنها ولو جُنَّ الفؤادُ بها جُنونا [1]

قال : وقال عمر بن أبي ربيعة : بينا أنا خارج محرماً ، إذ أتتني جارية كأنها دمية في صفاء اللجين ، في ثوب قصب كقضيب على كثيب ، فسلمت عليّ ، وقالت : (أنت عمر بن أبي ربيعة ، فتى قريش وشاعرها) ؟ قلت : (أنا ، والله ، ذاك) . قالت : (فهل لك ان أريك أحسن الناس وجهاً) ؟ قلت : (ومن لي بذلك) ؟ قالت : (أنا والله بذلك ، على شريطة) ، قلت : (وما هي) ؟ قالت : (أعصبك وأربط عينيك واقودك ليلاً) ، قلت : (لك ذاك) .

قال : فاستخرجت معجراً من قصب عجرتني به ، وقادتني حتى أتت مضرباً ، فلما توسطته ، فتحت العجارة عن عيني ، فاذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرّر بحمرة مفروش بوَشي كوفي ، وفي المضرب ستارة مضروبة من الديباج الاحمر ، عليها تماثيل ذهب ، ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسناً وجمالاً ، فقامت كالخجلة ، وقعدت قبالتي ، وسلمت عليّ ، فخيّل لي ان الشمس تطلع من جبينها ، وتغرب في شقائق خدها ، قالت : (أنت عمر ابن أبي ربيعة ، فتى قريش وشاعرها) ؟ قلت : (أنا ذلك ، يا منتهى الجمال) قالت : أنت القائل :

بينا ينعتنني ، أبصرنــني دونَ قيدِ الميلِ ، يَعدو بي الأغرّ
قالت الكُبرى : أتعرفنَ الفتى ؟ قالت الوسطى : نعم ، هذا عُمَر
قالت الصُّغرى ، وقد تيَّمتُها : قد عرفناهُ ، وهل يخفى القمرْ ؟

قلت : (أنا ، والله ، قائلها يا سيّدتي) ، قالت : (ومن هـــؤلاء) ؟ قلت : (يا سيدتي ، ما هو عن قصد مني ، ولا في جارية بعينها ، ولكنني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء) قالت : (يا عدوّ الله ، يا فاضح الحرائر . أنت قد فشا شعرك بالحجاز ، وأنشده الخليفة والامراء ، ولم يكن في جارية بعينها ؟ يا جواري ، أخرجنه) . فخرجت الوصائف ،

---

١ — راجع اخبار عمر بن أبي ربيعة وأشعاره في ديوانه الذي قدمنا له — طبعة ١٩٦٨ .

فأخرجنني ، ودفعنني الى الجارية ، فعجرتني ، وقادتني الى مضربي ، فبت بليلة كانت اطول من سنة ، فلما أصبحت ، بقيت هائماً لا أعقلُ ما أصنع ، فما زلت أرقب الوقت ؛ فلما كان وقت المساء ، جاءتني الجارية ، وسلمت عليّ ، وقالت : (يا عمر هل رأيت ذلك الوجه) ! قلت : (أي والله) . قالت : (فتحب أن أريكه ثانية) ؟ قلت : (إذا تكرمت ، فتكونين أعظم الناس عليّ منه) فقالت : (على الشريطة) ؛ فاستخرجت المعجر ، وعجرتني وقادتني ، فلما توسطت المضرب ، فتحت العصابة ، عن وجهي ، فاذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدثر ببياض مفروش بفرش أرمني ، فقعدت على نمرقة من تلك النمارق ، فاذا أنا بالشمس الضاحية قد اقبلت من وراء الستر تمايل من غير سكر ، فقعدت كالحجلة ، فسلمت عليّ ، وقالت : (أنت عمر بن ابي ربيعة ، فتى قريش وشاعرها) ؟ قلت : (انا ذاك) قالت : انت القائل :

ونـاهدةُ الثّديين قلتُ لها : اتكّي ... على الرّملِ في ديمومةٍ لم توسّدِ

فقالت : على اسم الله أمرُكَ طاعةٌ ... وإن كنتُ قد كُلّفتُ ما لم أعوّدِ

فما زلتُ في ليلٍ طويلٍ ملثّماً ... لذيذَ رُضابِ المسكِ كالمتشهّدِ

فلّما دنا الإصباحُ قالت فضحتني ، ... فقُم غير مطرودٍ ، وإن شئت فازدَدِ

فما ازددتُ منها ، واتّشحتُ بمرطِها ... وقلتُ لعينيَّ: اسفَحا الدّمعَ من غَدِ

فقامَت تُعفّى بالرّداء مكانها ... وتطلبُ شذراً من جُمانٍ مُبدّدِ

قلت : (انا قائلها) . قالت : (فمن الناهدة الثديين) ؟ قلت : (يا سيدتي ، قد سبق في الليلة الاولى ؛ والله ، ما هو مني قصد ، ولا في جارية بعينها ، ولكني رجل شاعر أحب الغزل واقول في النساء) . قالت : (يا عدو الله ، انت قد فشا شعرك بالحجاز ، ورواه الخليفة ، وتزعم انه لم يكن في جارية بعينها ؟ يا جواري ، ادفعنه » . فوثبت الجواري ، فأخرجنني ودفعنني الى الجارية ، فعجرتني ، وقادتني الى مضربي ، فبتّ في ليلة كانت أطول من الليلة الاولى. فلما اصبحت ، أمرت بخلوق ، فضُرب لي ، وبقيت ارقب الوقت هائماً ؛ فلما كان وقت المساء ، جاءتني الجارية ، فسلمت عليّ وقالت: « يا عمر ! هل رأيت ذلك الوجه » ؟ قلت : « أي والله » ، قالت : « أفتحب ان أريكـــه الثالثة » ؟ قلت : « إذن تكونين اعظم الناس عليّ منـّة » . قالت : « على الشريطة » ؟ قلت : « نعم » . فاستخرجت المعجر ، وعجرتني به ، وقادتني حتى أتت بي المضرب ، فلما توسطته ، فتحت العصابة عن عيني ، فاذا انا في مضرب ديباج اخضر

مـــدثر بجمرة ، مفروش بخز احمر ، واذا أنا بالشمس الضاحية قد اقبلت من وراء الستر كحور الجنان ، فسلمت عليّ وقالت : « انت عمر بن ابي ربيعة ، فتى قريش ، وشاعرها » ؟ قلت : « أنا ذاك » ! قالت : انت القائل :

نعَبَ الغُرابُ ببَيْنِ ذاتِ الدُّملُجِ   ليتَ الغرابَ بِبَيْنِها لم يشحَجِ
ما زلتُ أتبعُهم وأتبعُ عيْسَهُم   حتّى دُفِعتُ الى ربيبَةِ هوَدجِ
قالت : وعيشِ أخي ، وحُرمةِ والدي   لأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إنْ لم تخرُجِ
فلثمتُ فاها آخـــذاً بقرونِها   شُربَ النَّزيفِ ببردِ ماء الحشرَجِ
فتناولَتْ كفِّي لتعرِفَ مَسَّها   بمُخضَّبِ الأطرافِ غير مشنَّجِ

قلت : « أنا قائلها » ، قالت : « يا عـــدو الله ، انت الذي فضحتها ونفسك ، وجهي من وجهك حرام ، إن عدت اليّ . يا جواري اخرجنه » ! فوثب اليّ الوصائف ، واخرجنني ، ودفعنني الى الجارية ، فمجرتني وقادتني ، وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق ، وأسدلت عليها ردائي ؛ فلما صرت الى باب مضربها ، اخرجت يدي ، ووضعتها على جانب المضرب وضعاً بيّناً ، فلمـــا اصبحت ، صحت بغلماني وعبيدي ، ولي ألف عبد : « من أتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا ، فهو حر لوجه الله » . فلما كان في وقت المساء، أتتني وليدة سوداء ، فقالت : « قد عرفت المضرب ، وهو لرملة اخت عبد الملك بن مروان » . فأعتقتها ، وأمرت لها بمائتي دينار ، وأمرت بمضربي ، فقـُلع ، وضرب بحذاء مضربها ، وكتب بالخـــبر الى عبد الملك بن مروان ، فكتب اليها بالرحيل ؛ فركبت هودجها ، وركبت فرسي ، فزاحمتها في بعض الطريق ، فأشرفت عليّ من هودجها ، فقالت : « اليك عني ، ايها الرجل » ! قلت : « خاتم او قميص اذكرك به » . فقالت لبعض جواريها : « القي اليه قميصاً من قمصي ». فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيكَ ما صوتُ الغواني   ولا شَربُ التي هي كالفصوصِ
أردتُ برحلتي وأريدُ خطّاً   ولا أكل الدَّجاجِ ، ولا الخَبيصِ
قميصٌ ما يُفارِقُني حياتي   أنيسٌ في المُقامِ وفي الشُّخوصِ

وجعلت انزل بنزولها ، واركب بركوبها ، حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل ؛ فاستقبلها عبـــد الملك في خاصته ، فدخل اليها ثم قال : « يا رملة ، ألم أنهَك ان تطوفي بالبيت إلا ليلاً ، يحفّك الجواري ، ويحفّ الجواري الخدم ، ويحفّ الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن ابي ربيعة » ؟ قالت : « والله ، وحياة أمير المؤمنين، ما رآني ساعة قط » ، فخرج من عندها ، فبصر بمضربي، فقال : « لمن المضرب » ؟ قيل : « لعمر بن ابي ربيعة » . قال : عليّ به » . فأتيته بلا رداء ، ولا حذاء ، فدخلت عليه وسلمت عليه ؛ قال : « يا عمر ، ما حملك على الخروج من الحجاز من غير إذني » ؟ قلت : « شوقاً اليك ، يا امير المؤمنين ، وصبابة الى رؤيتك » . فأطرق ملياً ، ينكت في الارض بيده ، ثم رفع رأسه فقال : « يا عمر ، هل لك في واحدة » ؟ قلت : « وما هي ، يا أمير المؤمنين » ؟ قال : « رملة ، أزوّجكها » ، قلت : « يا امير المؤمنين ، وان هذا لكائن » ، قال : « أي ، ورب السماء » ، ثم قال : « قد زوجتك ، فادخل عليها من غير ان تعلم » ، فدخلت عليها ، فقالت : « من انت ؟ هبلتك امك » . فقلت : « يا سيدتي ، انا المعذب في الثلاث » ، فارتحلت وانا عديلها ، فأنشأت اقول :

لعمري ، لقد نلتُ الذي كنتُ أرتجي   وأصبحتُ لا أخشى الذي كنتُ احذَرُ
فليس كمثلي اليومَ كِسرَى وهُرمُزٌ   ولا المِلكُ النُّعمانُ مثلي ، وقيصَرُ

فلم أزل معها بأحسن عيشة وغبطة .

الدبيب : قال الاصمعي : « أخبرني رجل من بني أسد أنه خرج في طلب ابل قد ضلّت ؛ فبينا هو يسير في بلاء وتعب ، وقد أمسى في عشية باردة ، اذ رفعت له أعلام ، قال : فقصدت بيتاً منها ، فاذا أنا بامرأة جميلة ذات جزالة ، فسلمت فردت عليّ السلام ، ثم قالت : أدخل ، فدخلت ، فبسطت لي ، ومهدت ، واذا في حجرها صبي أطيب ما يكون من الولدان . فبينا هي تقبّله ، اذ أقبل رجل امام الابـــل ، دميم المنظر ، ضئيل الجسم ، كأنه بعرةٌ دمامةً واحتقاراً ، فلما بصُر به الصبيّ ، هشّ اليه وعدا في تلقائه ، فاحتمله وجعل يقبّله ويفديه ، فقلت في نفسي : أظنه عبداً لها . فجاءني ووقف بباب الخيمة وسلّم ، فرددتُ عليه السلام ؛ فقال : « مَن ضيفكم هذا » ؟ فأخبرته ، فجلس الى جانبها ، وجعل يداعبها ، فطفقت أنظر اليها تارة ، واليه أخرى ، أتعجّب من اختلافهما ، كأنها الشمس حسناً ، وكأنه القرد قبحاً ، ففطن لنظري ، وقال : « يا أخا بني أسدٍ ، أترى عجباً» ؟ قال : «تقول أحسن الناس وجهاً ، وأقبح الناس وجهاً ، فليت شعري كيف جمع بينهما ؟ أخبرك كيف كان ذلك » ؟ !

قلت : « ما أحوجني الى ذلـــك » ! قال : « كنت سابع اخوتي كلهم ، لو رأيتني معهم ظننتني عبداً لهم ، وكان أبي واخوتي كلهم أصحاب إبل وخيل ، وكنت من بينهم مطروحاً لكل عمل دنيء ، للعبودية تارة ، ولرعي الإبل أخرى ؛ فبينا انا ذات يوم تعِبٌ مكتئبٌ ، إذ ضل لنا بعير ، فتوجّه اخوتي كلهم في بغائه ، فلم يقدروا عليه ، فأتوا أبي وقالوا : « ابعث فلاناً ينشد لنا هذا البعير » ، فدعاني أبي وقال : « اخرج فانشد هذا البعير » . فقلت : « والله ما أنصفتني ولا بنوك . أما اذا الابل درّت ألبانها ، وطارت ركوبها ، فأنتم جماعة أهل البيت أربابها ، واذا ندّت ضلالها فأنا باغيها » . فقال : « قم ، يا لكع ، فاني أراه آخر يومك » .

فغدوت مقهوراً ، خَلِقَ الثياب ، حتى أتيت بلاداً لا أنيس بها ، فطفقت يومي ذلـــك أجول في القفر ؛ فلما أمسيت ، رفعت لي أبيات ، فقصدت أعظم بيت منها ، فاذا امرأة جميلة مخيلة للسؤدد والجزالة ، فبدأتني بالتحية وقالت : « انزل عن الفرس ، وأرح نفسك » . فأتتني بعشاء ، فتعشيت ، وأقبلت هذه تسخر مني وتقول : « ما رأيت كالعشية أطيب ريحاً منك ، ولا أنظف ثوباً ، ولا أجمل وجهاً » .

فقلت : « يا هذه دعيني وما أنا فيه ، فاني عنك في شغل شاغل » ، فأبت عليّ وقالت : « هل لك ان تلج على السجف إذا نام الناس » ؟ فأغراني — والله — الشيطان ؛ فلما شبعت من القرى ، وجاء أبوها واخوتها ، فضجعوا امام الخيمة ، قمت ووكزته برجلي . قالت : « ومَن أنت » ؟ قلت : « الضيف » . قالت : « لا حيّاك الله ، أخرج ، عليك لعنة الله » ؛ فعلمت أني لست في شيء من أمرها ؛ فولّيت راجعاً ، فواثبني كلب كأنه السبع لا يُطاق ، فأراد أكلي ، فأنشب أنيابه في مدرعة صوف كانت عليّ ، وجعل يمزّقني ، فردّني القهقرى ، وتعذّر عليّ الخلاص ، فأهويت انا والكلب من قبل عقبي في بئر أحسن الله إليّ انه لا ماء فيها ؛ فلما سمعت المرأة الواغية ، أتت بحبلٍ فأدلته ، وقالت : « إرتقِ ، لعنك الله ؛ فوالله لولا أنه يُقتصُ أثري غداً ، لوددت انها قبرك » .

فاعتنقت الحبل ، فلما كدت ان اتناول يدها ، قضي أن تهور ما تحت قدميها ، فاذا انا ، وهي ، والكلب في قرارة البئر ؛ بئر أيما بئر ؟ انما هي حفرة لا طيّ لها ، ولا مرقاة ، كأشد بليّة بنا عضناً : الكلب ينبح من ناحية ، وهي تدعي بالويل والثبور من ناحية ، وأنا منقبع قد برد جلدي على القتل من ناحية .

فلما أصبحت أمها ، فقدتها ، فلما لم ترَها ، أتت أباها ، فقالت : « يا شيخ ، أتعلم ان ابنتك

ليس لها أو يحسّ » ؟ وكان أبوها عالماً بالآثار ، تابعاً لها ، فلمـــا وقف على شفير البئر ، ولـّى راجعاً ، فقال لولده : « يا بنيّ ! أتعلمون ان أختكم وضيفكم وكلبكم في البئر » ؟ فبادروا كالسباع ، فمن بين آخذٍ حجراً ، وآخذٍ سيفاً او عصاً ، وهم يومئذٍ يريدون ان يجعلوا البئر قبري وقبرها ؛ فلما وقفوا على شفير البئر ، قال أبوهم : « ان قتلتم هذا الرجل ، طولبتم بدمه ، وإن تركتموه افتضحتم . وقد رأيت أن أزوّجها إياه ، فوالله ما يقدح لها في نسب ولا في حسب » . ثم قال لي : « أفيك خيراً » ؟ فلما شممت روح الحياة ، وثاب إليّ عقلي ، قلت : « وهل الخير كله إلا فيّ ؟ فهات اختكم » . فقال : « مائة بكرة وبكرة ، وجارية وعبد » ، فقلت : « لك ذلك ، وان شئت فازدد » .

فأخرِجْتُ أولاً ، والكلب ثانياً ، وأخرِجَتْ ثالثاً ، فأتيت أبي ، فقال : « لا أفلحت ، فأين البعير » ؟ قلت : « أربع عليك ، أيها الشيخ ، فانه كان من القصة كيت وكيت » قال : « أفعل ، والله ، ولا أخذلك » . فدعا بالإبل ، فعدّ منها مائة بكرة وبكرة ، وسقناها مع جارية وعبد وأخذت منه هذه غرّة نفسها .

قال : « والله كذلك ، وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها ، وربما قالت : « لا أطاب الله خبرك » .

وضده ، قال : وقيل لخراش الأعرابي : حدثنا ببعض هناتك . قال خرجت في بغاء ذود لي ، فدفعت في عشيّة شاتية الى أخبية كثيرة ، فضافوا وحيوا ورحبوا ، فلما ادرت النوم ، أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها ، وجعلوني مكانها لئلا أتأذى بالغنم .

وإني لمضطجع ، إذا أنا بيد انسانٍ يحامشني ، ويريد في الظلمة مؤاتاتي ؛ فقعدت ، فاذا أنا برجل يمد يده ، ومعه علبة فيها أرنب مشوية ، فأخذتها وجعلتها في شيء كان معي . ثم مد يده ثانياً ، فناولته يدي ، فأقتبضني على غرمول كمثل الوتد ، فلم أنفر منه ، ولم أره وحشة ؛ وجررت ما عندي ، وتناولت يده ، فأقبضته على مثل ما أقبضني عليه ، ففطن ، ورمى بملحفة خزّ كانت عليه ، ووثب مذعوراً ، فنفرت الابل ، وهاجت الغنم ، وكدت أغشى لما بي من الضحك ، وأخفيت ما بي وكتمته .

فلما أصبحت ، ركبت راحلتي ، ومعي الملحفة والعلبة والارنب . امتد الضحى ، إذا أنا بإبل فأخذت نحوها ، فاذا شابٌ حسن الهيئة ؛ فسلمت عليه ، فردّ السلام ثم قال : « إن كان

معك ما نأكل مصب من هذا الوطب » . فأخرجت العلبة ، فلما رآها عرفها ، وقال :

« انك هو » ؟ قلت : « وما هو » ؟ قال : « صاحب البارحة » ؟ قلت : « نعم ، ان كنت إياه » قال : « الحمد لله الذي أتى بك ، لو لم تأت لظننت أني أوسوس وذلك أني لصاحبة الستر عاشق ؛ وتعلم ما فعلتُ ومـــا فعلتَ البارحة ، ولا تطيّقت حتى ابتلاني الله بك البارحة ، وجعلت أقول حين أقبضتني عليه : أتراها تحولت رجلاً ؟ وإني لفي شك من أمري حتى أتاني الله بك » . فأكلت أنا وهو ، الارنب ، وشربنا من اللبن ، وصرنا أصدقاء .

قال الاصمعي : أتى خالد بن عبدالله أعرابي ، فأضافه وأحسن اليه وبذل له صحن الدار ؛ فلما كان في بعض الليل ، أشرف عليه يتعاهد منه ما كان يتعاهد من ضيفه ، فاذا هو قد دب على جارية ، وهو على بطنها ، فأعرض عنه ؛ فما لبث الاعرابي أن فرغ وقام يمسح فيشلته ، فضربته عقرب ، فصاح واستغاث ، وأشرف خالد عليه وهو يقول :

وداري إذا نامَ سكانُها تُقيمُ الحدودَ بها العقربُ
إذا غفل الناسُ عن دينهم فإنَّ عقاربنا تغضَبُ !!

قال : وكان أعرابي ضيفاً لقومٍ ، فنظر الى جارية جميلة ، فدب اليها ، فاذا عجوز في صحن الدار تصلي ، فعاد الى فراشه ، ثم عاودها فنبح الكلب ، ثم عاد اليها ، فأذا القمر قد طلع ، فأنشأ يقول :

لم يَخلُقِ اللهُ خلقاً كنتُ أكرَهُهُ إلّا العجوزَ وعينَ الكلبِ والقمرِ
هذا يصيحُ وهذا يُستضاءُ به وهذه شيخةٌ قوَّامَةُ السَّحَرِ

وقال : وشرب سعيد بن حميد البصري عند راشد ، فدب على غلامه ، فكتب اليه سعيد :

مـا سَمِعنا من قَبلِها بأديبٍ بارعِ الظَّرفِ ، ماجدٍ ، قمقامِ
ضلَّ عنه ، وهو المهذَّبُ علماً فتكاتُ الكؤوسِ بالأحلامِ
أين ما جاء من حديثِ رسولِ الـ ـلهِ مولايَ سيّدِ الأحكامِ
ما على مُثقِلٍ من النومِ، والسكـ ـرانِ عيبٌ فيما أتى من أثامِ

ثم أينَ الذي به حكَم المأ مونُ في الظرفِ منه، والاسلامِ
أيّما ماجــدٍ أرادَ سروراً باجتماعٍ من معشَر النُدّامِ ،
فعليهِ طيُّ البساطِ بما قــد سنَّهُ السُّكْرُ من قبيحٍ وذامِ
حُلتَ بيني وبين عقلي بأرطا لِكَ ، والمُترَعاتِ من كلِّ جامِ
ثمَّ وكَّلتَ في العُسوفِ رشيقاً فسقاني بظَرفِهِ والمُــدامِ ،
ثمَّ باكرتَني بعَتْبِــكَ واللّوْ مِ، لقد حدتَ عن سبيلِ الكِرامِ
وتغضَّبْتَ أنَّني قُدتُ عَمْراً ثمَّ ثنَّيْتُ ، بعدَهُ ، بغرامِ
هل رأيتَ الإله يأخذُ مجنو ناً بِسُكْرٍ ، أو حالماً في مَنامِ
لن تراني معاشراً لك ما عشْ تَ، ولو دُمتَ عائشاً ألفَ عامِ
أو تُرى تائباً ، وتستغفِرِ اللّٰ هَ ، لما كانَ من شنيعِ الكلامِ

فأجابه راشد ، فقال :

يا أبا جعفرٍ ، سليلَ المعالي ونجيبَ الأخوالِ والأعمامِ
إن يكُن قد أتاكَ عني مزحٌ لم يكُنْ عن حقيقةٍ في الكلامِ
أو أكُنْ فيه كالذي كان يغدو بَملامٍ عليــكَ في اللُّوّامِ
إنّني عــالِمٌ بأنَّــكَ لم تأْ تِ قبيحاً ولا ارتكابَ الأثامِ
هو ذنبُ المُدامِ لا ذنبُ خِلٍّ لم يَزَلْ حافظاً لعهدِ الذِّمامِ
ثم ذَنْبُ العيونِ يابنَ حُمَيْدٍ فَلَهُ الذنبُ بعد إِسْتِ غَرامِ
قَعدا في طريقِ أيرك حتّى عرّضــاهُ للظَّنِّ والاتّهامِ
فتغمَّدْ أخاكَ بالصفح فالصفْ حُ دليلٌ على سجايا الكرامِ
إنَّني تائبٌ واستــغفرُ اللّٰ هَ لما كانَ من شنيعِ الكلامِ

ما قيل في ذلك من الشعر :

فما أعينٌ عَشرٌ على ساقِ نَرجسٍ ... تُضاحِكُ عينَ الشّمسِ بالُمقَلِ الصفرِ
بأحسَنَ ممّنْ زارني بعد هَجْعَةٍ ... يَميسُ هُوَيْنا في الظّلامِ على ذُعرِ

قال : ودبّ رجل على قينةٍ في مجلسٍ ، فغنّت :

مـــاذا يشوّشُ طُرّتي ... يا قومُ في وقت السَّحَرْ
مـــاذا يُعالجُ تَكّتي ... وَيلاهُ عَـــذّبني السَّهَرُ

وقال علي بن حمزة :

متورِّدُ الخــدّينِ من خَجَلٍ ... مُتخاذِلُ الأعضـــاءِ من كسَلِ
خاضَ الدُّجى ، والشّوقُ يحمِلهُ ... وأتاكَ يمشي غـــيرَ مُنتَعِلِ
مـــا راعني إلّا تَدافُعُه ... كالغُصنِ بين الصدرِ والكَفَلِ

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

قالت ، وأبثَثْتُها سرّي وبُحْتُ به : ... « قد كُنتَ عندي تُحِبُّ السِّترَ، فاستتِرِ
ألستَ تُبصِرُ مَن حولي ؟ » فقلت لها : ... « غطى هواكِ، وما ألقى، على بصري»

الباه : حكي عن عالج ، جارية مكشوح، أنها حدّثت مولاتها أنها كانت تغتسل كل يوم . فسألتها عن ذلك ، فقالت : « يا هذه ! إنه يجب على المرأة ما يجب على الرجل بعد احتلامه » . قالت : « او تحتلمين » ؟ قالت : « إنه لا تأتي عليّ ليلة لا أجامع فيها إلا وأحتلم » . قالت : « فكيف يكون ذلك » ؟ قالت : « أرى كأن رجلاً يجامعني . ولقد رأيت ليلة كأني مررت بدكان أبي مالك الطحان وبغل له واقف قد أدلى ، ورماني تحته ، وأولجه ، فاحتلمت ؛ ثم انتبهت ، وأنا اجد معكة في مراق بطني ، ولذة في سويداء قلبي . وكان هذا البغل إذ أدلى ، حك الارض برأس أيره ، وضرب به في بطنه ، فترى الغبار يتطاير عن يمينه وشماله » .

قال : وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول : « ما في بطن الرجل بضعة أحب الى المرأة

من بضمة تُناط بعقد الحـــالبين ، ومنفرج الرجلين » . حدثني جهم قال . قلت لامرأة من كلب : « ما احب الاشياء من الرجال الى النساء » ؟ قالت : « ما يكثر الاعداد ، ويزيد في الاولاد ، حربة في غلاف تناط بحقوي رجل جاف ، اذا غامس أوهى ، واذا جامع أنجى » .

قال : وقال أبو ثمامة لامرأة من زبيد ، وهي تبكي عند قبر من الميت : (لم تبكين)[1] ؟ قالت : كان يجمع بين حاجبي والساق ، ويهزّني هــــزّ الصارم الاعناق ، والله لو لا ما ذكرته لك ، ما استهلت بالدموع عيناي ، وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك » . قال : وركب الرشيد حماراً مصرياً ، وطاف على جواريه ، فقالت له واحدة : « يا مولاي ، ما أكثر ما تركب هذا الحمار » ! قال : « لأنه يسب طيفور » ، قالت : « فمن يسب طيفور يُركب » ؟ قال : نعم . قالت : « ففي حرّ أمّ طيفور » . قال : فنزل ووقعها . وأنشد في مثله :

نظرتُ إليها حـــينَ مرَّت كأنَّها على ظهر عـــاديٍّ فتاةٌ من الجنِّ
ولي نَظَرٌ لو كان يُحبِــلُ ، ناظرٌ بنظرتهِ أنثى ، لقـــد حَبِلَتْ منّي

العنين : قال بعضهم : تزوج العجاج امرأة يقال لها الدهناء بنت مسحل ، فلم يقدر عليها ، فشكت ذلك الى اهلها ، فسألوه فِراقها ، فأبى ، وقال لأبيها : « تطلب لابنتك الباه » ؟ قال : « نعم ، عسى ان ترزق ولداً ، فان مات كان فرطاً ، وان عاش كان قرّة عين » . فقدموه الى السلطان ، فأجله شهراً ثم قال :

قـــد ظنّت الدّهنا وظنّ مسحَلُ أنّ الأمـــيرُ بالقضاء يُعجِــلُ
عن كَسَلاتي والحصانُ يَكْسَلُ عن السِّفادِ وهو طِرفٌ هيكَلُ

ثم اقبل على امرأته ، فضمها الى صدره ، فقالت :

تَنـــحّ لن تملِكَني بضَمّ ولا بتقبيـــلِ ولا بشَمّ

---

١ ــ أضفنا هذه العبارة لاتساق المعنى .

إلّا بزعـزاعٍ يُسَـلّي همّي   يسقطُ منـه فتحي في كمّي
يطـيرُ منـه حَزَني وغَمّي

(وروى) ابن ابي الدنيا ان اعرابياً اخبره ان امرأة منهم زُفت الى رجل ، فعجز عنها ، فتذاكر الحيّ أمر الضعفاء من الازواج عن الباه ، وامرأة الاعرابي تسمع . فتكلمت بكلام ليس في الارض اعفّ منه ، ولا أدلّ على عجز الرجل عن النساء ، فقالت متمثلة :

تبيتُ المطايا حائداتٍ عن الهُدى   إذا ما المطايا لم تجِدْ مَن يُقيمُها

قال الرقاشي : حدثني ابو عبيدة ، قال : سمعت ناساً من الحجاز يقولون : تزوج رجل منا امرأة ، فعجز عنها ، إلا انه اذا لامسها ، ابتأر فيها ، فقضي ان حملت ، وما مكثت الا ان رأس ولدها ، فجلس في المجلس ، فقال له قائل : « لقد جئت من بلل قليل » ، قال : « جئت من بلل لو اصاب مغيض أمك لكان كما قال الشاعر :

رطبُ الطباع إذا حرّكتَ جوهَرَهُ   وجدتَ أعضاءهُ غرقى من البلَلِ
ولم أهجّنْـهُ إلّا أنّه رجـلٌ   قَلّتْ سلامتُه من جانبِ الكَفَلِ

قال الهلالي : رأيت وافر بن عصام يساير المهدي ، فحدثه بحديث فضحك ، فقلت له : « مـا لهنّ عندي إلا حديث ابن حرم » ، قال : « وما حديثه » ؟ قلت : « عمر حتى بلغ الثمانين ، فتزوج ابنة عم له ، فلما أهديت اليه ، قعد بين شقيها ، فأكسل ، وأراق على بطنها ، فأقبل عليها كالمعتذر ، فقال : « هذا خير من الزناء » ، قالت : « كل ذلك لا خير فيه » .

قال : وشكت امرأة زوجها ، وأخبرت عن عجزه انه اذا سقط عليها انطبق ، والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن ، فقالت : « زوجي عياياء ، طباقاء ، وكل داء له دواء » .
وقيل في ذلك :

جـزاكَ اللهُ شرّاً من رفيـقٍ   إذ بُلّغتَ من رَكْبِ النّساء
رَماكَ اللهُ من عِرقٍ بأفعى   ولا عافاكَ من جَهْـدِ البلاء

أَجُبْناً في الكريهة حين تَلقى   ونَفْطاً حين تغبرُ في الخلاء ؟!

النيروز والمهرجان : قال الكسروي : « كان اول من أبدع النيروز ، وأسس منازل الملوك ، وشيد معالم السلطان ، واستخرج الفضة والذهب والمعدن ، واتخذ من الحديد آلات ، وذلل الخيل وسائر الدواب ، واستخرج الدرّ وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب ، وبنى القصور واتخذ المصانع ، وأجرى الانهار « كياخسرو بن أبرويز جهان » وتفسيره : حافظ الدنيا بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وكان الأصل فيه انه ، في النيروز ، ملك الدنيا ، وعمر أقاليم ايران شهر ، وهي ارض بابل ، فيكون النيروز في أول ما اجتمع ملكه ، واستوت أسبابه ، فصارت سنة ، وكان في ملكه الف سنة وخمسين سنة ، ثم قتله البيوراسف ، وملك بعده ألف سنة الى افريدون بن أثفيان ، وفيه يقول حبيب :

وكأنَّهُ الضحَّاكُ في فتكاتِهِ   بالعالَمِينَ ، وأنت أفْريدُونَ

فطلب البيوراسف ، وملك بعده ألف سنة وخمسين سنة ، وأسره بأرض المغرب ، وكبّله وسجنه بجبل دنياوند ، واستوفى عدة ما كتب الله له من عمره ، واتفق لأفريدون سجن البيوراسف يوم النصف من مهرماه ومهرروز ، فسمى ذلك اليوم « المهرجان » ؛ فالنيروز لجم ، والمهرجان لافريدون . والنيروز أقدم من المهرجان بألفي وخمسين سنة . وقسم « جمه » أيام الشهر ، وجعل الخمسة الايام الاولى للأشراف ، وبعد خمسة أيام نيروز الملك ، يَهَبُ فيها ويصل ، ثم بعدها خمسة أيام لخدم الملك ، وخمسة أيام لخواص الملك ، وخمسة أيام لجنده ، وبعدها خمسة أيام للرعاع ، فذلك ثلاثون يوماً . وابتدع المهرجان أفريدون لما أسر البيوراسف روزمهر ، وكان الملك اذا لبس زينته ، ولزم مجلسه في هذين اليومين ، أتاه رجل رضيّ الإسم ، مختبَرٌ باليمن ، طلق الوجه ، ذلق اللسان ، فيقوم قبالة الملك ، ويقول : « ائذن لي بالدخول » فيسأله : « مَن أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وأين تريد ؟ ومَن سار بك ؟ ومع مَن قدمت ؟ وما الذي معك » ؟ فيقول : « جئت من عند الأيمنين ، وأريد الأسعدين ، وسار بي كل منصور ، واسمي خجسته ، أقبلت معي السنة الجديدة ، وأوردت الى الملك بشارة ، وسلاماً ، ورسالة » . فيقول الملك : « ائذنوا له » ، فيقول له الملك : « ادخل » ، ويضع بين يديه كوباً من فضة ، قد جمع في نواحيه أرغفة قد خبزت من انواع الحبوب من البرّ والشعير والدخن والذرة والحمص والعدس والأرز والسمسم والباقلى واللوبيا ، وجمع من كل صنف من هذه الحبوب سبع حبّات ، فجعل في جوانب الخوان ، ووضع في وسطه سبعة من قضبان الشجر التي يتفاءل بها وباسمها ،

ويتبرّك بالنظر اليها كالخلاف والزيتون والسفرجل والرمان ، منها ما يقطع على عقدة ، ومنها على عقدتين ، ومنها على ثلاثة ، ويُجعل كل قضيب باسم كورة من الكور ، ويكتب في مواضع « ابزود وابزائد وابزون وبروار وفراخى وفراهيه » تأويله « زاد ويزيد وزيادة ورزق وفرح وسعة » ، ويوضع سبع سكرجات بيض ، ودراهم بيض من ضرب سنته ، ودينار جديد ، وضغث من أسبند ، ويتناول ذلك كله ، ويدعو له بالخلود ودوام الملك والسعادة والعزّ ، ولا يؤامر يومه في شيء ، اشفاقاً من ان يبدو منه ما يكره ، فيجرى على سنته ، وكان اول ما يقدم اليه صينية ذهب او فضة ، عليها سكر ابيض ، وجوز هندي مقشّر رطب ، وجامات فضة او ذهب ، ويبتديء باللبن الحليب الطري منه ، قد أنقع فيه تمر طري ، فيتناول بالنارجيل تميرات ، ويُتحف من أحب منه ، ويذوق ما أحب من الحلوى ، وكان يرفع في كل يوم من أيام النيروز باز ابيض ، وكان ممن يتيمّن بابتدائه في هذا اليوم ، لقمة من اللبن الصرف الطري والجبن الطري ، وكان جميع ملوك فارس يتبركون بذلك ، وكان يسرق له في كل يوم نيروز ماء في جرة من حديد او فضة ، ويقول : « استرق هذا الاسعدين ، ويتحمل الأيمنين » ، وجعل في عنق الجرة قلادة من يواقيت خضر منظمة في سلك الذهب ممدود ، فيها خرز من زبرجد أخضر ، ولم يكن يسرق ذلك الماء إلا الأبكار من أسافل دارات الارحاء ، وصنائع الغنى ، فكان متى اجتمع النيروز في يوم السبت ، أمر الملك لرأس الجالوت بأربعة آلاف درهم ، ولم يعرف له سبب اكثر من ان السنة جرت منهم بذلك ، فصارت كالجزية ، فكان يبنى قبل النيروز بخمسة وعشرين يوماً ، في صحن دار الملك ، اثنتا عشرة اسطوانة من لبن ، تزرع اسطوانة منها برّاً ، واسطوانة شعيراً ، وأخرى أرزاً ، وأخرى عدساً ، وأخرى باقلى ، وأخرى دخناً ، وأخرى ذرة ، وأخرى لوبياء ، وأخرى حمصاً ، وأخرى سمسماً ، وأخرى ماشاً ؛ ولم يكن يحصد ذلك إلا بغناء وترنّم ولهو .

وكان يوم السادس من يوم النيروز ، واذا حصد بثر في المجلس ، ولم يكسر الى روز مهر من ماه فرور دين ، وانما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها ، ويقال : أجودها نباتاً ، واشدها استواءً ، دليل على جودة نبات ما زرع منها في تلك السنة . فكان الملك يتبرّك بالنظر الى نبات الشعير خاصة ، وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوساً وخمس نشّابات ، ويناول الملك قيمه على دار المملكة أترجه ، فكان فيما يغني بين يدي الملك ، غناء المخاطبة ، وأغاني الربيع ، وأغاني يذكر فيها ابناء الجبابرة ، وتوصف الأنواء ، وأغاني أفرين ، والخسرواني ، والماذراستاني ، والفهليد .

وكان اكثر ما يغني العجم ، الفهليد مع أيام كسرى أبرويز ، وكان من أهل مرو ، وكان

من أغانيه مديح الملك ، وذكر أيامه ومجالسه وفتوحه ، وذلك بمنزلة الشعر في كلام العرب ، يصوغ له الالحان ، ولا يمضي يوم إلا وله فيه شعر جديد ، وضربٌ بديع .

وكان يذكر الاغاني التي يستعطف بها الملك ، ويستميحه لمرازبته وقواده ، ويستشفع لمذنب ، وان حدثت حادثة ، او ورد خبره كرهوا انهاءه اليه ، قال فيه شعراً ، وصاغ له لحناً ، كما كان فعل حين نفق مركوبه شبديز ، ولم يجسروا على انهاء ذلك ، فغنّى بها وذكر انه ممدود في آريّة ، مادٌ قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك ، فقال الملك : « هذا قد نفق إذن » . قال : « انت قلت ذلك أيها الملك » ، وكان يضطره بأشعاره ان يتكلم بالذي يكره عمّا له ان يستقبلوه به .

العلة في صب الماء : ذكروا أن العلة في صبّ الماء ، أنه كان اول من تكلم في المهد ، قبل المسيح ، زو بن طهماسب ، وكان مات ابوه على قحط شديد قد شمل الأقاليم ، فتكلم ، ودعا الله تبارك وتعالى ، فسقي الناس الغيث ، وأخصبت أرضهم ، وعاشت مواشيهم ، فجعلوا صب الماء فيه سنة .

وقد حكي ايضاً عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ، عليهم السلام ، انه قال في ذلك : ان أناساً من بني اسرائيل اصابهم الطاعون ، فخرجوا من مدينتهم هاربين الى ارض العراق ، فبلغ كسرى خبرهم ، فأمر ان تبنى لهم حظيرة يجعلون فيها ، لترجع انفسهم إليهم ؛ فلما صاروا في الحظيرة ماتوا ، وكانوا أربعة آلاف نفس .

ثم ان الله تعالى أوحى الى بني ذلك الزمان : « ان رأيت محاربة بلاد كذا ، فحاربهم ببني فلان » . فقال : « يا رب ، كيف أحاربهم ، وقد ماتوا » ؟ فأوحى الله اليه : إني أحييهم لتحارب بهم ، وتظفر بعدوّك ، فأمطر الله عز وجل ليلة صب الماء ، فأصبحوا أحياء ، فهم الذين قال الله تعالى فيهم :

« أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ خَرَجوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » .

قال : « هؤلاء قوم أصابتهم محنة من الأزل ، قحطوا زماناً فهزلوا ، وأجدب بلدهم ، فغيثوا في هذا اليوم برشّة من مطر ، فعاشوا وأخصبت بلادهم ، فجعله الفُرس سنّة .

صفة الايام : قال كسرى : « يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للهـــو

والشراب ». وقال غيره: «يوم السبت يوم مكر وخديعة، والاحد يوم غرس وبناء، ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق، والثلاثاء يوم حجامة، والاربعاء يوم ضنك ونحس، والخميس يوم الحج، والجمعة يوم مسجد ونساء وكساء.

في البرد: سُئل بعض الحكماء عن البرد، أيه أشد؟ فقال: «إذا أصبحت السماء نقية، والارض نديّة، والريح شاميّة».

محاسن الهدايا

قال: وكتب الناس في الهدايا، فأكثروا من الكلام المنثور، والشعر الموزون، وكلٌّ يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه، حتى قالوا: انها قرابة وصلة كالرحم الماسة، والقرابة القريبة، وكلحمة النسب؛ وأكثروا من الشفيع، لقول رسول الله ﷺ: «تهادوا وتحابوا»، وقيل: «الهدية تفتح الباب المصمت، وتسلّ سخيمة القلب». وروي عن عائشة أنها قالت: «اللطفة عطفة، وتزرع في القلوب المحبة». قال: كان رسول الله، ﷺ، يقبل الهدية، ويثيب عليها ما هو خير منها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أهدي إليّ ذراع لقبلت، ولو دعيت الى كراع لأجبت». وقال عليه الصلاة والسلام: «الهدية رزق من الله عز وجل، فمن أُهدي اليه شيء فليقبله». وقال ﷺ: «نعم الشيء الهـــدية أمام الحاجة، ما أرضي الغضبان، ولا استعطف ولا استميل الهاجر، ولا توقـّي المحذور بمثل الهدية والبر».

وقال الله عز وجل:

«وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ، فَلَمَّا جَـــاءَ سُلَيْمانُ قَالَ: أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَـــا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ».

وروي أن عامـــلاً لعليّ، رضي الله عنه، قدم من بعض الاطراف، فأهدى الى الحسن والحسين، سلام الله عليهما، ولم يهد الى ابن الحنفية، فقال متمثلاً:

وما شرُّ الثلاثةِ، أمَّ عمروٍ بصاحبك الذي لا تَصحبينا

فأهدى العامل اليه كما أهدى الى أخويه .

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، أن قوماً من الدهاقين أهدوا اليه جامات فضة ، فيها الاخبصة ، فقال : « ما هذا » ؟ فقالوا : « يوم نيروز » ! فقال : « نيروزُنا كل يوم » ، فأكل الخبيص ، وأطعم جلساءه ، وقسم الجامات بين المسلمين ، وحسبها لهم في خراجهم .
وقيل : « إن جلساء المهدي اليه شركاؤه في الهدية ، والهدية ، تجلب المودة ، وتزرع المحبة ، وتنفي الضغينة ؛ وتركها يورث الوحشة ، ويدعو الى القطيعة . والهدية تصيّر البعيد قريباً ، والعدوّ صديقاً ، والبغيض ولياً ، والثقيل خفيفاً ، والعبـــد حرّاً ، والحرّ عبداً . وفيها قول الشاعر :

ما من صديقٍ ، وإن أبدى مودَّتَهُ يوماً بأنجحَ في الحاجاتِ من طبقِ
إذا تقنّـــع بالمنديل مُنطلِقاً ، لم يخشَ نبــوةَ بوّابٍ ولا غَلَقِ
لا تُكثِرَنّ ، فإنَّ الناسَ مُذْ خُلِقوا لرغبةٍ كلُّ ما يُعطونَ أو فَرَقِ !

وقال آخر :

إذا أردت قضاء الحاج من أحدٍ قدّمْ لنجواك ما أحببتَ من سببِ
إنّ الهدايا لهـــا حظٌّ إذا وردَتْ أحظى من الإبنِ عند الوالدِ الحدِبِ

وقد قيل : « كلّ يهدي على قدره » . وذكروا أن سليمان بن داوود ، عليه السلام ، بينما هو يسير بالريح ، إذ أتى على عش قنبرة ، فيها فراخ لها ، فأمر الريح ، فعدلت عن العش ؛ فلما نزل ، وافق يومه ذلك النيروز ، فجاءت تلك القنبرة ، حتى رفرفت على رأس سليمان ، والقت في حجره جرادة ، فقيل له في ذلك ، فقال : « كلّ يهدي على قدره » .

وكان مما تهديه ملوك الأمم الى ملوك فارس، طرائف ما في بلدهم ؛ فمن الهند الفيلة والسيوف والمسك والجـــلود ، ومن تبت والصين المسك والحرير والسكّ والاواني ، ومن السنك الطواويس والببغاء ، ومن الروم الديباج والبسط . وكان القواد والمرازبة والاساورة يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة ، والوزراء والكتاب والخاصة من قرابانهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملونة بالذهب ، والعظماء والاشراف ، البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود والسروج وآلاتها ؛ وربما أُهديَ الرجل الشريف سوطاً

فقبله . وكان [1] الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، وأصحاب الجوهر الجوهرَ ، وأصحاب نتاج الدواب ، الفرس الفاره ، والشهري النادر ، والحمار المصري ، والبغال الهماليج ؛ والظرفاء ، قرب الحرير الصيني مملوءة ماورد [2] ؛ والمفلفلةُ القسيّ والرماح والنشاب ؛ والصياقلة والزرادون ، نصول السيوف والدروع والجواشن والبيض والأسنة ؛ وكانت نسوة الملك تهدي إحداهن الجارية الناهدة ، والوصيفة الرائعة ، والاخرى الدرة النفيسة ، والجوهرة المثمنة ، وفص خاتم ، وما لطف وخفّ ؛ وأصحاب البز ، الثوب المرتفع من الخزّ والوشي والديباج وغير ذلك ، والصيارفة نقر الذهب والفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنانير ، وأوساط الناس دنانير ودراهم من ضرب سنتهم ، مودعة أترجة أو سفرجلة او تفاحة ، والكاتب واقف يكتب كل مهدٍ ، وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز .

ومن الهدايا التي لم يسمع السامعون بمثلها ، هدية أبرويز الى ملك الروم ، بعقب محاربة بهرام جوبين ، وقد شارف الروم ، فأنفذ رسولاً يستنجده ، وبعث اليه مائة غلام من أبناء الاتراك مختارين في صورهم ونفوسهم ، في آذانهم أقرطة الذهب ، معلق فيها حبّ الدرّ على مراكب بسروج الذهب ، منظمة باليواقيت والزمرد ، وبعث معه بمائدة من عنبر ، فتحها ثلاثة أذرع ، مكللة المستدار بالدرّ ، لها ثلاث قوائم من ذهب: إحداها ساعد أسد مع كفه ، والأخرى ساق وعل مع ظلفه ، والثالثة كفّ عقاب . في كف الاسد ياقوتة خضراء ، وبين ظلفي الوعل ياقوتة حمراء ، وفي كف العقاب قبجة من اللازورد ، عيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة ، وفي وسط المائدة جام من جزع يماني فاخر ، فتحة شبر في شبر ، مملوء يواقيت حمراً ؛ وسفط ذهب فيه مائة درة ، كل درة مثقال ، ومائة لؤلؤة ، كل لؤلؤة مثقال ، ومائة خاتم من ذهب مرصّع بالجوهر ، مشبك الاعلى ، حشوُه مسك وعنبر ، ووصل رسل أبرويز الى ملك الروم بهذه الهدية ، فأنجده ، وأرسل اليه عشرين الف فارس بالسلاح الشاك ، وبعث اليه بألفي ألف دينار لأرزاق جنده ، وألف ثوب منسوج ، وعشرين جارية من بنات ملوك الصقالبة بأقبية الديباج المطير . في آذانهنّ أقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤوسهن أكلة الجوهر .

وانفذ اليه عشرين مركباً ، على كل مركب صليب ، تحت كل صليب ألف فارس وألف برذون وألف شهري وألف بغلة وألف نجيب ، بسروج مذهبة ، وأكف مذهبة ، ولجم من

---

١ — وقد وردت في بعض النسخ : « وكانت » .

٢ — ماورد ، ترخيم ماء الورد .

ذهب مصبوب ، وبرادع مذهبة ، وجلال وبراقع ديبـــاج ملسوج بالذهب واللؤلؤ ، وأوقر البغال ، من السندس والاستبرق والذهب واللؤلؤ .

وبعث اليه مساحة جريب أرض من ذهب ، فيه نخلٌ من ذهب ، سعفه الزمرد ، وطلعه اللؤلؤ ، وشماريخه الياقوت الاحمر ، وكربه الجزع .

وبعث اليه ألف الف لؤلؤة ، كل لؤلؤة الف دينـــار ؛ وبعث اليه الف الف درهم ، مثاقيله الف الف دينار خسرواني ، وأتى به ، واعتذر اليه من التقصير ، فقابله ملك الروم عامه المقبل يوم النيروز ، بفارس من ذهب على شهري من فضة ، عينا الشهري جزع ابيض ، محدق بسواد ، وناصيته وعرفه وذنبه شعر اسود ، بيد الفارس صولجان من ذهب ، والى جانبه ميدان من فضة ، في وسط الميدان كرة عقيق احمر ، يحمل الميدان ثوران من فضة ، والشهري يبول الماء ؛ فاذا بال ، انحط الصولجان على الكرة ، فمرّ بها الى اقصى الميدان ، فتحرك بحركاتها الثوران والميدان ، ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهري .

فأما اهل الاسلام ، فلم يُسمع بمثل هدية حسان النبطي الى هشام بن عبد الملك ؛ فانه اهدى اليه والى أمهات اولاده هدايا كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها ، فاستكثرها هشام ، وقال : « بيت المال أحق بهذا » ، ثم امر فنودي عليها ، فبلغت مائة الف دينار ، فبعث حسان اثمانها ، وقال : « يا امير المؤمنين ، قد طابت الآن ، هذه مائة الف دينار تحمل الى بيت المال ، فأقبل هديتي » ؛ فقبلها ، ونادى على مناديه حسان ، سيد موالي امير المؤمنين : « قد طابت الآن هذه » .

واستملح المأمون من أبي سلمة ذكر هدية لطيفة ، قال : أهدي الى امير المؤمنين خوان[1] من جزع ، ميلاً في ميل ، فقال المأمون : « أو قـُبضت الهدية » ؟ قيل : « نعم » . قال : « أفهي في داري ام داري فيها » ؟ قال : « بل هي في منديل » . فدعى بهديته ، فاذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب ، قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه ، فاستملحه وقبله .

وأهدت اسماء بنت داود الى اسماء بنت المنصور مائة مركن من فضة ، فيها أنواع اللخالخ

---

١ ــ ولا ندري لماذا وردت في بعض النسخ « خواناً » ، علماً بأن الكلمة في محل نائب فاعل للفعل المجهول « أهدي » .

والريحان المطيّب ، ومائة جفنة مطيبة ، وانواع من الأطعمة والأشربة ، وعشراً من الوصائف في قد واحد ، فقومت هديتها ، فبلغت خمسين الف دينار .

وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب ، فيه ألفا مثقال من العنبر، وكتب اليه :

يا إمام الهُدى ، سُعِدْتَ من الدَّهرِ بركنٍ من الإِله ، عَزيزِ
وبظلٍّ من النعيمِ مديدٍ ، وبحرزٍ من الليالي ، حريزِ
لا تَزَلْ ألف حجّةٍ مهرَجانٍ أنتَ تُفضي به إلى النَّيْرُوزِ
ونَعيمٍ ألذّ من نَظَرِ المعشوقِ ، من بعدِ نَبْوَةٍ ونُشوزِ

قال خالد المهلبي : « أهديت الى المتوكل في يوم نيروز ثوب وشيٍ منسوج بالذهب ، ومشمّة عنبر ، عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ، ودرعاً مضاعفة ، وخشبة بخور نحو القامة ، وثوباً بغدادياً يقطع ثوباً . فأعجبه حسنه ، ثم دعا به ، فلبسه ، وقال : « يا مهلبي ، انما لبسته لأسرّك به » ، فقلت : « يا امير المؤمنين ، لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوّة منك ، فكيف وانت سيد الناس ، واحسن من جميع مـــا تقدم ذكره ، قول عبدالله العباسي ، والي الحرمين ، فانـــه قال : « هذا يوم يُهدى فيه الى السادة والعظماء ، والواجب ان اهدي سيدي الاكبر » . ثم دعا بعشرة آلاف دينار ، فقسمها على اهل الحرمين ، فكانت فكرته في هذا احسن من فعله .

التلطف في الهدايا : كتب سعيد بن حميد الى بعضهم : « النفس لك ، والمال منك . غير اني كرهت ان أخلـّي هذا اليوم من سنة ، فأكون من المقصّرين ، أو أدّعي ان في ملكي ما يفي بحقك ، فأكون من الكاذبين . وقد وجهت اليك بالسفرجل لجلالته ، والسكر لحلاوته ، والدرهم لنفاقه ، والدينار لعزّه ؛ فلا زلت جليلاً في العيون ، مهيباً في القلوب ، حلواً لاخوانك كحلاوة السكر ، عزيزاً عند الملوك ، لا تحسن أمنيتهم إلا بك ، ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم» .

واهدى احمد بن يوسف الى ابراهيم بن المهدي، وكتب اليه : « الامراء ، اعزّك الله ، تسهل سبيل الملاطفة في البر ، فأهديت هدية من لا يحتشم الى من لا يغتنم مالاً ، فلا اكثره تبجّحاً ، ولا اقله ترفعاً » .

هدايا النيروز : قال : كتب الحسن بن وهب الى المتوكل في يوم نـــيروز بهذه الرقعة :

« اسعدك الله ، يا امير المؤمنين ، بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في إقبال الزمان ، وبسط بين خلافتك الآمال ، وخصك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشد بك أزر التوحيد ، ووصل لك بشاشة ازهار الربيع المونق ، بطيب ايام الخريف المغدق ، وقرّب لك التمتع بالمهرجان والنيروز ، بدوام بهجة ايلول وتموز ، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة اليها نهاية ضارب المثل ؛ وعمر ببلائك الاسلام ، وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسربلك العافية ، وردّاك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالاقبال متصدية ، والازمنة اليك راغبة متشوّقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » . وكتب في آخره :

فداكَ الزمانُ ، وأهــلُ الزمانِ　　إمامَ الهُدى بــك مُستَبْشِرينا
وقــد ألقوا إليك مقاليدَهم　　جميعاً مُطيعين ، مُستوثقينا
ولا زلتَ زينــاً لأعيادِنا　　وللدين كهفاً وحصناً حصينا
يَعِزُّ بدولتِــك الصالحــونَ　　ويشقَى بك الشِّركُ والمُشركونا
فيــا رُبَّ مشكلةٍ أبرقَت　　فجلَّلتَها السيفَ حقّاً يقينا
بصــدقِ عزيمــةِ مُستَبْصِرٍ　　وضَربٍ يقدُّ الطُّلى والمُتونا
وسُمتَ النَّصارى بشيطانِهــا　　وذلَّلتَ منها الأغرَّ البَطينا
وكم فِعلَةٍ لكَ في المُشركينَ　　أقرّت عيوناً ، وأبكَتْ عيونا!

وكتب آخر :

المهرجانُ لنا يومٌ نُسَرُّ بهِ　　يَومٌ تُعَظِّمُهُ الأشرافُ والعَجَمُ
وأنتَ فيه لنا بَدرٌ يضيءُ كما　　أنَّ السَّماءَ ببدرِ الليل تبتسِمُ

وكتب آخر :

عيدٌ جديدٌ ، وأنتَ جــدَّتُه　　يا مَن به للزَّمانِ تجــديدُ
لا زال طولُ الزَّمانِ يُرجِعُه　　وظِلُّ مُلكِ عليكَ ممدودُ

وقيل للمازني : أي هؤلاء اظرف في شعره الذي يقول :

جُعِلتُ فداكَ ، للنيروزِ حقٌّ فأنتَ عليَّ أعظمُ منهُ حقّا
ولو أهديتُ فيه جميعَ ملكي لكان جليلُه لك مُستدقّا
فأهديتُ الثناءَ بنظمِ شعرٍ وكُنتَ لذاكَ منّي مستحقّا !

ام الذي يقول :

دخلتُ السُّوقَ أبتــاعُ وأستَطْرِفُ ما أُهدي
فما استطرفتُ للإهدا ءِ إلّا طُرَفَ الحمدِ
إذا نحنُ مــدحناكَ رَعَيْنَا حُرْمَةَ المجدِ !

ام الذي يقول :

وكم من مُرسِلٍ لك قد أتاني بما يُهدي الخليلُ إلى الخليلِ
فأظهرتُ السُّرورَ وقلتُ : أهلاً وسهلاً بالهــديَّةِ والرسولِ

فقال : أشعرهم جميعهم ، وأظرفهم الذي يقول :

فوالله لا أنفكُّ أهدي شوارداً إليكَ يُحَمِّلْنَ الثناءَ المُبَجَّلا
ألذَّ من السلوى ، وأطيبَ نفحَةً من المسكِ مفتوتاً ، وأيسَرَ محَملا

وبعث سعيد بن حميد الى احمد بن ابي طاهر قارورة ماورد ، وكتب اليه :

وزائرةٍ حــوريّةٍ فارسيّةٍ كنَشرِ حبيبٍ حادَ يوماً عن الصَّدِّ
ترُدُّ ربيعاً في مصيفٍ بنفحةٍ أذا فقَدَتْ وَرْداً تنوبُ عن الوَرْدِ
حكى نشرُها منه خلائقَ نَشْرهِ كنشر نسيم الروضِ في جنّةِ الخُلدِ

وشبّهتُها في صفوِها بصفاتِهِ   لإخوانهِ في القُربِ منهُ وفي البُعدِ
وأهدَتْ لنا منهُ النسيمَ نُسَيْمَةٌ   وان كان إن حالت، يدوم على عهدِ

وعن اسحق بن ابراهيم الموصلي ، قال : دار كلام بين الأمين ، وبين ابراهيم بن المهـــدي ؛ قال : فوجد عليه الأمين ، فهجره ، فوجّه اليه ابراهيم بوصيفة مغنـّية مع عبد هندي ، فأبى الأمين ان يقبلها ، فكتب اليه :

هتكتَ الضّمير بردُّ اللُّطَفْ   وكشَّفْتَ هجركَ لي فانكشَفْ
فإنْ كُنتَ تحقِدُ شيئاً مضى   فَهبْ للخلافَةِ ما قد سَلَفْ
وَجُدْ لي بِعَفْوِكَ عَن زَلّتي   فبالفَضْلِ تأْخُذُ أَهلَ الشَّرَفْ

فرضي عنه ، ودعاه للمنادمة !!

هدايا الفصد : قال ابن حمدون النديم : افتصد المأمون ، فأهدى اليه ابراهيم بن المهدي جارية ، معها عود ورقعة فيها :

عفوتَ وكان العفوُ منكَ سجيةً   كما كان معقوداً بمفرِقِكَ المُلكُ
فإنْ أَنتَ أَتمَمْتَ الرّضى فهو المُنى   وإن أنتَ جازيتَ المُسيءَ فذا الهُلْكُ

فقال المأمون : خرف الشيخ . يوم مثل هذا ، يذكر الثواب والآخرة ، فلا يقبل الوصيفة ؛ واغتمّ ابراهيم ، وكتب اليه مع الوصيفة :

لا والذي تسجدُ الجباهُ له   ما لي بما دونَ ثوبِها خَبَرُ
ولا بفيها ، ولا هممتُ بها ،   ما كان إلّا الحديثُ والنظرُ

فقال المأمون : « نعم الآن أقبلها » ، فقبلها .

قال ابو القاسم بن ابي داوود : كنت عند احمد بن محمد العلوي ، وقد افتصد ، فخرج بعض الخدم ، ومعه طبق من فضة ، عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب :

سُرَّ ، الغداةَ ، بوجهِكَ اللَّعِبُ ، وجرى بيُمنِ فِصادِكَ الطَّرَبُ
وتداعتِ العيدانُ في زَجَلٍ وتناولَتْ راحاتِها النُّخَبُ
فاشرَبْ بهذا الجامِ يا مَلِكي شُرباً حثيثاً ، إنَّه عجَبُ
واجعَلْ لمنْ قد خفَّ في لَطَفٍ مَنْ زَوْرُهُ يُخْشَى ويُرْتَقَبُ !

فقال للخادم : « اخرجها الى الستارة » ، فخرجت ، وخلا ليلته بها .

وقيل : افتصد المعتصم ، وأهديت اليه « شمائل » صينية عقيق ، عليها قدح أسبل عليها منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر ، في كل ربع منه بيت شعر :

خَضَبَ الخليفةُ كفَّهُ من فصدهِ بِدَمٍ يُحاكي عَبرةَ المُشتاقِ
تاه الفِصادُ فمـــا يُقام لِتيههِ إذ صارَ مُفتَصِداً أبو إسحاقِ
وتوافَتِ العيدانُ عندَ حُضورهِ قُبُّ البطونِ ، ذوابلَ الأعناقِ
مَلِكٌ إذا خطَر الشَّرابُ ببالهِ لَبِسَ السُّرورُ غلائِلَ الإشراقِ

فلما قرأه امر باحضار اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وأمره ان يجعل له لحناً ، وأمر مسروراً باخراجها من وراء الستارة ؛ ثم لم يزل اسحاق يردد هذه الابيات حتى احكمتها شمائل ، وغنت ، فكأن سفط الدر يتناثر من فيها ؛ وأمر لإسحق بمال ، وللجارية بخمس وصائف ، وخمسة آلاف دينار .

قال المبرّد : اهدى اليزيدي الى الرشيد ، يوم فُصد ، جام بلّور ، وشمامات غالية ، وكتب اليه : يا أمير المؤمنين ، تفاءلت في الشرب في الجام بجمام النفس ، ودوام الأنس ، والغالية للغلو في السرور ، ولازدياد من الخير والحبور ، وقلت :

دمُ الفصدِ من يدِكَ العاليَهْ يُداعي لجسمِكَ بالعــافيَهْ
كَسَا الدَّهرَ ثوباً من الأرجوانِ بديعَ الطِّرازَيْنِ والحاشِيَهْ
وعَصْفَرَ صفحةَ وجهِ الرَّبيعِ ، بِصَبْغٍ مِنَ أسرارِه الجاريَهْ

فكم روضَةٍ نشرَتْ وَشْيَها ، وزهرةِ روضٍ غَدتْ زاهيَهْ
إمامٌ أسالَ دَمَ المكرُماتِ فشجَّجَ أقتَالَها الحـــامِيَهْ
فلا زالَ في عيشَةٍ راضِيَهْ ودامَتْ له النِّعمَةُ الكافِيَهْ

قال اليزيـــدي : افتصد المأمون ، فأهدت اليه « رباح » اترجة عنبر عليه مكتوب بماء الذهب :

تَعالَج من هَوَيْتَ بفَصْدِ عِرقٍ فأضحى السُّقْمُ في خِلَع الخُضُوعِ
وجاءَتْ تُحفَةُ الأحبابِ تَسعَى بوردِ فائضٍ فَيْضَ الدُّموعِ !

فقال المأمون لليزيدي : « ويحك ، ما تقول فيمن كتب هذين البيتين » ؟ قال : « يكافأ بالدنيا وما استدقّ منها » ، فأمر لها بمال كثير ، ووصلني ببعضه .

قال : وافتصد عبد الله بن طاهر ، فأهدى له « ابو دلف » جميع ما اصاب في السوق من الورد ، وكتب اليه :

تضاحكَ الوردُ في وجهي، فقلتُ له : لِمْ ذا ؟ فقال : أبو العبَّاسِ مُفتَصِدُ!
فقُمْتُ أطلبُ ما أهديهِ من طُرَفٍ للفَصْدِ في السُّوقِ، حتى خانَني الجَلَدُ
يومُ الفِصـــادِ له أزرٌ مُطَيَّبَـــةٌ محجوبةٌ لا يَراها الجُردُ والزُّرَدُ
فاشرَبْ على الوردِ مسروراً بِطَلْعَتِهِ يا بْنَ الكِرامِ ، فأنتَ السيِّدُ النَّجِدُ

قال عمرو بن بانة : اعتلّ المعتصم ، فأشار عليه بختيشوع بالفصد ، وأنا عنده ، فأخرجت اليه هدايا الفصد ، وكان فيما أخرج ، طبق صندل مكتوب عليه بجزع ، كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر ، فأمر بقراءة ما عليه ، فاذا هو :

فُصِدَ الإمامُ لعلَّةٍ في جسمِهِ فشفَى الإلٰهُ السُّقْمَ بالفَصْدِ
وجرى الى الطَّشْتِ السَّقامُ مُبادراً وجرى الشِّفاءُ إليه بالسَّعْدِ

يا مالكاً مَلَكَ العبادَ بجُودِهِ إسْلَم ، سلمتَ ، بعيشةٍ رَغْدِ !

فقال : « يا عمرو ! من يلومني على حب هذه الجارية ، والله ما أراها إلا تزايدت في عيني ، وخليقٌ ان تُنجب ، فان لها همة » . فولدت له غلاماً ، وكانت آثر جواريه عنده ، وأحظاهن لديه .

وأخبرنا ابراهيم القارىء قال : كنت عند المأمون ، فاحتاج الى الفصد ، فقال الأطباء : « البلد بارد » ، فقال : « لا بد لي منه » ؛ ففصدوه ، فلما كان وقت الظهر ، حضروا ، فراموا فجر العرق ، فاذا هو قد التحم ، فشدّوا الرباط ، وفيهم (متحا) يدق ، فما ظهر الدم ، فقال لهم المأمون : « عقرتموني » ، فحلوا الرباط ، وعلى رأسه بختيشوع وابن ماساويه ، فقال : « ما تقولون » ؟ قالوا : « ما ندري ما نقول » ؟

قال : فأشاروا هناك ان جلالة الخليفة ، ربما أدهشت الحــاذق بالصناعة ، والمتقدم في الرياسة ؛ فاعتزلوا ناحية ، وأبطأوا عليه ، فقال لأسودٍ كان على رأسه : « أدنُ » ، فمص الجرح ، ففعل ، فثار الدم فقال : « أدع هؤلاء الحاكة » ، فجاؤوا ، وشهدوا خروج الدم ؛ قال : « أين كنتم » ؟ قال ابن ماسويه : « لو فعل جالينوس ، ما زاد عليه » .

قال : وافتصد أحمد بن عيسى بالريّ ، وهو أميرها ، فكتب اليه جعفر الشيباني :

فَصَدْتَ بأرضِ الرّيِّ ، طابَ لكَ الفَصْدُ وفارقَ نجمَ النّحسِ طالِعَكَ السَّعْدُ
فأعقبَكَ الحُسنى التي لا مدى لها ، ولا زال بُرْدَيكَ الجلالَةُ والحَمْدُ
تورَّدَتِ الدُّنيا بِفَصْدِكَ مِثْلَ ما بِفَصْدِكَ يابْن المُصطَفى ضَحِكَ الوردُ
فلا أبْصَرَتْ عيناكَ ما عشتَ شانياً ومِن كُلِّ ما تَهواهُ ، لا خانكَ العهدُ

وفي مثله :

يا قاصداً من يدٍ جلَّت أياديها ونال منهُ الذي يرجوهُ راجيها
يدُ الندى هيَ ، فارفُقْ لا تُرِقْ دَمَها فإنَّ آمالَ طُلّابِ الندى فيها

قال : وكتب الحمدوني الى الفضل بن جعفر ، وقد افتصد :

ألا يا طبيبَ الفصدِ ، هل أنت عالِمٌ بما صنعتْ كفّاكَ في كَفٍّ ذي المجدِ
أَسَلْتَ دماً مِن ساعدٍ ينثني بها حَياءَ ندىً فاقصِدْ بذَرعِكَ في الفَصْدِ
فداوَيْتَ كفّاً تعلمُ النّاسُ أنها دواءٌ مِن الأمحالِ في الزّمَنِ النّكْدِ
ولمـــا أتانا المُخبِرونَ بِفَصْدِهِ أردتُ بأنْ أُهدي على قدر ما عندي
وشاورتُ فاستصحبتُ آلي وجيرتي فلم أرَ أمرى من ثناءٍ ومن حمدِ !

وقال آخر :

تُوَّنق من ثنائِكَ في الهـــدايا غَداةَ أردتَ فَضْلَ الباسِلِيْقِ
فلم أرَ كالدُّعـــاءِ أتمَّ نفعاً وأجمل في مكافأة الصديقِ
وأكثرتُ الدُّعاءَ ، وقلتُ : ربِّي يقيكَ شرورَ آفاتِ العُروقِ

وقال آخر :

على طِيْبِ أيّامِ التمتُّع بالوردِ فصدتَ ، فأُصبحتَ السّلامَة في الفَصْدِ
ولا زلتَ ، لا زالت من الله أَنعُمٌ عليك قريرَ العينَ ، مُغتبط الحَسْدِ
لقد رُمتُ جَهدي طُرْفَةً وهدِيَّةً إليكَ ، فكان الشُّكْرُ أكثَر ما عندي

وقال آخر :

أيُّها الفاصِدُ العليلُ الصّحيحُ بأبي ذلك الجِراحُ الجريحُ ،
إنَّ مَن علَّق الذّراعَ من الفصـ ـدِ الى الجيدِ ذاكَ شيءٌ مليحُ
أيُّها الفاصِدُ المُهنَّا له الوَرْدُ وفي وجنَتَيْهِ وردٌ يَلوحُ

وقال آخر :

أيُّها السيّدُ الذي فصد العرقَ وأرخى دوني ذُيولَ السُّرورِ
كم تمنَّيتَ أن أكونَ طبيباً ومُنى الصَّبِّ تُرَّهاتُ الغُرورِ

وقال آخر :

أجمِلْ ، جُعلتُ فِداكَ ، بالجِلْدِ وامنُنْ عليَّ بأجمَـلِ الرَّدِّ
لو عايَنتْ عيناكَ مُضطَرَبي وتفرُّدي بالَمـدِّ والشَّدِّ
وتخشُّعي عند الطبيبِ كأنَّهُ مولًى يُريدُ عُقوبةَ العَبْدِ[1]
كالنارِ مبضَعُهُ يُقلِّبُـهُ ويُديرُ مُقلَةَ حازمٍ جَلْدِ
حتَّى اعتزَمتُ على مُحاجزةٍ وَصدَدْتُ عَنْهُ أيَّمـا صَدِّ
ما كان من ألَمٍ شعرتُ به إلَّا كموقعِ شُرْطَةِ الجِلْدِ
إذ سالَ مُنْبَعِثـاً سوابِقُهُ كالنَّارِ خارجةً من الزَّنْدِ
فَسَلِمتُ والرَّحمنُ سلَّمـني ذو المَنِّ والآلاءِ والحمدِ
ما بَعْدَ طبَّاخي لِمُفتَخِرٍ فخرٌ لِمَنْ قَبلي ومَنْ بَعدي
نَصبَ القُدورَ بنفسِهِ كَرَماً لِنُصِيبَ شهوَتنا على عَمْدِ
فأجاد صُنْعَتَها وعجَّلَهـا من غير ما تَعَبٍ ولا جَهْدِ
ونبيـذُنا صافٍ ومجلِسُنا في الطِّيب يحكي جَنَّةَ الخُلْدِ
فَهَلُمَّ واحضرْ غَيرَ مُحْتَشِمٍ واجعَلْ غِذاءَكَ ، سيّدي ، عندي
لا تجمعَنَّ عـليَّ مُحْتَسِباً ضَعفَ العليلِ ، ووحشةَ الفردِ

الوصائف المغنيات : قال الأصمعي : بعث إليّ هرون الرشيد ، وهو بالرقة ، فحملت اليه،

---

١ – صدر البيت غير متسق في وزنه مع وزن القصيدة .

فأنزلني الفضل بن الربيع ، ثم أدخلني عليه وقت الغروب ، فاستدناني ، وقال : يا عبد الملك ، وجهت اليك بسبب جاريتين أهديتا اليّ ، وقد أخذتا طرفاً من الأدب أحببت ان تبرز ما عندهما ، وتسير على الصواب فيها ، ثم أمر باحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط ، فقلت لإحداهما : « ما عندك من العلم » ؟ قالت : « ما أمر الله في كتابه ، ثم ما ينظر فيه الناس من الاشعار والاخبار » . فسألتها عن حروف القرآن ، فأجـــابتني كأنها تقرأ في كتاب الله . ثم سألتها عن الاشعار والاخبار والنحو والعروض ، فما قصّرت عن جوابي في كل مَن أخذت فيه . فقلت لها : فأنشدينا شيئاً فأنشدت :

يا غِياثَ ٱلبلادِ في كلِّ مَحْلٍ ... ما يُريدُ العِبادُ إلَّا رضاكا
لا ومَن شرَّفَ الإمامَ، وأغلَى ... ما أطاعَ الإلٰه عبدٌ عصاكا

فقلت : يا أمير المؤمنين ! ما رأيت امرأة في نسك رجل مثلها ؛ وخـــبرت الأخرى ، فوجدتها دونها ؛ فأمر ان تصنع تلك الجارية لتحمل اليه في تلك الليلة ، ثم قال لي : « يا عبد الملك ، أنا ضجرٌ ، وأحب ان تسمعني حديثاً مما سمعت من أعاجيب الزمـــان نفرح به » . فقلت : يا أمير المؤمنين ! كان لي صاحب في بدو بني فلان ، وكنت أغشاه ، وأتحدث معه ، وقد أتت عليه ستٌ وتسعون سنة ، وهو أصح الناس ذهناً ، وأقواهم بدناً ؛ فغبت عنه ، ثم أتيته ، فوجدته ناحل البدن ، كاسف البال ، فسألته عن سبب تغيّره ، فقال : قصدت بعض القرابة ، فألفيت عندهم جارية قد طلت بالوَرْس بدنها ، وفي عنقها طبل تنشد عليه :

محاسِنُهـــا سهامٌ للمنـــايا ... مُرَيَّشَةٌ بأنواعِ الطُّيوبِ
ترى ريبَ المنونِ بهنَّ سهماً ... تُصيبُ بِنَصْلِهِ مُخَّ القُلوبِ

فقلت :

فقي شَفتي من موضعِ الطبلِ ترتَعي ... كما قد أَبَحْتِ الطَّبلَ في جيدكِ الحَسَنْ
فَهَبْنِيَ عــوداً جَوفُهُ تحتَ مَتْنِهِ ... يُمَتِّعُني ما بينَ نحرِكِ والذَّقَنْ !!

فلما سمعت شعري رمت بالطبل في وجهي ، ودخلت الخيمة ، فوقفت حتى حميت الشمس

على مفرقي ولم تخرج ، فانصرفت قريح القلب ؛ فهذا التغيّر من عشقي لها » .

فضحك الرشيد حتى استلقى ، وقال : « ويلـــك ، يا عبد الملك ! ابن ستّ وتسعين وتعشق » ؟! فقلت : « قد كان هذا » ! فقال : « يا عبّاس ، اعط عبد الملك مائة ألف درهم ، وردّه الى مدينة السلام » . فانصرفت ؛ ثم أتاني خادم ، فقال : « انا رسول ابنتـــك (يعني الجارية) ، تقول لك : ان أمير المؤمنين قد أمر لها بمال ، وهـــذا نصيبك » ؛ فدفع اليّ ألف دينار ، ولم تزل تواصلني بالبرّ الواصل حتى كانت فتنة محمد ، وانقطع خبرها ، وأمر الفضل لي بعشرة آلاف درهم .

(وقال) [1] عليّ بن الجهم : لما أفضت الخلافة الى المتوكل ، أهدى اليه الناس على أقدارهم ؛ فأهدى اليه ابن طاهر جارية اديبة تسمى « قبيحة » ، تقول الشعر وتلحّنه ، وتحسن من كل علم أحسنه ، فحلّت من قلب المتوكل محلاّ جليلا ، فدخلت يوماً للمنادمة ، وخرج المتوكل وهو يضحك ، وقال : يا علي ، دخلت فرأيت « قبيحة » كتبت على خدها بالمسك « جعفر » ، فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فسبقتني محبوبة ، وأخذت عودها فغنّت :

وكاتبةٍ بالمِسكِ في الخَـــدِّ جعفرا　　بِنَفْسِيَ خَطُّ المسكِ من حيثُ أَثَّرا
لئِن أودَعَتْ سطراً من المسكِ خَدَّها　　لقد أودَعَتْ قلبي من الوَجْدِ أسطُرا
فيا مَن لِمَمْلوكٍ يَظَـــلُّ مليكُهُ　　مُطيعـــاً له فيما أَسَرَّ وأَجْهَرا
ويا مَنْ لعيني مَن رأى مثلَ جعفرٍ　　سقى اللهُ صوبَ المُسْكِراتِ لجعفَرا

قال : فتبلت خواطري ، حتى كأني ما أحسن حرفاً من الشعر ، وقلت للمتوكل : « أقلّ ، فقد ، والله ، غرب عني ذهني» ، فلم يزل يعيّرني به ، ثم دخلت عليه للمنادمة ، بعد ذلـــك ، فقال : « يا عليّ ، أعلمت أني قد غاضبت « محبوبة » ، وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ومنعت أهل القصر من كلامها » ؟ فقلت : « يا سيّدي ، ان غاضبتها اليوم ، فصالحها غداً » ، فدخلت عليه من الغد ، فقال : ويحك ، يا عليّ ، رأيت البارحة في النـــوم كأني صالحت محبوبة ؛ فقالت

---

١ – أضفنا هذه اللفظة لكي تستقيم العبارة ، وهي غير واردة في بقية نسخ الكتاب .

جاريته : شاطر يا سيدي ، لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة ؛ فقال : ننظر ما هي ، فقام حافياً حتى وصلنا مقصورتها ، فاذا هي تغني :

أدورُ في القصرِ كي أرى أحداً أشكو اليه فلا يكلّمني
فمَن شفيعٌ لنا إلى ملكٍ قد زارني في الكرى يعاتبُني
حتى إذا ما الصباحُ عادَ لنا ، عاد الى هجرهِ ففارقَني

فصفـّق المتوكل طرباً ، فلما سمعَته ، خرجت تقبّل رجليه ، وتمرغ خدها في التراب ، حتى أخذ بيدها ، راضياً عنها .

حدّث أبو علي بن الأسكري المصري ، « وأسكر هي القرية التي ولد فيها موسى عليه السلام » ، قال : كنت من جلاس تميم بن تميم ، وممن يخف عليه ، فأتى من بغداد بجارية رائعة فائقة الغناء ، فدعا بجلسائه ، وقدمت الستارة ، فغنـّت :

وبدا لَهُ ، من بعد ما اندمَلَ الهوى برقٌ تألّقَ موهناً لمعانُهُ
يبدو كحاشيةِ الرّداء ، ودونَهُ صَعبُ الذُّرى ، مُتَمَنّعٌ أركانُهُ
وبَدا لينظُرَ كيف لاحَ ، ولم يُطِقْ نظراً إليه ، وهدَّهُ هيجانُهُ
فالنارُ ما اشتملَتْ عليه ضلوعُهُ والماءُ ما سحّتْ به أجفانُهُ

قال : فأحسنت ما شاءت ؛ فطرب تميم ومن حضر ؛ ثم غنـّت :

سَيسليكَ عما دونَ دولةِ مفضلٍ أوائلُهُ محمودَةٌ وأواخِرُهْ
ثنى اللهُ عطفَيه ، وألّفَ شخصَهُ على البِرِّ مُذْ شُدّت عليه مآزِرُهْ

فطرب تميم ومن حضر ، ثم غنـّت :

استودِعُ اللهُ في بغداد لي قمَراً بالكرخِ من فلك الأزرارِ مطلَعُهُ

فأفرط تميمٌ في الطرب جداً ، وقال لها : « تمنّي ما شئت ، فلك مناك » ، قالت : « أتمنى أيها الامير ، عافيته وسلامته » ، فقال : « والله لا بـــدّ ان تتمني » ! فقالت : على الوفاء ، أتمنى ان أغنّي هذه النوبة ببغداد » . فتغيّر وجه تميم ، وتكدّر المجلس ، وقمنا ، فلحقني بعض خدمه ، فردّني ؛ فلما وقفت بين يديه ، قال : « ويحك ، أرأيت ما امتُحنا به ، ولا بدّ لنا من الوفاء ، ولم أثق في هذا بغيرك ، فتأهّب لحملها الى بغداد ، فاذا غنّت هناك ، فاصرفها » ، فقلت : « سمعاً وطاعة » . ثم أصحبها جارية سوداء تخدمها وتعدلها ، وأمر بناقة لي ، فحمل عليها هودج ، وأدخلت فيه ، وسرنا مع القافلة الى مكة ، فقضينـــا حجّنا ، ثم لما وردنا « القادسية » ، أتتني السوداء فقالت : « تقول لك سيدتي أين نحن » ؟ فقلت : « نحن الآن بالقادسية » ، فأخبرتها ، فسمعت صوتاً قد ارتفع منشداً :

لمّـــا رأينـــا القـــادسيَّةَ ... حيثُ مُجتمَـــعُ الرّفاقِ

وشممتُ من أرضِ الحجازِ ... نسيمَ أنفـــاسِ العراقِ

أيقَنْتُ لي ولِمَـــنْ أحِبُّ ... بجمـــع شملٍ واتّفاقِ

وضحكتُ من فرحِ اللقا ... ء ، كما بكيتُ من الفراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيدي بالله ؛ فلم يسمع لها كلمة . فلما نزلنا « الناصرية » ، على خمسة أميال من بغداد ، في بساتين متصلة ، تبيت الناس فيها ، ثم يبكرون ببغداد ، فلما قرب الصباح ، إذ السوداء قد أتتني مذعورة ، فقالت : « إن سيدتي ليست بحاضرة » ؛ فلم أجدها ، ولا وجدت لها ببغداد خبراً ، فقضيت حوائجي ، وانصرفت الى تميم ، وأخبرته خبرها ؛ فلم يزل واجماً عليها .

وأخبار القينات كثيرة ، فنقتصر منها على هذا القدر .

الجواري : قيل : كان يقال : من اراد قلة المؤونة ، وخفّة النفقة ، وحسن الخدمة ، وارتفاع الحشمة ، فعليه بالإماء دون الحرائر » . وكان مسلمة بن مسلمة يقول : « عجبت لمن استمتع بالسراري ، كيف يتزوج المهائر » ؟ وقال : « السرور باتخاذ السراري » ؛ أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم ، حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً ، فرغب الناس في اتخاذ السراري ؛ قال : وليس من خلفاء

بني العباس من أبناء الحرائر إلا ثلاثة : السفاح ، والمنصور ، والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجواري ، وقد علقت الجواري لأنهن يجمعن عز العرب ، ودهاء العجم .

وضده :

إذا لم يكُن في منزلِ المرء حرّةٌ رأى خلَلاً فيما تولّى الولائِدُ
فلا يتّخــذ منهُنّ حُرٌّ قعيدةٌ فهُنّ لَعَمْرُ الله ، شرُّ القعائِدُ [1]

وكان يقال : « الجواري كخبز السوق ، والحرائر كخبز الدور » . ومن امثال العرب : « لا تمازح أمة ، ولا تبكِ على أكمــة » ، وقال بعضهم : « لا تفترس من تداولتها أيدي النخاسين ووقع ثمنها في الموازين » ، وقال : « لا خير في بنات الكفر ، وقد نودي عليهن في الاسواق ، ومرّت عليهنّ أيدي الفساق » .

محاسن الموت

في الحديث المرفوع : « الموت راحة » . وقال بعض السلف : ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه ان كان محسناً فالله يقول :

« وما عِندَ اللهِ خَيرٌ لِلأبْرَارِ » .

وإن كان مُسيئاً، فالله تعالى جدّه يقول أيضاً : «ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً » . وقال ميمون بن مهران : « أتيت عمر بن العزيز ، فكثر بكاؤه ، ومسألته الله الموت . فقلت : « يا أمير المؤمنين ! تسأل ربك الموت ، وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً، أحييت سنناً، وأمتَ بدعاً، وفعلت وصنعت ، ولَبقاؤك [2] رحمة للمؤمنين »، فقال : « ألا أكون كالعبد الصالح حين أقرّ الله عينه ، وجمع له أمره ، قال : « ربّ قد آتيتني من المُلك ، وعلمتني من تأويل الاحاديث » الى قوله : « وألحقني بالصالحين » فما دار عليه أسبوع حتى مات ، رحمه الله » . قالت الفلاسفة : « لا يستكمل الانسان حد الانسانية إلا بالموت ، لأن حد الانسانية انه حيّ ناطق ميت » . وقال بعض السلف : « الصالح إذا مات استراح ، والطالح ، إذا مات ، استُريحَ منه » . قال الشاعر :

---

١ - في البيت اقواء .
٢ - في بعض النسخ « ولبقائك » .

وما الموتُ إلّا راحةٌ غير أنّه　　أبرُّ بنا من كلِّ بَرٍّ وأرأفُ

وقال آخر :

جزى الله عنّا الموتَ خيراً ، فإنّهُ　　أبَرُّ بنا من كلِّ بَرٍّ وأرأفُ
يُعَجِّلُ تخليصَ النُّفوسِ من الأذى　　ويُدني من الدارِ التي هي أشرَفُ

وقال منصور الفقيه :

قد قلتُ، إن مدحوا الحياةَ، فأسرفوا　　في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تُعرَفُ
منهــا أمانُ بَقائِهِ بلقــائهِ　　وفِراقُ كلِّ مُعاشرٍ لا يُنْصِفُ

وقال أحمد بن أبي بكر الكاتب :

مَن كان يرجو أن يعيشَ فانّني　　أصبحتُ أرجو أن أموت فأُعتقا
في الموتِ ألفُ فضيــلةٍ لو أنها　　عُرِفَتْ لكان سبيلهُ أن يُعشَقا

وقال لنكك البصري :

نحنُ ، واللهِ ، في زمــانٍ غشوم　　لو رأيناهُ في المنــامِ فَزِعْنا
أصبحَ الناسُ فيه من سوء حالٍ　　حقُّ مَن مــاتَ منهمُ أن يُهَنّا

وضده : في الحديث المرفوع : « أكثر (؟) وأذكرها ذمّ اللذات (يعني المــوت) » .
قال الشاعر :

يا موتُ مــا أجفاكَ من نازلٍ　　تــنزِلُ بالمرء عــلى رَغْمِــهِ
تستلِبُ العذراءَ من خِدرها　　وتأخــذُ الواحِــدَ من أُمّهِ

وقال :

وكلُّ ذي غيبةٍ له إيابٌ   وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

وقال بعضهم : « الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا » .

وقال ابن المعتز : « الموت كسهم مرسل اليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك » .

وقال بعضهم : « الموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده » .

ونظر الحسن رضي الله عنه الى ميت يدفن ، فقال : « ان شيئاً أوّله هذا لحقيق ان يُخاف آخره ، وان شيئاً هذا آخره لحقيقٌ أن يزهد في اوّله » . وسئِل بعض الفلاسفة عن الموت ، فقال : « مفازة ، من ركبها ضَلّ خبره ، وعفى أثره » .

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب .

انتهى كتاب « المحاسن والاضداد »
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ



الفهرس

الصفحة

الصفحة